المبادئ العامة
في القرآن الكريم

إعداد

د/ مصطفى عبد الكريم محمد مراد كاسب

بطاقة فهرسة
أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كاسب/ مصطفى عبد الكريم مراد
المبادئ العامة في القرآن الكريم / د. مصطفى عبد الكريم مراد كاسب
- ط١- القاهرة: دار المقطم للنشر والتوزيع، ٢٠١٥.
٣٥٢ص، ١٧×٢٤ سم.
تدمك: ٤ ٠٨٤ ٤٧٨ ٩٧٧ ٩٧٨
١- القرآن وعلومه
أ- العنوان ٢٦٠

رقم الإيداع: ٢٠١٥/٨٣٩٥
الترقيم الدولي: 978-977-478-084-4

دار المقطم للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ريحان – عابدين – القاهرة
جمهورية مصر العربية
ت: ٢٧٩٥٨٢١٥ – ٢٧٩٤٦١٠٩ (٠٠٢٠٢)
فاكس: ٢٥٠٨٢٢٣٣ (٠٠٢٠٢)

أصل هذا الكتاب رسالة جامعية حصل بها الباحث على درجة التخصص (الماجستير)

في التفسير وعلوم القرآن من كلية أصول الدين بالقاهرة - جامعة الأزهر في سنة ٢٠٠٥م بتقدير ممتاز مع التوصية بالطبع والتداول

شكر وتقدير

أتقدم به إلى الأستاذين الكريمين والعالمين الجليلين:

فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمود لطفي محمد جاد، رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين بالقاهرة، **وفضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد أمين أبو بكر،** أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين بالقاهرة. على حسن إشرافهما، وسديد توجيهاتهما، وأسال الله تعالى أن ينفعنا بعلمهما، وأن يبارك لنا في عمرهما، وأن يجزيهما خير الجزاء.

كما أتوجه بجزيل الشكر والعرفان أيضًا لشيخي وأستاذي **فضيلة الأستاذ الدكتور/علي جمعة محمد،** مفتي الديار المصرية السابق، وعضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف، وأستاذ أصول الفقه بجامعة الازهر على ما أولاني به من الرعاية والتوجيه بصفة عامة، وفي هذه الرسالة بصفة خاصة، وأسأل الله العلي العظيم أن يجزيه خير ما جزى به عالمًا عن أمة محمد صلَّى الله عليه وسلَّم، وأن يرزقه تمام الصحة والعافية، وأن يحفظه من كل مكروه وسوء، وأن يبارك لنا في عمره وعلمه.

❋❋❋

تقديم

بقلم صاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور/ علي جمعة

عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد: فإن القرآن الكريم هو عهد الله الأخير إلى البشرية جمعاء، حيث ختم الله تعالى الرسالات بنبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وانقطع وحي السماء إلى أهل الأرض؛ فقال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب:٤٠].

والقرآن الكريم كتاب هداية، أنزله الله تعالى لأجل الاسترشاد والاهتداء به، ولن يتأتى ذلك إلا بكثرة مدارسته ومداومة البحث فيه؛ لتجلية هداياته، والقيام بواجب الوقت تجاه كتاب ربنا جلَّ وعلا، وإيجاد أدوات ومجالات جديدة لفهم القرآن الكريم، ومحاولة دراسته من زوايا جديدة ومختلفة، حتى نصل بذلك إلى مراد الله تعالى من خلقه والذي يتمثل في عبادته سبحانه وتعالى، وعمارة الأرض، وتزكية النفس.

والقرآن الكريم بحر لا يدرك غوره، ولا تنفد دُرره، ولا يَخْلَق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه؛ لذلك فقد أودع الحق تبارك وتعالى فيه من المعاني ما لا ينفد، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الكهف:١٠٩]، وقوله أيضًا: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان:٢٧]، وكذلك قول نبينا صلى الله عليه وآله وسلم في ما أخرجه الإمام الترمذي في سننه عن أمير المؤمنين الإمام عليٍّ رضي الله عنه وأرضاه في وصف القرآن الكريم: «وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه».

وهذا البحث الذي نحن بصدده، وهو بعنوان: (المبادئ العامة في القرآن الكريم) محاولة لتأصيل مدخلٍ جديدٍ للدراسات القرآنية؛ حيث إن المتتبع لآيات القرآن الكريم المتدبر فيها يجد طائفة غير قليلة من الآيات القرآنية أو بعض الآية يمكن أن تعد مبدأ عامًا يمثل مكونًا أساسيًّا من عقلية المسلم، وهذه المبادئ العامة إذا جمعت في نسق واحد ودُرس ما بينها من علاقات بينية؛ فإنها تُمَثِّل منهجًا واضحًا وأساسًا متكاملًا لتفكير المسلم سواء في الجانب الفقهي والقانوني وإدراك النص أو في مجال الفكر والنظرة الكلية للإنسان والكون والحياة وإدراك الواقع، أو في مجال القيم والأخلاق والتربية على كافة المستويات، وتتبع هذه المبادئ يساعد أيضًا على بناء النموذج المعرفي الإسلامي الذي نَهْدُف إلى إبرازه للناس بصورة لافتة للنظر، وهو بحث جديد يبين أن هذا الكتاب الكريم لايزال يعطي ويبهر ويهدي العقل إلى سواء السبيل.

وقد حوى هذا البحث شيئًا من ذلك؛ فقد قام الباحث بجهد مشكور في التعريف بفكرة المبادئ القرآنية، وجمعها، وشرحها، وبيان بعض تطبيقاتها في المجالات المختلفة؛ كالاقتصاد، والسياسة، والقانون، وعلم النفس، والتربية، ونسأل الله تعالى أن يبارك فيه وينفع به، وأن يكون بحثه هذا خطوة على طريق مدِّ الدراسات القرآنية لآفاق جديدة ومفيدة؛ إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

أ.د. علي جمعة





عضو هيئة كبار العلماء

بالأزهر الشريف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله حمدًا يوافي نعمه ويكافئ مزيده، يا ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، سبحانك اللّهم لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، اللّهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن القرآن الكريم دستور هذه الأمة، ومعجزة نبينا محمد ﷺ، معجزة تخاطب العقول على مر الأزمان، فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: "**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**"(١) .

ولما كان القرآن الكريم معجزة دائمة خالدة لا تبلى، عكف علماء هذه الأمة عليه يقرؤونه ويتعلمونه ويدرسونه ويتدبرونه ويستخرجون معانيه، ويبحثون في أسراره، بل إنهم لم يصبروا على دراسة كلام كما صبروا على دراسة القرآن الكريم، وذلك لأن القرآن الكريم بما يتضمنه من أحكام هو دين الله عز وجل، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى "أن نهضة الأفراد والأمم لا يمكن أن تقوم إلا على الاسترشاد بتعاليم القرآن ونظمه الحكيمة التي روعيت فيها جميع عناصر السعادة للنوع البشري على ما أحاط به علم الخالق الحكيم، وبدهي أن العمل بهذه التعاليم لا يكون إلا بعد فهم القرآن وتدبره، والوقوف على ما حوى من نصح وإرشاد، والإلمام بمبادئه عن طريق تلك القوة الهائلة التي يحملها أسلوبه البارع المعجز، وهذا لا يتحقق إلا عن طريق الكشف والبيان عما تدل عليه ألفاظ القرآن الكريم" (٢) .

ولما كان القرآن الكريم أحق ما يشتغل به الباحثون، وأفضل ما يتسابق فيه المتسابقون من جهة مدارسته، ومداومة البحث فيه، والكشف عن علومه ومبادئه، وإظهار إعجازه وأسراره، وتجلية

(١) صحيح البخاري كتاب: فضائل القرآن باب: كيف نزول الوحي وأول ما نزل ٦/ ١٨٢ .

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ الزرقاني ٢/ ١٠ .

محاسنه، والدفاع عن ساحته، ونفي الشكوك والريب عنه، ولما كان القرآن الكريم بحر لا يدرك غوره، ولا تنفذ درره، ولا تنقضي عجائبه • فهو أحق ما أفنيت فيه الأعمار وشغلت به الأزمان.

وإني أحمد الله عز وجل إن وفقني إلى اختيار هذا البحث وهو بعنوان: **(المبادئ العامة في القرآن الكريم)** وهو بحث أحسب أنني لم أسبق إليه بهذه الصورة، ولله الحمد والمنة، أسأل الله تعالى أن ينفع به.

ويحسن بي أن أقدم بين يدي هذا البحث هذه المقدمة، وتتضمن أمورًا هي:

- المقصود من عنوان البحث.
- الدراسات السابقة التي تتعلق بموضوع البحث.
- البحث في الدلالة المستقلة للنظم القرآني.
- سبب اختياري لموضوع البحث، والهدف من دراسته.
- منهج البحث في هذه الرسالة.

وفيما يلي بيان ذلك.

❊ ❊ ❊

المقصود من عنوان البحث

(مبادئ): جمع مبدأ، ومبدأ الشيء في اللغة أوله ومادته التي يتكون منها، ومبادئ العلم، أو الدين، أو الخلق، أو الدستور، أو القانون: قواعده الأساسية التي يقوم عليها [١].

يقول فضيلة الأستاذ الدكتور على جمعة – مفتى الديار المصرية: "كلمة مبدأ في العربية مصدر ميمي، والمصدر الميمي يصلح للدلالة على الزمان أو المكان أو الحدث، وهذا يعني أن كلمة (مبدأ) لغةً تعني زمان البدء أو مكانه أو نفس البدء" [٢].

ولفظ (العامة) ليس المراد به المفهوم الاصطلاحي للعام الذي يقابله الخاص، بل هو من قبيل الصفة الكاشفة [٣]، والمراد منه هنا ما يعم الزمان والمكان والأشخاص والأحوال.

وبناءً على ذلك فإن المقصود بمصطلح المبادئ العامة هنا إنما يعني: القواعد الأساسية المستنبطة من القرآن الكريم والتي تعد أصولًا يندرج تحت كل واحد منها فروع كثيرة وصور شتى، وتهيئ للتكليف.

وتختلف المبادئ القرآنية عن الحقائق، حيث إن الحقائق تقرر واقعًا وخبرًا لا تعلق بالطلب والإنشاء المستلزم للتكليف إلا بواسطة وذلك كوصف الله سبحانه وتعالى نفسه في قوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾[٤] أو قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾[٥] أو قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾[٦]

---

(١) المعجم الوجيز. مجمع اللغة العربية. مادة (بدأ) صـ٣٩ .

(٢) الموسوعة القرآنية المتخصصة– المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. بحث بعنوان: المبادئ العامة والقيم في القرآن الكريم صـ٨٢ . والمصدر الميمي بحث صرفي، وانظر تعريفه في شذا العرف في فن الصرف للشيخ الحملاوي صـ٥٤ .

(٣) والصفة الكاشفة هي المبينة للواقع، وليس فيها احتراز عن شيء آخر، نحو قول الإنسان لصاحبه: (جاء والدك الطويل)، فهو وصف للإشعار بطول والده، لا للاحتراز عن (والده القصير) كما لا يخفى. راجع: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في هامش صـ١١٠ من تحقيقه لكتاب ظفر الأماني بشرح مختصر السيد الشريف الجرجاني في مصطلح الحديث للإمام المحدث الفقيه: محمد عبد الحي اللكنوي الهندي .

(٤) سورة النساء / الآية ٩٦ – وسورة الفرقان / الآية ٧٠ – وسورة الأحزاب / الآية ٥ .

(٥) سورة العنكبوت / الآية ٤٤ .

(٦) سورة الحج / الآية ٥ .

إلى غير ذلك من الحقائق الإيمانية والكونية التي لا تتضمن تكليفًا أصلًا، ولا تهيئ له، وذلك بخلاف المبادئ القرآنية كما سنرى.

وتختلف المبادئ القرآنية عن الأحكام الشرعية (الأوامر والنواهي التكليفية) التي تتضمن مباشرة التكليف، وذلك كقوله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾[1]، وكقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[2]، وكقوله أيضًا: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ ﴾[3]، وكقوله: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ﴾[4]، وهذا كله بخلاف المبادئ القرآنية فإنها لا تتضمن التكليف مباشرةً بل تهيئ له وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ ﴾[5] والمراد: لا تكرهوا أحدًا على اعتناق الدين، وقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾[6] والمراد: أقيموا القصاص لأنه حياة. إلى غير ذلك.

وتختلف المبادئ القرآنية عن القواعد الفقهية أو الأصولية [7] من حيث اتجاه النشأة، فالقاعدة صيغت بعد تتبع الجزئيات وتجريد المعنى المشترك فيما بينها مثل: "اليقين لا يزال بالشك"، و"المشقة تجلب التيسير"، و"الضرر يزال"، و"العادة محكمة"، و"الأمور بمقاصدها" [8]، ومن القواعد الأصولية: "الاستثناء معيار العموم" [9] إلى غير ذلك.

---

(١) سورة الإسراء / الآية ٧٨ .

(٢) سورة الإسراء / الآية ٣٢ .

(٣) سورة النور / الآية ٢ .

(٤) سورة المائدة / الآية ٣٨ .

(٥) سورة البقرة / الآية ٢٥٦ .

(٦) سورة البقرة / الآية ١٧٩ .

(٧) انظر في بيان المراد بالقاعدة كتاب: شرح الكوكب المنير لمحمد بن أحمد الفتوحي المعروف بابن النجار ١/ ٣٠ .

(٨) انظر في شرح هذه القواعد الفقهية المذكورة كتاب: الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية للإمام السيوطي صـ٧ .

(٩) انظر في شرح هذه القاعدة كتب الأصول مثل: تشنيف المسامع بجمع الجوامع للزركشي ٢/ ٦٧٨ .

فكل هذا بخلاف المبادئ القرآنية فإنها قد صيغت ابتداءً مثل: "لا تزر وازرة وزر أخرى"، و"ليس للإنسان إلا ما سعى"، و"عفا الله عما سلف".

ومما يمكن أن يشتبه بالمبادئ القرآنية الخبر الذي أريد به الإنشاء كقوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ (١)، وكقوله تعالى أيضًا: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ ﴾ (٢) لأن هذه الآيات في الحقيقة في قوة الأمر المباشر ولا يكون مجرد صوغها في صورة الخبر خارجة عن حقيقة الإنشاء. لذلك فقد عد الأصوليون من أساليب الأمر في الشريعة الإسلامية - بالإضافة إلى (افعل)، و(لتفعلن) واسم فعل الأمر، والمصدر المقترن بالفاء كقوله تعالى: ﴿ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ (٣) - عدوا أيضا مع ذلك الخبر الذي أريد به الإنشاء كما في الآيتين السابقتين، فالخبر الذي أريد به الإنشاء لا يصلح غالبًا أن يكون مبدًا عامًا، إلا إذا راعينا الخبرية دون الإنشائية فيه كما في قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ ﴾ (٤)، وتوضيح ذلك أن كل خبر أريد به الإنشاء فإن إنشائيته لا تكر بالبطلان على ما فيه من خبرية، بل إن الإنشائية تضاف إلى تلك الخبرية، ففي قوله تعالى (والوالدات يرضعن أولادهن) خبر صادق عن حال الوالدات قبل نزول الآية يبين طبيعة المرأة وتهيأها للإرضاع، وقوله (ومن دخله كان آمنًا) إخبار عن صفة من صفات ذلك البيت المبارك، وأنه أمن وأمان في نفسه، وهو خبر صادق، ولكن كأن هذه الأخبار تقول لنا: إذا كان من شأن الأمهات أن يرضعن أبناءهن فأرضعوا أبناءكن، وإذا كان من شأن هذا البيت أنه أمن فأمّنوا من دخل فيه، وفي قوله (لا إكراه في الدين) أي: إذا كان شأن الدين عند من أنزله سبحانه أنه لا إكراه فيه فلا تكرهوا عليه أحدًا، إلا أن الإخبار عن الخصائص في الآية الأولى والثانية لا يهيأها مبدأ عامًا يتجاوز الزمان والمكان والأشخاص والأحوال لأن الأمر فيهما متعلق بخاص النساء من البشر، وبذلك البيت الذي لا مثيل له في بيوت الله، وهو أول بيت وضع للناس قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾(٥)، أما آية وصف الدين بعدم الإكراه فيه، فهي تتضمن شأنًا عامًا يتصف فيه الدين في كل

(١) سورة البقرة / الآية ٢٣٣ .

(٢) سورة آل عمران / الآية ٩٧ .

(٣) سورة محمد / الآية ٤ .

(٤) سورة البقرة / الآية ٢٥٦ .

(٥) سورة آل عمران / الآية ٩٦ .

أجزائه، عقيدة وشريعة وأخلاقًا، بهذه الصفة، ومن هنا فإن هذه الآية الكريمة تصلح أن تكون مبدًا عامًا.

وقد تشتبه بعض المبادئ القرآنية بالحكم القرآنية التي تجري مجرى الأمثال في الظاهر، غير أن المتفحص للأمر يجده خلاف ذلك، فالمبادئ القرآنية هي القواعد الأساسية التي تهيئ الإنسان للتكليف ولها تطبيقات شتى في مجالات مختلفة، فقد تكون "لا تزر وازرة وزر أخرى" حكمة قرآنية عظيمة جرت مجرى المثل، لكنها عندي مبدأ قرآني عام معناه: المسؤولية الفردية وأن الإنسان لا يعاقب بجرم غيره، وأنه لابد من تطبيق هذا المبدأ في معاملتنا وفي المجالات المختلفة.

إلى غير ذلك من المبادئ القرآنية مثل: "وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم"، و"إن الظن لا يغني من الحق شيئًا"، و"ليس للإنسان إلا ما سعى"، و"كبر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون" فهي حكم قرآنية عظيمة جرت مجرى الأمثال إلا إنها عندي مبادئ قرآنية عامة.

وعلم المبادئ القرآنية من العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم والتي لها أهمية خاصة، يجب على الباحثين أن ينتبهوا إليه لما له من خصائص ومميزات تميزه عن غيره من سائر العلوم والمسائل التي تضمنها القرآن الكريم.

"فقد اشتمل القرآن الكريم على مسائل العقيدة من توحيد ونبوات وأخبار اليوم الآخر يوم الحساب، وعلى مسائل التشريع، وعلى مسائل القيم والأخلاق، وصيغت هذه المحاور الثلاثة في صورة قصص الأنبياء وضرب الأمثال ووصف الإنسان والأكوان والأمر والنهي وغير ذلك.

إلا أن المتدبر في القرآن الكريم يجد طائفة غير قليلة من الآيات القرآنية أو بعض الآية يمكن أن تعد مبدأ عامًا يمثل مكونًا أساسيا من عقلية المسلم، وهذه المبادئ العامة إذا جمعت في نسق واحد ودرس ما بينها من علاقات بينية؛ لَمَثَّل ذلك منهجًا واضحًا وأساسًا متكاملًا لتفكير المسلم سواء في الجانب الفقهي والتشريع القانوني أو كان في مجال الفكر والنظرة الكلية للإنسان والكون والحياة، أو مجال القيم والأخلاق على كافة المستويات، وتتبع هذه المبادئ يساعد أيضًا على بناء النموذج المعرفي الإسلامي بصورة لافتة للنظر" (١).

---

(١) الموسوعة القرآنية المتخصصة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. بحث بعنوان: "المبادئ العامة والقيم في القرآن الكريم" لفضيلة الأستاذ الدكتور/ علي جمعة – مفتي الديار المصرية – صـ٨٢ بتصرف .

والناظر في المبادئ القرآنية يجد أن منها ما بلغ من التجريد مبلغًا كبيرًا حتى أنه يمكننا أن نسميها مبادئ صريحة، وذلك مثل: "لاتزر وازرة وزر أخرى"، و"عفا الله عما سلف"، و"لا إكراه في الدين"، ومنها ما قد لبس ثياب التشخص على المستويين الفردي أو الجماعي فالأول كقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (١)، والثاني كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٢)، وإنما جاء استنباط مبدأيتها بواسطة تجريدها من التشخص حتى تعم الزمان والمكان والأشخاص والأحوال، ويكون تشخصها مشيرًا إلى كمال فاعليتها بهذا التشخص، فكمال القدوة هو سيِّد الخلق سيدنا محمد ﷺ، وكمال الأخوة إنما يكون بين المؤمنين.

***

(١) سورة الأحزاب / الآية ٢١ .

(٢) سورة الحجرات / الآية ١٠ .

الدراسات السابقة التي تتعلق بموضوع البحث

هذا البحث بعنوان: (المبادئ العامة في القرآن الكريم) وهو بهذا الاسم لم أر من سبق إليه من قبل، من وضع تعريف له، واستخراج معظم المبادئ العامة، وربطها بمكونات العقل المسلم، وتطبيقها في المجالات المختلفة كالاقتصاد والسياسة والقانون وعلم النفس والتربية، إلا أن بعض الدراسات تعرضت لنواح منه، ولكن ليس بهذا الشكل المطروح في هذا البحث.

وكان أول من أشار إلى علم المبادئ العامة في القرآن الكريم هو الدكتور/ محمد السيد بدر – أستاذ ورئيس قسم فلسفة القانون وتاريخه بكلية الحقوق جامعة عين شمس – حيث كتب مؤلفًا بنفس هذا العنوان (١) إلا أنه لم يضع تعريفًا للمبادئ القرآنية بالمفهوم الذي تعرضت له في بحثي هذا، كما أنه لم يضع القيود التي تفرق بين المبدأ وبين المصطلحات ذات الصلة، لذلك فإن مفهوم المبدأ عنده كان واسعًا وغير منضبط، كما أن استعرض بعض أمثلة للمبادئ العامة ولم يتعمق فيها من ناحية التفسير، ولا من ناحية التطبيق، وقد استفدت من هذا الكتاب في المرحلة الأولى للبحث وهي جمع المبادئ من القرآن الكريم.

ثم كتب فضيلة الأستاذ الدكتور/ على جمعة – مفتي الديار المصرية – بحثًا بعنوان: المبادئ العامة والقيم في القرآن الكريم (٢)، وقد استفدت من هذا البحث في وضع تعريف المبادئ العامة، وجمعها.

وما عدا ذلك فلم أطلع فيما تيسر لي من بحث واطلاع على كتابات أخرى في هذا الموضوع.

***

(١) المبادئ العامة في القرآن الكريم. كتاب جامعي – نشر عام ١٩٩٦م .

(٢) بحث نشر في الموسوعة القرآنية المتخصصة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. عام ٢٠٠٣م ، وما يختص بالمبادئ فيه، كان خمس صفحات. من ٨٢: ٨٦ .

البحث في الدلالة المستقلة للنظم القرآني

من الأسئلة المهمة التي لابد من الإجابة عليها لتعلقها الشديد بهذا البحث سؤال مضمونه: هل للنظم القرآني دلالة مستقلة عن السياق والسباق واللحاق؟

وذلك لأن فكرة المبادئ القرآنية تقوم على استخراج نصوص وجمل من الآيات لها معان مفهومة بدون النظر إلى سياق الآيات من حيث إن لهذه النصوص والجمل معان واضحة ومفهومة تفهم دون النظر إلى السياق ولا تناقضه أو تخالفه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (١)، وقوله أيضًا: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢) ، وقوله تعالى أيضًا: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ (٣) إلى غير ذلك من المبادئ القرآنية.

وإجابتي على هذا السؤال تكون من خلال النقاط التالية:

أولًا: إن القرآن الكريم كتاب هداية، أنزله الله تعالى لأجل الاسترشاد والاهتداء به، ولا يكون ذلك إلا بكثرة المعاني التي تحتملها ألفاظه، فالجملة القرآنية قد تحتمل معان كثيرة وتكون كلها مرادة.

يقول العلامة الطاهر بن عاشور (٤): "والقرآن الكريم بكونه كتاب تشريع وتأديب وتعليم كان حقيقًا بأن يودع فيه من المعاني والمقاصد أكثر ما تحتمله الألفاظ، في أقل ما يمكن من المقدار، بحسب ما تسمح به اللغة الوارد هو بها التي هي أسمح اللغات بهذه الاعتبارات، ليحصل تمام المقصود من الإرشاد الذي جاء لأجله في جميع نواحي الهدى" (٥).

---

(١) سورة الأنعام / الآية ١٦٤ .

(٢) سورة الزمر / الآية ٩ .

(٣) سورة المائدة / الآية ٩٥ .

(٤) هو محمد الطاهر بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد بن عاشور نقيب أشراف تونس وكبير علمائها ولي القضاء سنة ١٢٦٧ هـ ، ثم الفتيا سنة ١٢٧٧ هـ فنقابة الأشراف، وتوفي بتونس ١٢٨٤ هـ ، ومن مؤلفاته التحرير والتنوير – في تفسير القرآن – وحاشيته على القطر في النحو . الأعلام للزركلي ١٧٣/٦ .

(٥) مقدمة التحرير والتنوير، المقدمة التاسعة (في أن المعاني التي تتحملها جمل القرآن تعتبر مرادة بها) ١/ ٩٣ .

من هنا فإنني أرى أن لفهم الجملة القرآنية مستويات:

فالمستوى الأول هو فهم الجملة القرآنية بمعناها التي وردت له في سياقها، وهذا ما عليه معظم القرآن الكريم.

والمستوى الثاني هو فهم الجملة القرآنية بمعناها التي وردت له بدون اعتبار سياقها ما لم يخالف هذا الفهم السياق أو يناقضه أو يضاده، وهذا الأمر وارد في بعض غير قليل من آيات القرآن الكريم، ومنه المبادئ القرآنية.

أما المستوى الثالث فهو فهم الجملة القرآنية بغير معناها التي وردت له، وبدون اعتبار سياقها، وهذا الأمر غير وارد أصلًا، وغير جائز قطعًا، وهو ما عليه تفاسير الباطنية وغيرها من التفاسير المنحرفة.

والكلام ليس عن المستويين الأول والثالث فهما واضحان ولا يحتاجان إلى شرح وبيان، كما أنهما ليس محل بحثي هذا.

أما المستوى الثاني فهو الذي أريد أن أوضحه وأبينه، واذكر له بعض الأدلة والأمثلة التي تؤكده، مع تعضيد ذلك بنقول العلماء، وذلك لأن المستوى الثاني وهو (فهم الجملة القرآنية بمعناها التي وردت له بدون اعتبار سياقها) هو عينه المبادئ القرآنية.

فالمبادئ القرآنية إنما هي استعمال للجملة القرآنية بمعناها التي وردت له بدون اعتبار سياقها، فمثلًا قوله تعالى: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ (١) هذه الجملة استعمالها فالعفو عما سلف ووقع قبل العلم بالتحريم، وفي سياقها تكون في حكم قتل الصيد للمحرم وحكم من فعل ذلك وبيان كفارته وأن الله تعالى قد عفا عما سلف ووقع قبل العلم بتحريم ذلك فحسب، أما بدون اعتبار سياقها فهي مبدأ عام من مبادئ القرآن الكريم يقول بعدم رجعية التشريع إلى الماضي، فيجب عدم تطبيق القانون بأثر رجعي، ولهذا المبدأ تطبيقات في مجالات مختلفة.

فالجملة القرآنية هنا تحتمل معنيين أحدهما في سياق الآية، والثاني عام بدون اعتبار هذا السياق، وكلاهما صحيح ومراد.

ومثل ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾(٢)، وغير ذلك من المبادئ القرآنية.

---

(١) سورة المائدة / الآية ٩٥

(٢) سورة الرحمن / الآية ٦٠ .

ثانيًا: إن فهم معنى من الجملة القرآنية بدون اعتبار سياقها أمر صحيح وجائز، وله شواهد تؤيده كقضية (أن المعاني التي تحتملها الألفاظ تعتبر مرادة) [١]، وهناك أدلة كثيرة وردت عن رسولنا الكريم ﷺ وعن الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وعن سلفنا الصالح من علماء الأمة وفقهائها تدل على ذلك، من أهمها:

(١) يقول العلامة الطاهر بن عاشور: "يدل لتأصيلنا هذا [٢] ما وقع إلينا من تفسيرات مروية عن النبي ﷺ لآيات، فنرى منها ما نؤمن بأنه ليس هو المعنى الأسبق من التركيب؛ ولكنا بالتأمل نعلم أن الرسول عليه الصلاة والسلام ما أراد بتفسيره إلا إيقاظ الأذهان إلى أخذ أقصى المعاني من ألفاظ القرآن، مثال ذلك ما رواه أبو سعيد بن المعلى قال: دعاني رسول الله ﷺ وأنا في الصلاة فلم اجبه فلما فرغت أقبلت إليه فقال: **ما منعك أن تجيبني؟** فقلت: يا رسول الله كنت أصلي، فقال: **ألم يقل الله تعالى** ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ﴾ [٣]، فلا شك أن المعنى المسوقة فيه الآية هو الاستجابة بمعنى الامتثال، كقوله تعالى: ﴿ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ﴾[٤]، وأن المراد من الدعوة الهداية كقوله تعالى: ﴿يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾ [٥]، وقد تعلق فعل (دعاكم) بقوله (لما يحييكم) أي لما فيه صلاحكم، غير أن لفظ الاستجابة لما كان صالحًا للحمل على المعنى الحقيقي

---

(١) تحدث عن هذه القضية وهي كون المعاني التي تحتملها الألفاظ مرادة ثلاثة من العلماء – فيما وقعت عليه عيني – أولهم: الإمام العلامة الراغب الأصفهاني في مقدمة كتابه جامع التفاسير تحت عنوان: (فصل في جواز إرادة المعنيين المختلفين بعبارة واحدة) صـ٩٨: ١٠٠. وثانيهم: العلامة محمد الطاهر ابن عاشور في مقدمة تفسيره التحرير والتنوير. المقدمة التاسعة (في أن المعاني التي تتحملها جمل القرآن تعتبر مرادة بها) صـ٩٣: ١٠٠. وثالثهم: فضيلة الأستاذ الدكتور/ عبد الغفور محمود مصطفى جعفر في كتابه: بحوث في علوم القرآن الكريم. تحت عنوان (البحث الخامس: المعاني المحتملة تعتبر مرادة) صـ٢٠٣: ٢٢٨ .

(٢) وكان يتحدث عن قضية (أن المعاني التي تتحملها جمل القرآن تعتبر مرادة بها) .

(٣) سورة الأنفال / الآية ٢٤، والحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب: التفسير باب: ما جاء في فاتحة الكتاب ٦/ ١٦، ١٧. وأخرجه أيضًا في كتاب: فضائل القرآن باب: فاتحة الكتاب ٦/ ١٨٧ .

(٤) سورة آل عمران / الآية ١٧٢ .

(٥) سورة آل عمران / الآية ١٠٤ .

أيضًا وهو إجابة النداء حمل النبي ﷺ الآية على ذلك في المقام الصالح له، بقطع النظر عن المتعلّق وهو قوله (لما يحييكم)" (١) .

(٢) ما روي عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ ليلة، فقال: ألا تصليان؟ فقلت: يا رسول الله أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلنا ذلك، ولم يرجع إليَ شيئًا، ثم سمعته وهو مولٍّ يضرب فخذه وهو يقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ (٢).

مع أن سياق الآية الكريمة في المشركين على الخصوص فهم الذين جادلوا في القرآن الكريم برغم ما ورد فيه من الأمثال التي قرعت أسماعهم والتي هي من هدي القرآن الكريم الذي انصرفوا عنه وجادلوا فيه (٣).

يقول الإمام القرطبي (٤): "ومعنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ أي جدالًا ومجادلة، والمراد به النضر بن الحارث وجداله في القرآن.

وقيل: الآية في أبي بن خلف، وقال الزجاج (٥): أي الكافر أكثر شيء جدلًا؛ والدليل على أنه أراد الكافر قوله تعالى: ﴿وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ " (٦).

---

(١) مقدمة التحرير والتنوير، المقدمة التاسعة (في أن المعاني التي تتحملها جمل القرآن تعتبر مرادة بها) ١/ ٩٤، ٩٥ .

(٢) صحيح البخاري كتاب: التهجد باب: تحريض النبي ﷺ على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب وطرق النبي ﷺ فاطمة وعليًا عليهما السلام ليلة للصلاة ٢/ ٤٩، ٥٠ . والآية رقم ٥٤ من سورة الكهف .

(٣) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ١٥ / ٣٤٦، ٣٤٧ بتصرف .

(٤) هو الإمام محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الخزرجي الأندلسي أبو عبد الله القرطبي ، من كبار المفسرين ، من أهل قرطبة رحل إلى الشرق واستقر بمنية ابن خصيب (شمالي أسيوط بمصر) وتوفي بها سنة ٦٧١هـ . من أهم مؤلفاته الجامع لأحكام القرآن وهو من أجل التفاسير وأنفعها ، والتذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة .شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ٥/ ٣٣٥ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٢٣٩/٨، ٢٤٠ ، وطبقات المفسرين للداوودي ٩٥/٢ .

(٥) هو إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج: عالم بالنحو واللغة. ولد ومات في بغداد، عرف بالزجاج، لأنه كان في شبيبته يخرط الزجاج ثم رغب في النحو، فلزم المبرد. جعله عبيد الله بن سليمان – وزير الخليفة المعتضد – مؤدبًا لابنه القاسم، فلما وزر القاسم بعد وفاة أبيه اتخذ الزجاج كاتبًا له. توفي نحو سنة ٣١١هـ. من مؤلفاته: "معاني القرآن"، و"سر النحو"، و"الاشتقاق". بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ١/ ٤١١ وما بعدها، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ١/ ١١٦ وما بعدها، والأعلام للزركلي ١/ ٤٠ .

(٦) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٥ بتصرف. والآية رقم ٥٦ من سورة الكهف .

ولكن لما كان لفظ (الإنسان) اسم لنوع بني آدم. وحرف (أل) فيه لتعريف الحقيقة فهو أوسع في العموم، والمعنى: وكان الإنسان كثير الجدل، لما كان ذلك قاله النبي ﷺ لسيدنا علي كرم الله وجهه، ومعناه: أن الأولى بسيدنا علي أن يحمد إيقاظ رسول الله ﷺ إياه ليقوم من الليل وأن يحرص على تكرر ذلك وأن يسر بها في كلام رسول الله ﷺ من ملام. فذلك محل تعجب رسول الله من جواب علي رضي الله عنه[1].

(٣) يذكر أن عمرو بن العاص رضي الله عنه أجنب في ليلة باردة فتيمم وتلا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف[2]، مع أن مورد الآية أصله في النهي عن أن يقتل الناس بعضهم بعضا كما ذكر هذا المفسرون، وإنما قال: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ لأن المؤمنين كنفس واحدة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[3] وقوله أيضًا: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾[4] ثم إن قتل الرجل نفسه داخل في النهي.

(٤) وقد احتج سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه بهذه الآية حين امتنع عن الاغتسال بالماء البارد حين أجنب خوفًا على نفسه؛ فقرر النبي ﷺ احتجاجه وضحك عنده ولم يقل شيئًا ولم ينكر عليه[5].

وما كان هذا الاحتجاج والاستدلال بهذه الآية من سيدنا عمرو رضي الله عنه إلا لعلمه بصحة هذا المعنى العام الخارج عن سياق الآية، ومما يؤكد هذا عدم إنكار النبي ﷺ ذلك عليه.

(٥) الاستدلال على حفظ النفس من كل شيء فيه ضرر بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[6] مع أن معنى الآية الكريمة خلاف ذلك، حيث إن الحق سبحانه وتعالى يبين فيها أن عدم الإنفاق في سبيل الله وترك الجهاد والخلود إلى الراحة، والركون إلى الحياة الدنيا وزينتها وزخرفها هو

---

(١) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ١٥/ ٣٤٨ بتصرف .

(٢) أورده الإمام البخاري في صحيحه تعليقًا في كتاب: التيمم باب: إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت أو خاف العطش تيمم ١/ ٧٣ . والآية رقم ٢٩ من سورة النساء .

(٣) سورة الحجرات / الآية ١١ .

(٤) سورة النور / الآية ١٢ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥/ ١٥٦، ١٥٧ بتصرف. والتحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٥/ ٢٥ بتصرف .

(٦) سورة البقرة / الآية ١٩٥ .

الهلاك الذي لا هلاك بعده فقال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ وسبب نزول هذه الآية الكريمة كما ذكره المفسرون: ما روي عن أسلم أبي عمران قال حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه ومعنا أبو أيوب الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال ناس: ألقى بيديه إلى التهلكة، فقال أبو أيوب نحن أعلم بهذا إنما نزلت فينا: صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه فلما فشا الإسلام وظهر اجتمعنا معشر الأنصار تحببًا فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره حتى كثر أهله وكنا قد آثرناه على الأهلين والأولاد وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع إلى أهلنا وأولادنا فنقيم فيها فنزل فينا ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد [١].

(٦) استدلال الإمام الشافعي [٢] على حجية الإجماع وتحريم خرقه بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [٣] مع أن سياق الآية في أحوال المشركين، فالمراد من الآية مشاقة خاصة، واتباع غير سبيل خاص، ولكن الإمام الشافعي جعل حجية الإجماع من كمال الآية [٤].

(٧) استدلال الفقهاء على القياس بقوله تعالى: ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾ [٥] مع أن الآية الكريمة تتحدث أصلًا عن أمر آخر، فهي تتحدث عن إجلاء بني النضير عن ديارهم مع ما كانوا عليه من المنعة والحصون والعدة. وهذه آية من آيات تأييد رسول الله ﷺ وغلبته على أعدائه.

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٢٣٦، ٢٣٧، ولباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص٣٥، وهذا الأثر روى نحوه الإمام الترمذي في سننه في كتاب: التفسير باب: من سورة البقرة ٥/ ٢١٢ حديث رقم ٢٩٧٧ وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح غريب .

(٢) هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان ابن شافع الهاشمي القرشي المطلبي ، أبو عبد الله : أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. وإليه نسبة الشافعية كافة • ولد في غزة (بفلسطين) وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين. زار بغداد مرتين. وقصد مصر سنة١٩٩ هـ فتوفي بها سنة ٢٠٤ هـ، وقبره معروف في القاهرة له تصانيف كثيرة أشهرها: كتاب "الأم" في الفقه، "المسند" في الحديث، "الرسالة" في أصول الفقه . الأعلام للزركلي ٦/ ٢٦ .

(٣) سورة النساء / الآية ١١٥ .

(٤) مقدمة التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور. المقدمة التاسعة (في أن المعاني التي تتحملها جمل القرآن تعتبر مرادة بها) ١/ ٩٦ .

(٥) سورة الحشر / الآية ٢ .

وتذييل الآية الكريمة بهذه الجملة للاعتبار بما حدث لبني النضير، وأن الله تعالى أتاهم من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرعب، وجعلهم يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين.

يقول العلامة الطاهر بن عاشور: "والخطاب في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾ موجه إلى غير معين. ونودي أولو الأبصار بهذه الصلة ليشير إلى أن العبرة بحال بني النضير واضحة مكشوفة لكل ذي بصر ممن شاهد ذلك، ولكل ذي بصر يرى مواقع ديارهم، فتكون له عبرة قدرة الله على إخراجهم وتسليط المسلمين عليهم من غير قتال. وفي انتصار الحق على الباطل وانتصار أهل اليقين على المذبذبين. وقد احتج بهذه الآية بعض علماء الأصول لإثبات حجية القياس بناء على أنه من الاعتبار" (١).

ويقول العلامة الآلوسي (٢): "واشتهر الاستدلال بهذه الآية على مشروعية العمل بالقياس الشرعي، قالوا: إنه تعالى أمر فيها بالاعتبار وهو العبور والانتقال من الشيء إلى غيره، وذلك متحقق في القياس إذ فيه نقل الحكم من الأصل إلى الفرع" (٣).

وقد استدل أيضًا الإمام الفخر الرازي (٤) على حجية القياس من الكتاب بهذه الآية الكريمة (٥).

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/ ٧٢ .

(٢) هو محمود بن عبد الله الحسيني شهاب الدين أبو الثناء، مفسر محدث فقيه أديب لغوي نحوي مشارك في بعض العلوم، ولد ببغداد في ١٤ شعبان ١٢١٧هـ وتوفي بها في ٢٥ ذي القعدة ١٢٧٠هـ من تصانيفه: روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، وحاشيته على شرح القطر في النحو• معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ١٢/ ١٧٥ .

(٣) روح المعاني ٢٨/ ٤١ .

(٤)هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين بن على التيمي البكري الطبرستاني الرازي الشافعي المعروف بالفخر الرازي وبابن خطيب الري، مفسر متكلم فقيه أصولي حكيم أديب شاعر طبيب. من تصانيفه: مفاتيح الغيب في تفسير القرآن (٥٤٣.٦٠٦ هـ / ١١٤٩.١٢١٠ م)• معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٧٩/١١ .

(٥) راجع كلامه المهم والنفيس المتعلق بهذا الشأن في كتابه: (المحصول في علم أصول الفقه) ٢/ ٢٤٧ وما بعدها ، وقد اشتهر بين الأصوليين الاستدلال بهذه الآية على حجية القياس. أنظر في ذلك: الإبهاج في شرح المنهاج للشيخ علي بن عبد الكافي السبكي ١٢/٣ .

(٨) استدلال الأشاعرة على نظرية الكسب [١] بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[٢].

مع أن الآية في سياق حديث سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع قومه فقد سبقها قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لهم كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾[٣] أي أتعبدون أصنامًا أنتم تنحتونها بأيديكم، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ أي والله خلقكم وما تعملونه من الأصنام، يعني الخشب والحجارة وغيرهما. والأحسن أن تكون "ما" مع الفعل مصدرًا، والتقدير: والله خلقكم وعملكم، وهذا مذهب أهل السنة: أن الأفعال خلق الله عز وجل واكتساب للعباد. وفي هذا إبطال مذاهب القدرية والجبرية [٤].

وبعد هذه الأدلة لم يبق إلا أن أعقب بكلام فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الغفور محمود مصطفى جعفر حيث يقول: "إن القضية – قضية الأخذ بالمعاني المختلفة والقول بأنها مرادة – قضية مقبولة عقلًا ولغة وبلاغة وشرعًا، على اختلاف المذاهب، وعلى ذلك جرى عمل المفسرين، فلا أحصي ما جمعته لنفسي من شواهد تشهد لهذه القضية يميزها بسهولة من يريد، شواهد من التفسير المرفوع، وشواهد من تفسيرات الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وشواهد من تفسيرات التابعين أيضًا، ولا أحصي صنيع الفقهاء على اختلاف مذاهبهم.

---

(١) والمقصود بالكسب عند الأشاعرة: هي صفة تحصل بقدرة العبد بفعله الحاصل بقدرة الله تعالى. وقيل: هي خلق قدرة للعبد مقارنة للفعل، يدرك بها الفرق بين حركة الاختيار وحركة الرعشة مثلًا. وذلك التمكن هو مناط التكليف.

فهم يقولون: العبد له فعل اضطراري: كسقوط من جبل، وحركة المرتعش، وهذا الفعل لا تكليف فيه قطعًا؛ لأنه فعل الله اتفاقًا، وفعل اختياري: وهو فعل الله أيضًا لكن باعتبار الإيجاد، وينسب للعبد باعتبار الكسب وهو تعلق قدرة العبد وإرادته بالفعل، فمن عظيم قدرته تعالى إيجاد الفعل عند قدرة العبد لا بقدرته وإرادته، وذلك كقطع السكين مثلًا فإن القطع عند مرور السكين لا بالسكين، فإنه يمكن تخلفه، فمقارنة قدرة العبد وإرادته لإيجاد الله هو المسمى بالكسب. انظر: شرح المقاصد لسعد الدين التفتازاني ٤/ ٢٢٥ تحقيق د/ عبد الرحمن عميرة ، وشرح الصاوي على جوهرة التوحيد للشيخ أحمد بن محمد المالكي الصاوي صـ٢٤٠، ٢٤١ تحقيق وتعليق د/ عبد الفتاح البزم .

(٢) سورة الصافات / الآية ٩٦ .

(٣) سورة الصافات / الآية ٩٥ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥/ ٩٦ بتصرف .

فبهذا كله ثبتت القضية وتقررت أيما تقرر، وعرفنا أن القول بالمعاني المتعددة سواء كانت في درجة أو كان بعضها أرجح قول مأخوذ به" [١].

وكلام فضيلة الدكتور السابق عن المعاني المتعددة والقول بأنها مرادة ليس ببعيد عما نتحدث عنه من وجود دلالة مستقلة للنظم القرآني، حيث إن الأدلة السابقة تبين أن للنظم القرآني دلالة مستقلة خارجة عن السياق بالإضافة إلى المعنى الموافق للسياق.

إن دلالة السياق في القرآن الكريم إنما نحتاج إليها تبعًا لا أصلًا، فنحن لا نحتاج إليها إذا كانت الجملة القرآنية واضحة المعنى، أما إذا كانت الجملة القرآنية غير واضحة المعنى وغير واضحة الدلالة نحتاج في تفسيرها إلى مراعاة سياق الآيات وسباقها ولحاقها فلابد من مراعاة ذلك.

بعبارة أخرى: إنما يلجأ إلى السياق عند تعذر الوفاء بالمعنى أو عدمه، ووضوح معاني الجملة القرآنية هو الأساس الذي من خلاله نخرج بها عن سياقها كما في المبادئ القرآنية.

ثالثًا: إن المفسرين قد يجمعون على تفسير معين لآية معينة، ويكون تفسيرهم هذا وجهًا من الوجوه، ويمكن أن تفسر بغيره من وجوه متعددة، مصداقًا لقول النبي ﷺ: "**لا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه**" [٢]، وللحديث الذي ذكره الإمام السيوطي[٣] في كتابه الإتقان: "**القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن وجوهه**" [٤]، وكذلك للأثر الذي أورده أيضًا

(١) بحوث في علوم القرآن الكريم صـ٢١٨ لبها وهامشها، وصـ٢٢٧ .

(٢) سنن الترمذي كتاب: فضائل القرآن باب: ما جاء في فضل القرآن ٥/ ١٧٢، ١٧٣ حديث رقم ٢٩٠٦ . قال أبو عيسى: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(٣) هو الحافظ جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي الشافعي، إمام حافظ مؤرخ أديب، ولد سنة تسعة وأربعين وثمانمائة للهجرة، نشأ يتيمًا في القاهرة وختم القرآن وله من العمر ثماني سنين، ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس وخلا بنفسه في روضة المقياس على النيل منزويًا عن أصحابه جميعًا، فألف أكثر كتبه، له نحو ٦٠٠ مصنف، منها: الإتقان في علوم القرآن، الأشباه والنظائر في العربية، تدريب الراوي، وكان أعلم أهل زمانه بعلم الحديث ومتونه، وتوفي سنة إحدى عشرة وتسعمائة للهجرة. الأعلام للزركلي ٣/ ٣٠١، ٣٠٢. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ٨/ ٥١ وما بعدها .

(٤) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٢٣٠ النوع الثامن والسبعون: في معرفة شروط المفسر وآدابه. فصل في أمهات مآخذ التفسير. وهذا الحديث أخرجه الدار قطني في سننه ٤/ ٨٢ .

نقلًا عن كلام مقاتل بن سليمان [(١)] في صدر كتابه الذي ألفه في الوجوه والنظائر، من الحديث المرفوع: "لا يكون الرجل فقهيًا كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهًا كثيرة" [(٢)]، وللأثر الذي أورده أيضًا عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أرسله إلى الخوراج فقال: اذهب إليهم فخاصمهم ولا تحاجهم بالقرآن فإنه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسنة، ومن وجه آخر أن ابن عباس قال له: يا أمير المؤمنين فأنا اعلم بكتاب الله منهم، في بيوتنا نزل. قال: صدقت، ولكن القرآن حمال ذو وجوه، تقول ويقولون، ولكن خاصمهم بالسنن، فإنهم لم يجدوا عنها محيصًا، فخرج إليهم فخاصمهم بالسنن فلم تبق بأيديهم حجة [(٣)] .

ومن أمثلة ذلك (أي ما قد يذكره المفسرون من تفسير معين لآية معينة ويكون تفسيرهم هذا وجها من الوجوه): تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [(٤)] بأن المقصود خلافة الإنس للجن، أو الملائكة أو غير الملائكة [(٥)]، في حين أنه يمكن استعمالها في معنى عمارة الأرض كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [(٦)] .

---

(١) هو مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي الخراساني المفسر، روى عن مجاهد وعطاء وأبي إسحاق وغيرهم، وعنه بقية بن الوليد وعبد الرزاق وآخرون، كان بحرًا في التفسير، وكان متروك الحديث، قال ابن المبارك: ما أحسن تفسيره لوكان ثقة، وقال النسائي: كان مقاتل يكذب، وقال البخاري: سكتوا عنه. مات سنة مائة وخمسين للهجرة. من كتبه: "نوادر التفسير"، و"متشابه القرآن"، و"الوجوه والنظائر". طبقات المفسرين للداوودي ٢/ ٣٣٠، تهذيب التهذيب لابن حجر ١٠/ ٢٧٩، ميزان الاعتدال للذهبي ٤/ ١٧٣ .

(٢) هذا الأثر أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى عن أبي الدرداء موقوفًا حيث روى عن أبي قلابة: أن أبا الدرداء كان يقول: "إنك لن تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهًا" ٢/ ٣٥٧ .

وذكره أيضًا بدر الدين العيني في عمدة القاري في شرح صحيح البخاري كتاب: العلم باب: الاغتباط في العلم والحكمة ١/ ٤٤٢ • حيث روى عن شداد بن أوس يرفعه "لا يفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله تعالى. ولا يفقه العبد كل الفقه حتى يرى القرآن وجوهًا كثيرة". وقال أبو عمر: لا يصح مرفوعًا وإنما الصحيح أنه من قول أبي الدرداء وصدقه السمين راويه مرفوعًا مجمع على ضعفه .

(٣) الإتقان في علوم القرآن ١/ ١٨٥ النوع التاسع والثلاثون: في معرفة الوجوه والنظائر .

(٤) سورة البقرة / الآية ٣٠ .

(٥) اقتصر الإمام الرازي في التفسير الكبير على الوجه الأول ٢/ ١٨٠، ١٨١ ، واقتصر الإمام القرطبي في الجامع لأحكام القرآن على الوجه الثاني ١/ ٢٦٣ ، وذكر العلامة أبو حيان في البحر المحيط الوجهان ١/ ٢٨٨ .

(٦) سورة هود / الآية ٦١ .

وكذلك تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ (١) بأن المقصود بنقصان الأرض أي أرض الكفرة من جوانبها بالغزو والفتح الإسلامي، أو بموت الأشراف والكبراء والعلماء (٢)، في حين أنه يمكن تأويلها بالنقص الكوني عند أهل الجيولوجيا.

وبذلك يتبين لنا أن وجود معني مستقل للفظ القرآني عن السياق أمر مقرر وجائز وصحيح بناء على الشواهد المذكورة والأدلة السابقة، ولست أقصد بكلامي هذا أن أفتح باب الاستدلال بالقرآن الكريم ليأخذ منه كل متسرع غير لبيب وليس له في العلم أدنى نصيب، ولكن لهذا البحث ضوابط لابد من وضعها حتى نضع الأمر في نصابه، **ولعل من أهم ضوابط الأخذ بالدلالة المستقلة للنظم القرآني**: عدم التنافي أو التناقض والاختلاف مع نص آخر، وأن يكون في مقام الجد لا الهزل، وأن يكون هذا كله موافقا لروح الإسلام ومبادئه، ولعل لهذا الأمر بحثًا آخر مستقلًا.

***

---

(١) سورة الرعد / الآية ٤١ .

(٢) اقتصر على نحو هذا المعنى من المفسرين العلامة الآلوسي في روح المعاني ١٣ / ١٧٣ حيث قال: "قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ ﴾ أرض الكفرة ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ من جوانبها بأن نفتحها شيئًا فشيئًا ونلحقها بدار الإسلام، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ سورة الأنبياء / الآية ٤٤، وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن انتقاص الأرض موت أشرافها وكبرائها وذهاب العلماء منها"، وكذلك العلامة الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٦٣، والإمام القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٣٣٣، ٣٣٤، والإمام الرازي في التفسير الكبير ١٩ /٦٩ .

سبب اختياري لموضوع البحث، والهدف من دراسته

لا شك أن أصل السعادة في الدنيا والآخرة تكمن في التمسك بكتاب الله تعالى، والعمل على خدمته، وإبراز وجوه إعجازه للعالمين، وقضية المبادئ القرآنية من القضايا المهمة التي لم تنل حظها من الدراسة والبحث سواء من القدامى أو المحدثين، وتكمن أهمية المبادئ القرآنية في أنها تمثل مكوناً أساسيًا من مكونات عقل المسلم، وهذا أهم أسباب اختياري لهذا البحث، بالإضافة إلى غيره من الأسباب، ومنها:

(١) إبراز فكرة المبادئ القرآنية كعلم جديد من علوم القرآن الكريم، وهو وجه من وجوه إعجاز هذا الكتاب العظيم الذي لا تنقضي عجائبه.

(٢) إظهار المبادئ العظيمة التي تضمنها القرآن الكريم، وأهميتها من الناحيتين النظرية والتطبيقية.

(٣) إن هذا البحث يفتح مجالًا تطبيقيًا لاستخراج قواعد عامة للعلوم من القرآن الكريم.

(٤) إن هذا البحث يمثل لبنة أولى من لبنات مشروع حضاري كبير ينبغي أن يهتم الباحثون المسلمون به، ويتمثل ذلك في العودة إلى القرآن الكريم لاستنباط مبادئ العلوم، فكثير من العلماء يعتمدون في العلوم الحديثة كعلم النفس والتربية والسياسة والاقتصاد والقانون، يعتمدون فيها نظريات الغربيين وفي هذا خلل كبير، إذ إن هذه النظريات نشأت على فرض عدم وجود إله، والعلماء المسلمون حين يأخذون هذه النظريات ويحاولون تطبيقها في البيئة الإسلامية ينتج من ذلك خلل كبير، وإصلاح هذا الخلل يبدأ بالعودة مرة أخرى إلى القرآن الكريم واستخراج العلوم منه، وهذا ما يمكن تسميته بإسلامية المعرفة.

(٥) إن هذا البحث يعد من الدراسات البينية التي فيها مناقشات وحوارات بين القرآن والعلوم الإسلامية من جهة، وبين العلوم الحديثة الأخرى من جهة أخرى، وهذا نوع جديد من أنواع الدراسات الإسلامية تساهم في إعادة صياغة العلوم الإسلامية صياغة عصرية تلائم الواقع المعيش.

***

منهجي في هذا البحث

لقد قمت بتقسيم هذا البحث إلى مقدمة، وبابين، وخاتمة.

أما **المقدمة فقد ضمت أمورًا خمسة:**

أولها: تحرير مصطلح المبادئ العامة في القرآن الكريم، وقد حاولت فيه الوصول إلى تعريف جامع مانع لهذا المصطلح، كل هذا مع بيان الفرق بينه وبين المصطلحات ذات الصلة: كالحقائق والأحكام الشرعية والقواعد الفقهية والأصولية.

وثانيها: تعرضت لذكر بعض الدراسات السابقة التي تتعلق بموضوع هذا البحث.

وثالثها: البحث في الدلالة المستقلة للنظم القرآني، وقد حاولت فيه الإجابة على سؤال مضمونه: هل للنظم القرآني دلالة مستقلة عن السياق والسباق واللحاق؟.

ورابعها: سبب اختياري لموضوع البحث، والهدف من دراسته.

وخامسها: منهج البحث في هذه الرسالة.

وأما **الباب الأول** فكان عنوانه: المبادئ العامة في القرآن الكريم. جمعها، وتفسيرها، وعلاقتها بالنموذج المعرفي (ويعتبر الجانب النظري في هذا البحث) فقد قمت بتقسيمه إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول وعنوانه: جمع المبادئ من القرآن الكريم. فقد قمت فيه بجمع المبادئ القرآنية عن طريق الاستقراء والتتبع لآيات الذكر الحكيم، وتوصلت فيه إلى أربعين مبدأ عامًا، وهذا ليس على سبيل الحصر، بل إن هذا بداية البحث في هذا العلم، فقد يأتي بعدي من يضيف مبادئ جديدة.

الفصل الثاني وعنوانه: تفسير الآيات التي ضمت هذه المبادئ. فقد قمت فيه بتفسير هذه الآيات تفسيرًا ميسرًا وذلك بالرجوع إلى أمهات كتب التراث في التفسير، مع مراعاة الرجوع إلى التفاسير الحديثة، وكان هدفي في هذا الفصل هو التركيز على المبادئ في الآيات، لذلك لم أتوسع في ذكر

المفردات اللغوية، والنواحي الإعرابية، إذ إن تفسيري لهذه الآيات لم يكن تفسيرًا تحليليًا بالمفهوم الاصطلاحي.

الفصل الثالث وعنوانه: المبادئ القرآنية والنموذج المعرفي. فقد قمت فيه ببيان ما يطلق عليه "النموذج المعرفي" عند المسلمين ويقصد به المكونات الأساسية التي يتكون منها عقل المسلم بناءً على عقيدته ورؤيته الكلية للإنسان والكون والحياة وما قبل ذلك وما بعده، وذلك النموذج المعرفي يمثل الإطار المرجعي والمعيار المعتمد في عقل المسلم ونفسيته، وهو المكون الأساسي لشخصية المسلم والضابط لفكره، فقد قمت بذكر مكونات هذا النموذج المعرفي وهي: العقيدة الإسلامية،والمقاصد الكلية العليا للشريعة، والسنن الإلهية، والقيم الإسلامية، والأحكام الشرعية المرعية، والمبادئ القرآنية العامة. وبيان نماذج لكل واحد من هذه المكونات على سبيل المثال، وعقبت ذلك كله بذكر أمثلة للعلاقة التي تربط بين المبادئ القرآنية ومكونات هذا النموذج المعرفي.

وأما **الباب الثاني** فكان عنوانه: تطبيق بعض المبادئ القرآنية في المجالات المختلفة (ويعتبر الجانب التطبيقي في هذا البحث) فقد قمت بتقسيمه إلى خمسة فصول:

الفصل الأول وعنوانه: تطبيق بعض المبادئ القرآنية في الاقتصاد. وقمت فيه بالرجوع إلى كتب وأبحاث في الاقتصاد، محاولًا إيجاد تطبيقات لبعض المبادئ القرآنية في هذا المجال.

وطبقت في هذا المجال ثلاثة تطبيقات من خلال ثلاثة مبادئ هي: "التوسط في الإنفاق"، و"لا يستوي الخبيث والطيب"، و"الأمة واحدة".

والفصل الثاني وعنوانه: تطبيق بعض المبادئ القرآنية في السياسة. وقمت فيه بالرجوع إلى كتب وأبحاث في السياسة، محاولًا إيجاد تطبيقات لبعض المبادئ القرآنية في هذا المجال.

وطبقت في هذا المجال ثلاثة تطبيقات من خلال أربعة مبادئ هي: "الشورى"، و"العدل"، و"لا إكراه في الدين"، و"لكم دينكم ولي دين".

والفصل الثالث وعنوانه: تطبيق بعض المبادئ القرآنية في القانون. وقمت فيه بالرجوع إلى كتب وأبحاث في القانون، محاولًا إيجاد تطبيقات لبعض المبادئ القرآنية في هذا المجال.

وطبقت في هذا المجال تطبيقين من خلال مبدأين هما: "القصاص"، و"عفا الله عما سلف".

والفصل الرابع وعنوانه: تطبيق بعض المبادئ القرآنية في علم النفس. وقمت فيه بالرجوع إلى كتب وأبحاث في علم النفس، محاولًا إيجاد تطبيقات لبعض المبادئ القرآنية في هذا المجال.

وطبقت في هذا المجال ثلاثة تطبيقات من خلال ثلاثة مبادئ هي: "الإيمان هداية للقلوب"، و"عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم"، و"من يبخل فإنما يبخل عن نفسه".

والفصل الخامس وعنوانه: تطبيق بعض المبادئ القرآنية في التربية. وقمت فيه بالرجوع إلى كتب وأبحاث في التربية، محاولًا إيجاد تطبيقات لبعض المبادئ القرآنية في هذا المجال.

وطبقت في هذا المجال ثلاثة تطبيقات من خلال أربعة مبادئ هي: "القدوة الحسنة"، و"من يعمل سوءًا يجز به"، و"هل جزاء الإحسان إلا الإحسان"، و"الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".

وأخيرًا كانت **الخاتمة** وقد أوجزت فيها أهم ما انتهيت إليه في هذا البحث بصورة إجمالية من خلال **النتائج والتوصيات**، وثم جاءت **قائمة مراجع البحث، والفهارس العامة والخاصة**.

أما الخطوات التي سرت عليها في هذا البحث فقد كانت على النحو التالي:

(١) اختيار الآيات المحورية التي ضمت المبادئ، وذلك بحسب الترتيب المصحفي.

(٢) تفسير هذه الآيات بالرجوع إلى أمهات كتب التفسير.

(٣) التركيز على المبادئ في الآيات، وذلك من خلال التفاسير الحديثة، وقد اعتمدت بشكل أساسي وفي معظم المبادئ على: تفسير الأستاذ سيد قطب "في ظلال القرآن"، و"التفسير الحديث" للشيخ محمد عزة دروزة.

(٤) قمت بضبط الآيات القرآنية الكريمة وعزوها إلى سورها.

(٥) قمت بتخريج الأحاديث النبوية الشريفة من مصادرها.

(٦) ترجمت لمعظم الأعلام الذين ورد ذكرهم في هذا البحث، عدا الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وكذلك بعض المعاصرين.

والله الكريم أسأل أن يتقبل مني هذا العمل، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وأن يبارك فيه وينفع به، فإن كنت أصبت فبفضل من الرحمن، وما وقع فيه من خطأ أو تقصير فمن نفسي ومن الشيطان، وحسبي الله ونعم الوكيل،

وعلى الله قصد السبيل ...

❊ ❊ ❊

الباب الأول

المبادئ العامة في القرآن الكريم، جمعها، وتفسيرها، وعلاقتها بالنموذج المعرفي

ويضم ثلاثة فصول:

الفصل الأول: جمع المبادئ العامة من القرآن الكريم
الفصل الثاني: تفسير الآيات التي ضمت هذه المبادئ
الفصل الثالث: المبادئ القرآنية والنموذج المعرفي

الفصل الأول
جمع المبادئ العامة من القرآن الكريم

المبدأ الأول: الضرورات تبيح المحظورات

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١).

المبدأ الثاني: القصاص حياة

قال الله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (٢).

المبدأ الثالث: اليسر لا العسر

قال الله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٣).

المبدأ الرابع: البر هو التقوى

قال الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ (٤).

المبدأ الخامس: الفتنة أشد من القتل

قال الله تعالى: ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (٥).

---

(١) سورة البقرة / الآية ١٧٣.
(٢) سورة البقرة / الآية ١٧٩.
(٣) سورة البقرة / الآية ١٨٥.
(٤) سورة البقرة / الآية ١٨٩.
(٥) سورة البقرة / الآية ١٩١.

المبدأ السادس: الحرمات قصاص

قال الله تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾ (١).

المبدأ السابع: وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم

قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (٢).

المبدأ الثامن: لا إكراه في الدين

قال الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ (٣).

المبدأ التاسع: لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها

قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾ (٤).

المبدأ العاشر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال الله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ (٥).

---

(١) سورة البقرة / الآية ١٩٤ .

(٢) سورة البقرة / الآية ٢١٦ .

(٣) سورة البقرة / الآية ٢٥٦ .

(٤) سورة البقرة / الآية ٢٨٦ .

(٥) سورة آل عمران / الآية ١١٠ .

المبدأ الحادي عشر: قوامة الرجال على النساء

قال الله تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾(١).

المبدأ الثاني عشر: من يعمل سوءًا يجز به

قال الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ (٢).

المبدأ الثالث عشر: الصلح خير

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (٣) .

المبدأ الرابع عشر: العدل أساس الملك

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾(٤).

المبدأ الخامس عشر: عفا الله عما سلف

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴾ (٥).

---

(١) سورة النساء / الآية ٣٤ .

(٢) سورة النساء / الآية ١٢٣ .

(٣) سورة النساء / الآية ١٢٨ .

(٤) سورة المائدة / الآية ٨ .

(٥) سورة المائدة / الآية ٩٥ .

المبدأ السادس عشر: لا يستوي الخبيث والطيب

قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[1].

المبدأ السابع عشر: لا تزر وازرة وزر أخرى

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾[2] .

المبدأ الثامن عشر: إن الظن لا يغني من الحق شيئًا

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾[3].

المبدأ التاسع عشر: العقاب بالمثل

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾[4].

المبدأ العشرون: إن العهد كان مسؤولاً

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾[5] .

المبدأ الحادي والعشرون: تكريم الله تعالى لبني آدم

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[6].

---

(١) سورة المائدة / الآية ١٠٠ .
(٢) سورة الأنعام / الآية ١٦٤ .
(٣) سورة يونس / الآية ٣٦ .
(٤)سورة النحل / الآية ١٢٦ .
(٥) سورة الإسراء / الآية ٣٤ .
(٦) سورة الإسراء / الآية٧٠ .

المبدأ الثاني والعشرون: الأمة واحدة

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ (١)، وقال سبحانه أيضًا: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٢) .

المبدأ الثالث والعشرون: التوسط في الإنفاق

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾(٣).

المبدأ الرابع والعشرون: القدوة الحسنة

قال الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (٤).

المبدأ الخامس والعشرون: لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله

قال الله تعالى: ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (٥).

المبدأ السادس والعشرون: لله الدين الخالص

قال الله تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ (٦) .

المبدأ السابع والعشرون: لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون

قال الله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ (٧).

---

(١) سورة الأنبياء / الآية ٩٢ .

(٢) سورة المؤمنون / الآية ٥٢ .

(٣) سورة الفرقان / الآية ٦٧ .

(٤) سورة الأحزاب / الآية ٢١ .

(٥) سورة فاطر / الآية ٤٣ .

(٦) سورة الزمر / الآية ٣ .

(٧) سورة الزمر / الآية ٩ .

المبدأ الثامن والعشرون: لا تستوي الحسنة ولا السيئة

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (١).

المبدأ التاسع والعشرون: الشورى

قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨) ﴾ (٢).

المبدأ الثلاثون: العفو

قال الله تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣).

المبدأ الحادي والثلاثون: من يبخل فإنما يبخل عن نفسه

قال الله تعالى: ﴿ هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) ﴾ (٤).

المبدأ الثاني والثلاثون: المؤمنون إخوة

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) ﴾ (٥).

المبدأ الثالث والثلاثون: كل امرئ بما كسب رهين

قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (٦).

---

(١) سورة فصلت / الآية ٣٤ .

(٢) سورة الشورى / الآية ٣٨ .

(٣) سورة الشورى / الآية ٤٠ .

(٤) سورة محمد / الآية ٣٨ .

(٥) سورة الحجرات / الآية ١٠ .

(٦) سورة الطور / الآية ٢١ .

المبدأ الرابع والثلاثون: ليس للإنسان إلا ما سعى

قال الله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾(١).

المبدأ الخامس والثلاثون: جزاء الإحسان إحسان

قال الله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ ﴾(٢).

المبدأ السادس والثلاثون: الصدق مع النفس

قال الله تعالى: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾(٣).

المبدأ السابع والثلاثون: الإيمان هداية للقلوب

قال الله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٤).

المبدآن الثامن والثلاثون، والتاسع والثلاثون: التقوى، والتوكل

قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾(٥).

المبدأ الأربعون: لكم دينكم ولي دين

قال الله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾(٦).

---

(١) سورة النجم / الآية ٣٩.

(٢) سورة الرحمن / الآية ٦٠.

(٣) سورة الصف / الآية ٣.

(٤) سورة التغابن / الآية ١١.

(٥) سورة الطلاق / الآيتان ٢، ٣.

(٦) سورة الكافرون / الآية ٦.

الفصل الثاني
تفسير الآيات التي ضمت هذه المبادئ

المبدأ الأول: الضرورات تبيح المحظورات

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

المعنى الإجمالي:

إنما المحرم عليكم أيها المؤمنون ما حرمه الله تعالى لا ما حرمه غيره، فقد حرم الله عليكم الميتة، وهي التي ماتت من غير ذكاة شرعية، وألحقت السنة بها ما أبين من حي، وخصت السمك والجراد، والحرمة المضافة إلى العين تفيد عرفًا حرمة التصرف فيها مطلقًا إلا ما خصه الدليل، كالتصرف في المدبوغ، وحرم عليكم الدم المسفوح، فاستثنى الشرع من الدم الكبد والطحال، وحرم عليكم لحم الخنزير وسائر أجزائه، وكذلك ما ذبح لغير الله، فمن ألجأته الضرورة إلى أكل شيء مما ذكر فأكله غير خارج على جماعة المسلمين غير مجاوز للمقدار المرخص له، فلا ذنب عليه؛ لأنه فعل ذلك إبقاء لحياته، والله تعالى غفور لعباده رحيم بهم حيث شرع لهم ما فيه يسر لا ما فيه عسر.

التفسير:

جاءت هذه الآية الكريمة في سياق الآيات التي تأمر المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم الله، فقد سبقها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[2]، فلما امتن الله عليهم بالطيبات، وأحل لهم الأكل منها، أتبع ذلك ببيان ما حرم عليهم ليجتنبوه، فقال: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

يقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور: "هذا استئناف بياني ، ذلك أن الإذن بأكل الطيبات يثير سؤال مَنْ يسأل: ما هي الطيبات؟ فجاء هذا الاستئناف مبيِّنًا المحرمات وهي أضداد الطيبات ،

---

(١) سورة البقرة / الآية ١٧٣ .

(٢) سورة البقرة / الآية ١٧٢ .

لتُعرف الطيبات بطريق المضادة المستفادة من صيغة الحصر، وإنما سُلك طريق بيان ضد الطيبات للاختصار؛ فإن المحرمات قليلة، ولأن في هذا الحصر تعريضًا بالمشركين الذين حرموا على أنفسهم كثيرًا من الطيبات وأحلوا الميتة والدم، ولما كان القصر هنا حقيقيًا لأن المخاطب به هم المؤمنون وهم لا يعتقدون خلاف ما يُشرع لهم، لم يكن في هذا القصر قلب اعتقاد أحد وإنما حصل الرد به على المشركين بطريقة التعريض، و(إنما) بمعنى ما وإلاّ أي ما حَرَّم عليكم إلاّ الميتة وما عطف عليها، ومعلوم من المقام أن المقصود ما حَرَّم من المأكولات " [١] .

والمقصود بتحريم الميتة تحريم أكلها والانتفاع بها، وأضافة الحرمة إلى العين مع أن الحرمة من الأحكام الشرعية التي هي من صفات فعل المكلف، وليست مما تتعلق بالأعيان، إشارة إلى حرمة التصرف في الميتة، وهي التي ماتت من غير ذكاة شرعية من جميع الوجوه بأخصر طريق وأوكده، حيث جعل العين غير قابلة لتعلق فعل المكلف بها إلا ما خصه الدليل كالتصرف بالمدبوغ، وألحق بالميتة ما أبين من حي للحديث الذي جاء في السنة النبوية المطهرة عن أبي واقد الليثي قال: قال رسول الله ﷺ : **"ما قطع من البهيمة وهي حية فهي ميتة"** [٢] وخرج عنها السمك والجراد لما ورد في السنة أيضا عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما مرفوعًا: **"أحلت لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال"** [٣] وللعرف أيضًا فإنه إذا قال القائل: أكل فلان الميتة لم يسبق الوهم إليهما [٤] .

والدم المحرم هو المسفوح أي الجاري، دل على ذلك كونه جاء مقيدًا في قوله تعالى: ﴿ **قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ** ﴾ [٥] ، وخصت السنة الكبد والطحال كما مر.

---

(١) التحرير والتنوير ٢/ ١١٥ .

(٢) سنن أبو داود (٢٨٥٨) ٢/ ١٢٣ . ط: دار الفكر . تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، وسنن الترمذي (١٤٨٠) ٤/ ٧٤ ، وقال أبو عيسى: وهذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث زيد بن أسلم، والعمل على هذا عند أهل العلم، و أبو وقد الليثي اسمه الحرث بن عوف . ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت. تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، ونحوه في سنن ابن ماجه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما (٣٢١٦) ٢/ ١٠٧٢ . ط: دار الفكر – بيروت. تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه عن ابن عمر بلفظ: "أحلت لكم ميتتان ودمان. فأما الميتتان فالحوت والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال" (٣٣١٤) ٢/ ١١٠٢ . ط: دار الفكر – بيروت. تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .

(٤) روح المعاني للآلوسي ٢/ ٤١، ٤٢ بتصرف .

(٥) سورة الأنعام/ الآية ١٤٥ .

وقوله تعالى: ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ (١) أي: جميع أجزائه وإنما عبر عن ذلك باللحم؛ لأنه معظم المقصود منه وغيره تابع له.

قال العلامة الآلوسي: "خص اللحم بالذكر مع أن بقية أجزائه أيضًا حرام خلافًا للظاهرية؛ لأنه معظم ما يؤكل من الحيوان وسائر أجزائه كالتابع له، وقيل: خص اللحم ليدل على تحريم عينه ذكي أو لم يذك، وفيه ما لا يخفى، ولعل السر في إقحام لفظ اللحم هنا إظهار حرمة ما استطيبوه وفضلوه على سائر اللحوم واستعظموا وقوع تحريمه" (٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ قال الأصمعي: الإهلال أصله رفع الصوت، فكل رافع صوته فهو مهل، هذا معنى الإهلال في اللغة، والذابح مهل؛ لأن العرب كانوا يسمون الأوثان عند الذبح، ويرفعون أصواتهم بذكرها، فمعنى قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ يعني ما ذبح للاصنام، وهو قول، وهناك قول آخر: يعني ما ذكر عليه غير اسم الله، وهذا القول أولى؛ لأنه أشد مطابقة للفظ، قال العلماء : لو أن مسلمًا ذبح ذبيحة، وقصد بذبحها التقرب إلى غير الله صار مرتدًا وذبيحته ذبيحة مرتد، وهذا الحكم في غير ذبائح أهل الكتاب، أما ذبائح أهل الكتاب، فتحل لنا لقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ الفاء فيه لتفريع الإخبار لا لتفريع المعنى، فإن معنى رفع الحرج عن المضطر لا ينشأ عن التحريم، والمضطر هو الذي ألجأته الضرورة أي الحاجة أي اضطر إلى أكل شيء من هذه المحرمات فلا إثم عليه، وقوله : ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ حال، والبغي الظلم، والعدوان المحاربة والقتال، ومجيء هذه الحال هنا للتنويه بشأن المضطر في حال إباحة هاته المحرمات له بأنه بأكلها يكون غير باغ ولا عاد، لأن الضرورة تلجىء إلى البغي والاعتداء فالآية إيماء إلى علة الرخصة، وهي رفع البغي والعدوان بين الأمة، وهي أيضًا إيماء إلى حد الضرورة وهي الحاجة التي يشعر عندها من لم يكن دأبه البغي والعدوان بأنه سيبغي ويعتدي وهذا تحديد منضبط، فإن الناس متفاوتون في تحمل الجوع ولتفاوت الأمزجة في مقاومته (٤) .

---

(١) البقرة/ الأية ١٧٣.

(٢) روح المعاني ٤٢/٢ .

(٣) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٢/٥ بتصرف، والآية رقم ٥ من سورة المائدة .

(٤) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ١٢٠/٢، ١٢١ .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ تذييل قصد به الامتنان من الله تعالى على عباده، فالله تعالى موصوف بهذين الوصفين، ومن كان كذلك، فشأنه أن يغفر ويتجاوز، ويعفو ويصفح. وهداية هذه الآية الكريمة: أن رفع الإثم عن المضطر متسق تمامًا مع من اتصف بالمغفرة والرحمة.

يقول الإمام الرازي: "أما قوله تعالى: ﴿ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ ﴾ ففيه سؤالان أحدهما: أن الأكل في تلك الحالة واجب، وقوله ﴿ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ ﴾ يفيد الإباحة، الثاني: أن المضطر الملجأ إلى الفعل والملجأ لا يوصف بأنه لا إثم عليه.

وجواب الأول: أن نفي الإثم قدر مشترك بين الواجب والمندوب والمباح ، وجواب الثاني: أن قوله تعالى ﴿ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ ﴾ معناه رفع الحرج والضيق، واعلم أن هذا الجائع إن حصلت فيه شهوة الميتة ، ولم يحصل فيه النفرة الشديدة فإنه يصير ملجأ إلى تناول ما يسد به الرمق كما يصير ملجأ إلى الهرب من السبع إذا أمكنه ذلك، أما إذا حصلت النفرة الشديدة فإنه بسبب تلك النفرة يخرج عن أن يكون ملجأ ولزمه تناول الميتة على ما هو عليه من النفار، وههنا يتحقق معنى الوجوب.

أما قوله تعالى في آخر الآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ ففيه إشكال وهو أنه لما قال: ﴿ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ ﴾ فكيف يليق أن يقول بعده: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ فإن الغفران إنما يكون عند حصول الإثم.

والجواب: من وجوه ...

أحدها: أن المقتضى للحرمة قائم في الميتة والدم، إلا أنه زالت الحرمة لقيام المعارض، فلما كان تناوله تناولًا لما حصل فيه المقتضى للحرمة عبر عنه بالمغفرة، ثم ذكر بعده أنه رحيم، يعني لأجل الرحمة عليكم أبحت لكم ذلك.

وثانيها: لعل المضطر يزيد على تناول الحاجة، فهو سبحانه غفور بأن يغفر ذنبه في تناول الزيادة، رحيم حيث أباح في تناول قدر الحاجة.

وثالثها: أنه تعالى لما بين هذه الأحكام عقبها بكونه غفورًا رحيمًا؛ لأنه غفور للعصاة إذا تابوا، رحيم بالمطيعين المستمرين على نهج حكمه سبحانه وتعالى" [١].

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٥/ ١٤ .

فإن قيل: إنما تفيد قصر الحكم على ما ذكر وكم من محرّم لم يذكر؟ أجيب: بأنّ المراد قصر الحرمة على ما ذكر مما استحله الكفار لا مطلقًا، وقصر ما ذكر على حال الاختيار كأنه قيل: إنما حرّم عليكم هذه الأشياء ما لم تضطرّوا إليها [١].

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو مبدأ "الضرورات تبيح المحظورات".

وهذا المبدأ العام مبدأ متفق عليه، ومأخوذ من نصوص القرآن في خمسة مواضع...

أولها: الآية التي معنا.

وثانيها: قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [٢].

وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [٣].

ورابعها: قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [٤].

---

(١) السراج المنير ١/١١٣.
(٢) سورة المائدة / الآية ٣.
(٣) سورة الأنعام / الآية ١١٩.
(٤) سورة الأنعام / الآية ١٤٥.

وخامسها: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ (١).

والضرورة: أن يطرأ على الإنسان حال من الخطر أو المشقة الشديدة بحيث يخشى حدوث ضرر أو أذى، فيتعين أو يباح له حينئذ ارتكاب الحرام أو ترك الواجب، أو تأخيره عن وقته دفعًا للضرر.

ومعنى هذا المبدأ: أن الممنوع شرعًا يباح عند الضرورة، ومن ثم أبيحت الميتة عند المخمصة، وإساغة اللقمة بالخمر لمن غص ولم يجد غيرها، وأبيحت كلمة الكفر للمكره.

ومما قرره الفقهاء أيضًا أن الحاجة قد تنزل منزلة الضرورة، خاصة كانت أو عامة، والحاجة هي التي إذا لم تتحقق يكون المسلم في حرج، وإن كان يستطيع أن يعيش، بخلاف الضرورة التي لا يستطيع أن يعيش بدونها، وهذا هو ضابط الضرورة.

ومما هو معلوم أن الله تعالى قد رفع الحرج عن هذه الأمة بنصوص القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (٢)، وقوله أيضًا: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ (٣).

يقول الأستاذ سيد قطب معلقًا على قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في الآية التي معنا: "وهو مبدأ عام ينصب هنا على هذه المحرمات. ولكنه بإطلاقه يصح أن يتناول سواها في سائر المقامات. فأيما ضرورة ملجئة يخشى منها على الحياة، فلصاحبها أن يتفادى هذا الحرج بتناول المحظور في الحدود التي تدفع هذه الضرورة" (٤).

ومما سبق يتضح لنا أن الضرورات تبيح المحظورات من المبادئ العامة التي تضمنها القرآن الكريم.

---

(١) سورة النحل / الآية ١١٥ .

(٢) سورة الحج / الآية ٧٨ .

(٣) سورة المائدة / الآية ٦ .

(٤) في ظلال القرآن ١/١٥٧ .

المبدأ الثاني: القصاص حياة

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (١) .

المعنى الإجمالي:

ولكم في تشريع القصاص وإقامته حياة عظيمة يا أصحاب العقول السليمة والفطر المستقيمة؛ لأن القاتل إذا علم أنه يقتل ارتدع فأحيا نفسه وأحيا من أراد قتله. رجاء تقوى الله تعالى منكم وطاعته بالمحافظة على القصاص.

التفسير:

جاءت هذه الآية الكريمة كتذييل للآيات التي شرع فيها القصاص لبيان الحكمة من مشروعيته وذلك توطينًا للنفوس على الانقياد له، وتقوية لعزم الحكام على إقامته، فقال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾

وهذا كلام في غاية الفصاحة والبلاغة حيث جعل الشيء محل ضده فالقصاص الذي هو قتل وتفويت للحياة جعله الله تعالى محلًا ومكانًا وظرفًا للحياة، ثم إنه فاق ما كان سائرًا مسرى المثل عند العرب وهو قولهم "القتل أنفى للقتل" من وجوه كثيرة، ذكرها العلامة الآلوسي في تفسيره حيث قال: "وكان أوجز كلام عندهم في هذا المعنى – القتل أنفى القتل – وفضل هذا الكلام عليه من وجوه:

الأول: قلة الحروف فإن الملفوظ هنا عشرة أحرف إذا لم يعتبر التنوين حرفًا على حدة وهناك أربعة عشر حرفًا.

الثاني: الاطراد إذ في كل قصاص حياة وليس كل قتل أنفى للقتل فإن القتل ظلمًا أدعى للقتل.

الثالث: ما في تنوين حياة من النوعية أو العظيم.

الرابع: صنعة الطباق بين القصاص والحياة فإن القصاص تفويت الحياة فهو في مقابلها.

الخامس: النص على ما هو مطلوب بالذات أعني الحياة فإن نفي القتل فإنما يطلب لها لا لذاته.

السادس: الغرابة من حيث جعل الشيء فيه حاصلًا في ضده ومن جهة أن المظروف إذا حواه الظرف صانه عن التفرق فكان (القصاص) فيما نحن فيه يحمي الحياة من الآفات.

(١) سورة البقرة / الآية ١٧٩ .

السابع: الخلو من التكرار مع التقارب فإنه لا يخلو من استشباع ولا يعد رد العجز على الصدر حتى يكون محسنًا.

الثامن: عزوبة اللفظ وسلاسته حيث لم يكن فيه ما في قولهم من توالي الأسباب الخفيفة إذ ليس في قولهم حرفان متحركان على التوالي إلا في موضع واحد ولا شك أنه ينقص من سلاسة اللفظ وجريانه على اللسان، وأيضًا الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة لبعد الهمزة من اللام وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل من الخروج الألف إلى اللام.

التاسع: عدم الاحتياج إلى الحيثية وقولهم يحتاج إليها.

العاشر: تعريف القصاص بلام الجنس الدالة على حقيقة هذا الحكم المشتملة على الضرب والجرح والقتل وغير ذلك وقولهم لا يشمله.

الحادي عشر: خلوه من أفعل الموهم أن في الترك نفيًا للقتل أيضًا.

الثاني عشر: اشتماله على ما يصلح للقتال وهو الحياة بخلاف قولهم فإنه يشتمل على نفي اكتنفه قتلان وإنه لمما يليق بهم.

الثالث عشر: خلوه عما يوهمه ظاهر قولهم من كون الشيء سببًا لانتفاء نفسه وهو محال. إلى غير ذلك فسبحان من علت كلمته وبهرت آيته" (١).

وقد زاد العلامة محمد جمال الدين القاسمي (٢) على هذا، وذكر بعض الوجوه الأخرى منها:

١. أن تنكير "حياة" يفيد تعظيمًا، فيدل على أن في القصاص حياة متطاولة، كقوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ (٣)، ولا كذلك المثل، فإن اللام فيه للجنس، ولذا فسروا الحياة فيها بالبقاء.

---

(١) روح المعاني ٢/٥١ .

(٢) هو محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي الدمشقي، إمام الشام في عصره، علمًا بالدين، وتضلعًا في فنون الأدب . كان سلفي العقيدة لا يقول بالتقليد، تزيد مؤلفاته على السبعين، منها دلائل التوحيد، وقواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، ومحاسن التأويل في التفسير توفي في دمشق سنة اثنتين وثلاثمائة وألف . الأعلام للزركلي ٢/١٣٥ .

(٣) سورة البقرة / الآية ٩٦ .

٢. أن الآية مستغنية عن تقدير محذوف، بخلاف قولهم، فإن فيه حذف (من) التي بعد أفعل التفضيل وما بعدها، وحذف (قصاصًا) مع القتل الأول، و(ظلمًا) مع القتل الثاني. والتقدير القتل قصاصًا أنفى للقتل ظلمًا من تركه.

٣. أن لفظ القصاص مشعر بالمساواة، فهو مبني على العدل، بخلاف مطلق القتل.

٤. الآية مبنية على الإثبات، والمثل على النفي، والإثبات أشرف؛ لأنه أول، والنفي ثان عنه [١].

كما زاد العلامة محمد الطاهر بن عاشور وجهًا انفرد به ولم يذكره أحد غيره وهو: "أن لفظ القصاص قد دل على إبطال التكايل بالدماء وعلى إبطال قتل واحد من قبيلة القاتل إذا لم يظفروا بالقاتل وهذا لا تفيده كلمتهم الجامعة" [٢].

وقد جعل الحق تبارك وتعالى الخطاب في قوله ﴿يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ موجهًا إلى أصحاب العقول والأفهام خاصة لأنهم هم الذين ينظرون في عواقب الأمور ويخشون ما يلحق بهم من الضرر في الآجل، وخاصة إذا كان هذا الضرر يتعلق بحياة الإنسان نفسه التي هي أنفس ما يملك، فإذا حكم العقل رأى ما في القصاص من مصلحة عامة، فالخطاب بهذه الجملة علة للحكم.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ علة أخرى لهذا الحكم.

أي لما كان في القصاص حياة لكم كتبناه عليكم وشرعناه لكم، لعلكم تتقون الاعتداء وتكفون عن سفك الدماء [٣].

يقول الإمام الشوكاني [٤]: "ثم علل سبحانه هذا الحكم الذي شرعه لعباده بقوله ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ أي تتحامون القتل بالمحافظة على القصاص فيكون ذلك سببًا للتقوى" [٥].

(١) محاسن التأويل ٣/٦٣: ٦٥ بتصرف .
(٢) التحرير والتنوير ٢/١٤٥ .
(٣) تفسير المنار للشيخ رشيد رضا ٢/١٠٧ .
(٤) هو محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني: فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء . نشأ بها . وولى قضاءها سنة ١٢٢٩هـ وتوفي بها سنة ١٢٥٠هـ و كان يرى تحريم التقليد . له نحو ١١٤ مؤلفًا منها: نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار، وإرشاد الفحول في علم الأصول، وفتح القدير في التفسير. الأعلام للزركلي ٦ / ٢٩٨
(٥) فتح القدير ١/١٧٦ .

ويقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور: "وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ إكمالًا للعلة أي تقريبًا فلا تتجاوزوا في أخذ الثأر حد العدل والإنصاف" (١).

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت مبدًا عامًا من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو مبدأ القصاص، وأن القصاص حياة. كيف؟

لأن القصاص في الإسلام يحمى الحياة الإنسانية فالذي يريد أن يقتل إذا علم أنه لو قَتل قُتل ترك القتل فلا يقتل فيبقى حيًا، وكذلك في حق من يريد قتله لأنه لو ترك قتله خوفًا من القصاص يبقى غير مقتول.

يقول الأستاذ سيد قطب (٢): "والحياة التي في القصاص تنبثق من كف الجناة عن الاعتداء ساعة الابتداء. فالذي يوقن أنه يدفع حياته ثمنًا لحياة من يقتل جدير به أن يتروى ويفكر ويتردد. كما تنبثق من شفاء صدور أولياء الدم عند وقوع القتل بالفعل. شفائها من الحقد والرغبة في الثأر. الثأر الذي لم يكن يقف عند حد في القبائل العربية حتى لتدوم معاركه المتقطعة أربعين عامًا كما في حرب البسوس (٣)المعروفة عندهم. وكما نرى نحن في واقع حياتنا اليوم، حيث تسيل الحياة على مذابح الأحقاد العائلية جيلًا بعد جيل، ولا تكف عن المسيل" (٤).

(١) التحرير والتنوير ٢/١٤٥ .

(٢) هو سيد قطب بن إبراهيم مفكر إسلامي كبير. ولد في قرية موشا بأسيوط سنة ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م، درس في كلية دار العلوم بالقاهرة وفيها تخرج سنة ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٤م، واشتغل في أول حياته بجريدة الأهرام، وكتب في مجلتي الرسالة والثقافة، وانضم إلى جماعة الإخوان المسلمين فترأس قسم نشر الدعوة وتولى تحرير جريدتهم سنة ١٩٥٣–١٩٥٤م وسجن مع الإخوان المسلمين فعكف على تأليف الكتب ونشرها إلى أن صدر الحكم بإعدامه سنة ١٩٦٦م وترك تآليف كثيرة من أهمها: تفسيره في ظلال القرآن، العدالة الاجتماعية، مشاهد القيامة، التصوير الفني في القرآن الكريم . الأعلام للزركلي ٧/١٤٧، ١٤٨ .

(٣) وهي حرب اشتعلت بين بكر وتغلب حوالي أوائل سنة ٤٩٠م، وذلك أن البسوس وهي خالة جساس بن مرة الشيباني كان لها ناقة يقال لها: سراب، فرآها كليب وائل في حماه وقد كسرت بيض حمام كان قد أجاره، فرمى ضرعها بسهم، فوثب جساس على كليب فقتله، فهاجت حرب بكر وتغلب ابني وائل بسببها أربعين سنة، حتى ضربت العرب بشؤمها المثل. معجم قبائل العرب القديمة والحديثة لعمر رضا كحالة ١/ ٩٥ ، معجم البلدان لياقوت الحموي ١ /١١٣ .

(٤) في ظلال القرآن ١/١٦٥ .

ماذا لو أهمل الناس القصاص؟

ولو أهمل الناس القصاص ستكون الحياة فوضى ويكثر القتل ويتحول الأمر إلى الأخذ بالثأر.

ولو ترك الأمر للأخذ بالثأر كما كان عليه في الجاهلية لأفرطوا في القتل وتسلسل الأمر (١).

يقول الأستاذ سعيد حوى (٢): "هناك اتجاه عالمي في منع القصاص بالقتل. يحاول كثير من الكُتَّاب أن يثيروا الشفقة على القاتل ويدعوا إلى إلغاء عقوبة الإعدام ومن الآية نفهم أن أمثال هؤلاء لا عقول لهم ولو كان لهم عقول لرأوا من خلال التجربة كيف أن أكثر البلاد أجهزة أمن كأمريكا هي أكثرها جريمة لعدم وجود العقوبات العادلة وكيف أن أقل البلاد أجهزة أمن عندما تقام بها شريعة الإسلام هي أقلها جريمة ؟!" (٣).

وهكذا نجد أن مبدأ القصاص منه منافع عامة وفوائد جمة إذ لولاه لصارت حياة الناس كلها على خطر عظيم.

يقول الأستاذ محمد عزة دروزة (٤) عند تفسيره لهذه الآية والتي قبلها: "والذي يتبادر لنا أن الآية الأولى (٥) قد نزلت لحل مشكلة دموية قائمة بأوصاف معينة وللتشريع في كل مشكلة مماثلة. وأن

---

(١) التحرير والتنوير ٢/١٤٥ .

(٢) هو سعيد بن محمد ديب حوى:داعية من المفسرين. ولد بحماة، وطلب العلم على شيوخها وغيرهم وتخرج بكلية الشريعة من جامعة دمشق واشتغل بالتدريس. اعتقل نحوًا من ست سنوات، فألف في سجنه كتاب الأساس في تفسير القرآن الكريم. وله غيره. وغادر إلى الأردن، ثم مرض وأصيب بشلل جزئي اضطره إلى العزلة ولزم بيته إلى أن توفي سنة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ومن كتبه:"الله"، "الرسول"، "الإسلام"، "جند الله". إتمام الأعلام ذيل لكتاب الأعلام للزركلي ١٠٩، ط: دار صادر بيروت .

(٣) الأساس في التفسير ١/ ٣٩٩ .

(٤) هو محمد عزة بن عبد الهادي دروزة: مؤرخ باحث من أهالي فلسطين . ولد بنابلس، ولم يتح له أن يستمر في الدراسة بعد الإعدادية، فعكف على تثقيف نفسه . رحل إلى دمشق وحكم عليه الفرنسيون فيها بالسجن خمس سنوات، وأفرجوا عنه فغادر إلى تركيا، ثم عاد إلى دمشق واستقر بها حتى وفاته عام ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م . له أكثر من ثلاثين كتابًا مطبوعًا في التاريخ والتربية والسياسة والدراسات الإسلامية منها:"سيرة الرسول من القرآن"، "القرآن واليهود"، "المرأة في القرآن"، "القرآن المجيد"، "التفسير الحديث" . إتمام الأعلام ذيل لكتاب الأعلام للزركلي ٢٥٦، ط: دار صادر بيروت .

(٥) يقصد بها آية فرض القصاص – سورة البقرة / ١٧٨ .

الآية الثانية [١] قد تضمنت حكمة تشريعية من جهة، ومبدأ حكميًا عامًا من جهة أخرى. فالحكمة هي بيان ما في القصاص من منافع عبر عنها بتعبير قوي ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ والمبدأ الحكمي العام هو إيجاب القصاص في القتل العمد " [٢].

وأقول: كلامي يسير مع كلام الأستاذ السابق في نفس الاتجاه حيث بين أن الآية الكريمة قد تضمنت مبدًا عامًا من مبادئ القرآن الكريم.

***

(١) يقصد بها الآية التي معنا – سورة البقرة / ١٧٩ .

(٢) التفسير الحديث ٢٧٢/٧ ط: دار إحياء الكتب العربية .

المبدأ الثالث: اليسر لا العسر

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١).

المعنى الإجمالي:

لما ذكر الحق تبارك وتعالى في الآيتين السابقتين أنه كتب على أمة الإسلام الصيام، وأنه أيام معدودات، بيّن في هذه الآية أن المراد من الأيام المعدودات أيام شهر رمضان المبارك الذي أنزل فيه القرآن هداية للناس من الضلال إلى الحق، وهو آيات واضحات تهدي إلى الحق، وتفرق بينه وبين الباطل، فمن حضر منكم الشهر وكان صحيحًا غير مريض مقيمًا غير مسافر فليصم نهاره، مع بقاء الرخصة في الفطر للمريض والمسافر، على أن يقضيا عدد تلك الأيام، والله تعالى يريد بكم اليسر والتيسير في شرائعه، ولا يريد بكم العسر والمشقة، لتكملوا عدة الصيام شهرًا، ولتكبروا الله في عيد الفطر على هدايته لكم، ولكي تشكروه على ما أعانكم عليه من القيام بطاعته وحسن عبادته، وعلى ما أنعم به عليكم من الهداية والتوفيق والتيسير.

التفسير:

جاءت هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن فرض الصيام وأحكامه، وفيها تفصيل للأيام المعدودات التي فرض صيامها، فقال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ أي أن الله تعالى قد فرض عليكم الصيام كما فرضه على الأمم من قبلكم وحدد لكم الوقت الذي تصومون فيه وهو شهر رمضان، وتحديد شهر رمضان للصيام فيه كان لخصوصية ألا وهي أنه الشهر الذي نزل فيه القرآن.

يقول الإمام الخازن (٢) في تفسيره: "لما خص الله شهر رمضان بهذه العبادة العظيمة بين سبب تخصيصه بإنزال أعظم كتبه فيه" (٣).

---

(١) سورة البقرة / الآية ١٨٥ .

(٢) هو علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن خليل الشيحي البغدادي، الشهير بالخازن، مفسر فقيه محدث ومؤرخ ولد بغداد ثم قدم دمشق ومن تصانيفه: "لباب التأويل في معاني التنزيل" في التفسير، و"شرح عمدة الأحكام" توفي سنة إحدى وأربعين وسبعمائة. معجم المؤلفين ٧/١٧٧ .

(٣) تفسير الخازن ١/١٥٣ .

ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي ابتدأ إنزاله على سيدنا محمد ﷺ، و ﴿أُنزِلَ فِيهِ﴾ أي أنزل في مثله.

يقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور: "والمراد بإنزال القرآن ابتداء إنزاله على النبي ﷺ فإن فيه ابتداء النزول من عام واحد وأربعين من الفيل فعبر عن إنزال أوله باسم جميعه؛ لأن ذلك القدر المنزل مقدر إلحاق تكملته به كما جاء في كثير من الآيات مثل قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [1] وذلك قبل إكمال نزوله.

ومعنى ﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أنزل في مثله؛ لأن الشهر الذي أنزل فيه القرآن قد انقضى قبل نزول آية الصوم بعدة سنين، فإن صيام رمضان فرض في السنة الثانية من الهجرة فبين فرض الصيام والشهر الذي أنزل فيه القرآن حقيقة عدة سنين فيتعين بالقرينة أن المراد أنزل في مثله أي في نظيره من عام آخر" [2].

ومعنى قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ أي أن القرآن الكريم أنزل وهو هداية للناس من الضلال، وهو بينات أي آيات واضحات مما يهدي إلى الحق ويفرق بينه وبين الباطل، وإلى ذلك يشير الشيخ الخطيب الشربيني [3] في تفسيره حيث يقول: "وقوله تعالى ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ حالان من القرآن أي أنزل وهو هداية للناس لإعجازه من الضلالة إلى الحق وهو آيات واضحات مما يهدي إلى الحق ويفرق بينه وبين الباطل مما فيه من الحكم والأحكام" [4].

وفي بيان الفرق بين الهدى الأول والهدى الثاني يقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور: "والمراد بالهدى الأول ما في القرآن من الإرشاد إلى المصالح العامة والمصالح الخاصة التي لا تنافي العامة، وبالبينات من الهدى: ما في القرآن من الاستدلال على الهدى الخفي الذي ينكره كثير من الناس مثل أدلة التوحيد وصدق الرسول وغير ذلك من الحجج القرآنية، والفرقان مصدر فرق وقد شاع في

(١) سورة الأنعام / الآية ٩٢ .

(٢) التحرير والتنوير ٢/١٧٢ بتصرف يسير.

(٣) هو محمد بن أحمد الشربيني شمس الدين، فقيه شافعي مفسر. من أهل القاهرة له تصانيف منها: "السراج المنير" في تفسير القرآن، و"الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع" و "مغني المحتاج" في الفقه، و"تقريرات على المطول" في البلاغة. توفي سنة ٩٧٧ هـ. الأعلام للزركلي ٦/٦ .

(٤) السراج المنير ١/١٢٠ .

الفرق بين الحق والباطل أي إعلان التفرقة بين الحق الذي جاءهم من الله وبين الباطل الذي كانوا عليه قبل الإسلام، فالمراد بالهدى الأول ضرب من الهدى غير المراد من الهدى الثاني، فلا تكرار "[١].

ومعنى قول الحق تبارك وتعالى في الآية: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي فمن كان حاضرًا صحيحًا غير مريض مقيم غير مسافر، فأدركه الشهر فليصمه، ولفظ (من) يفيد العموم أي كل من حضر الشهر فليصمه، ومن كان مريضاَ مرضًا يضر معه الصوم أو كان مسافراُ فله أن يفطر وعليه قضاء ما أفطر.

ووجه إعادة قوله ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ﴾ مع تقدم نظيره في قوله ﴿وَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ [٢] أنه لما كان صوم رمضان واجبًا على التخيير بينه وبين الفدية بالإطعام بالآية الأولى وهى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [٣] وقد سقط الوجوب عن المريض والمسافر بنصها فلما نسخ حكم هذه الآية بقوله ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ ..... الآية وصار الصوم واجبًا على التعيين خيفة أن يظن الناس أن جميع ما في الآية الأولى من الرخصة قد نسخ فأعيد ذلك في هذه الآية الناسخة تصريحًا ببقاء هذه الرخصة، ونسخت رخصة الإطعام مع القدرة والحضر والصحة لا غير [٤].

إذن فمعنى ذلك أن التكرار إنما جاء ليوضح أن النسخ إنما هو في حق المقيم الصحيح مع بقاء الرخصة للمريض والمسافر.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ تعليل لما قبله فكأنه تعالى يقول رخصت الإفطار للمريض والمسافر لأني أريد بكم اليسر ولا أريد بكم العسر.

ثم يختم الحق تبارك وتعالى الآية بقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ وهذه الجمل علل لفعل محذوف دل عليه ما قبله أي شرع لكم جملة ما

---

(١) التحرير والتنوير ٢/١٧٣ .

(٢) سورة البقرة / الآية ١٨٤ .

(٣) سورة البقرة / ١٨٣ .

(٤) التحرير والتنوير ٢/١٧٤ بتصرف .

ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهرا المستفاد من قوله تعالى ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ وأمر المرخص له بالقضاء كيفما كان متواترًا أو متفرقًا وبمراعاة عدة ما أفطره من غير نقصان المستفادين من قوله تعالى ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ ومن الترخيص المستفاد من قوله عز وجل ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ أو من قوله تعالى ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ لتكملوا ... إلخ(١).

والمعنى: يريد الله أن تكملوا العدة وأن تكبروا الله، وإكمال العدة يحصل بقضاء الأيام التي افطرها من وجب عليه الصوم ليأتي بعدة أيام شهر رمضان كاملة، فإن في تلك العدة حكمة تجب المحافظة عليها، فبالقضاء حصلت حكمة التشريع وبرخصة الإفطار لصاحب العذر حصلت رحمة التخفيف.

والتكبير معناه أن تصفوا الله بالعظمة وذلك بأن تقولوا الله أكبر، ولذلك شرع التكبير عند إتمام الصيام بهذه الآية فمن أجل ذلك قصدت السنة بأن يكبر المسلمون عند الخروج إلى صلاة العيد ويكبر الإمام في خطبة العيد.

وقوله تعالى ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ تعليل آخر وهو أعم من مضمون جملة ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ فإن التكبير تعظيم يتضمن شكرًا والشكر أعم، لأنه يكون بالأقوال التي فيها تعظيم لله تعالى ويكون بفعل القرب من الصدقات في أيام الصيام وفي أيام الفطر ومن مظاهر الشكر لبس أحسن الثياب يوم الفطر (٢).

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة تضمنت مبدأ عامًا من مبادئ القرآن وهو مبدأ "اليسر لا العسر" حيث قال تعالى ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ فإن من أهم خصائص شريعة الإسلام التيسير، وقد قررت السنة النبوية هذا المبدأ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة**" (٣).

ومن مظاهر هذا التيسير رفع الحرج عن المكلفين حيث يقول الله تعالى ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ

---

(١) روح المعاني ٢/٦٢ .

(٢) التحرير والتنوير ٢/١٧٦ ، ١٧٧ بتصرف .

(٣) صحيح البخاري كتاب الإيمان باب الدين يسر جـ١/صـ١٢ ، والغدوة: الخروج أول النهار. والروحة: الخروج آخر النهار. والدلجة: السير أول الليل، وقيل سير الليل كله .

عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ (١)، وقال تعالى أيضًا ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (٢) كما قال أيضًا ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ (٣) .

يقول الأستاذ سيد قطب عند تفسير قوله تعالى ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾: "وهذه هي القاعدة الكبرى في تكاليف هذه العقيدة كلها. فهي ميسرة لا عسر فيها. وهي توحي للقلب الذي يتذوقها بالسهولة واليسر في أخذ الحياة كلها؛ وتطبع نفس المسلم بطابع خاص من السماحة التي لا تكلف فيها ولا تعقيد. سماحة تؤدى معها كل التكاليف وكل الفرائض وكل نشاط الحياة الجادة وكأنما هي سيل الماء الجاري، ونمو الشجرة الصاعدة في طمأنينة وثقة ورضاء مع الشعور الدائم برحمة الله وإرادته اليسر لا العسر بعباده المؤمنين " (٤).

ويقول الأستاذ محمد عزة دروزة في تفسيره: "وفي التقريرات والمبادئ القرآنية ما يبيح للمسلمين بأخذ كل ما فيه مصلحة وتيسير ولم يكن فيه معصية وتعطيل. وفي الآية التي نحن في صددها تلقين عظيم في هذه المسألة بالذات حيث قررت أن الله إنما يريد بالمسلمين اليسر ولا يريد بهم العسر " (٥).

ومن النقلين السابقين يتضح لنا أن الآية الكريمة قد تضمنت مبدًا عامًا من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو مبدأ اليسر لا العسر.

***

---

(١) سورة المائدة / الآية ٦ .

(٢) سورة الحج / الآية ٧٨ .

(٣) سورة الشرح / الآية ٦ .

(٤) في ظلال القرآن ١/ ١٧٢ .

(٥) التفسير الحديث ٧/ ٢٨٣ ط: دار إحياء الكتب العربية .

المبدأ الرابع: البر هو التقوى

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(١).

المعنى الإجمالي:

يسألك بعض الناس عن الحكمة من خلق الأهلة، فقل لهم أيها الرسول الكريم: إن الله تعالى قد جعل الأهلة علامات للناس في أمورهم الدينية والدنيوية، يعرفون بها أوقات عباداتهم المحددة بوقت مثل الصيام والزكاة والحج، ومعاملاتهم مثل العدة، ومدة الحمل، ومدة الرضاع، وغير ذلك مما يتعلق بأمور معاشهم كأجل الدين والإجارة وغير ذلك ... وأعلمهم أيضًا أن البر ليس ما تعودوا فعله في الجاهلية وأول الإسلام من إتيان البيوت من ظهورها عند إحرامهم بالحج أو العمرة، فليس في إتيان البيوت من ظهورها بر ولا تقوى، ولكن البر هو تقوى الله تعالى، وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وادخلوا البيوت من أبوابها، والزموا تقوى الله في كل حال لتفوزوا بالسعادة في العاجل والمآل.

التفسير:

جاءت هذه الآية الكريمة كاعتراض بين شرائع الأحكام فقد سبقها الحديث عن الصيام وفرضه وبيان أحكامه ثم جاء بعده ذكر الحج ومناسكه، "فمناسبة وضعها في هذا الموضع هي توقيت الصيام بحلول شهر رمضان، فكان من المناسبة ذكر المواقيت لإقامة نظام الجامعة الإسلامية على أكمل وجه. ومن كمال النظام ضبط الأوقات" (٢) .

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ﴾

وسبب نزول هذه الآية ما ذكره الإمام الواحدي (٣) أن معاذ بن جبل قال: يا رسول الله إن اليهود تغشانا ويكثرون مسألتنا عن الأهلة، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

---

(١) سورة البقرة / الآية ١٨٩ .

(٢) التحرير والتنوير ٢/١٩٣ .

(٣) هو علي بن أحمد بن محمد بن علي، أبو الحسن الواحدي النيسابوري الإمام المفسر صاحب التفاسير الثلاثة: الوسيط، والبسيط، والوجيز، تصدر للتدريس مدة، وعظم شأنه توفي بنيسابور في جمادى الآخرة سنة ٤٦٨هـ. سير أعلام النبلاء ١٨/٣٣٩، طبقات المفسرين للسيوطي ص٧٨ .

وقال قتادة [١]: ذكر لنا أنهم سألوا نبي الله ﷺ: لم خلقت هذه الأهلة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾، وروي أنها نزلت في معاذ بن جبل وثعلبة بن غنمة، وهما رجلان من الأنصار قالا يا رسول الله ما بال الهلال يبدو ويطلع دقيقًا مثل الخيط ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان لا يكون على حال واحد فنزلت هذه الآية [٢].

والمعنى: يسألك بعض الناس عن الهلال وأنه يبدو دقيقًا مثل الخيط، ثم يزيد ويمتلئ ويستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ، ولا يكون على حال واحدة كالشمس، فما وراء هذا التغير حتى صار في كل شهر هلال؟ وصارت هناك أهلة؟

وقوله تعالى ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ هو الجواب. أي: قل لهم يا أيها الرسول الكريم: إن لخلق الأهلة واختلاف نموها حكمًا ومصالح دينية ودنيوية فهي التي تحدد لكم أوقات العبادات والمعاملات كما أنها تعين وقت الحج الذي هو ركن من أركان دينكم.

يقول الأستاذ سيد قطب: "مواقيت للناس في حلهم وإحرامهم، وفي صومهم وفي فطرهم، وفي نكاحهم وطلاقهم وعدتهم، وفي معاملاتهم وتجاراتهم وديونهم ... وفي أمور دينهم وأمور دنياهم على السواء" [٣].

وإنما أفرد الحج بالذكر وإن كان داخلًا في جملة العبادات لفائدة عظيمة، وهي أن العرب في الجاهلية كانت تحج بالعدد، وتبدل الشهور، فأبطل الله ذلك من فعلهم، وأخبر أن الحج مقصور على الأشهر التي عيَّنها لفرض الحج بالأهلة، وأنه لا يجوز نقل الحج عن تلك الأشهر التي عينها الله تعالى له كما كانت تفعل العرب بالنسيء [٤].

وسبب نزول قوله تعالى ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ هو ما ذكره الإمام السيوطي عن البراء قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأنزل الله تعالى ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ ... الآية [٥].

---

(١) هو قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز، وقيل قتادة بن دعامة بن عكابة، حافظ العصر، قدوة المفسرين والمحدثين، أبو الخطاب السدوسي البصري الضرير الأكمه، ولد سنة ستين وتوفي سنة ثماني عشرة ومائة، قال معمر: سمعت قتادة يقول: ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئًا. سير أعلام النبلاء ٢٦٩/٥ وما بعدها.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٢٨ .

(٣) في ظلال القرآن ١٨٠/١ .

(٤) تفسير الخازن ١٦٧/١ .

(٥) لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص٣٣ .

فكأنهم كانوا يتحرجون الدخول من الباب من أجل سقف البيت أن يحول بينهم وبين السماء ويعدون فعلهم ذلك برًا فبين لهم أنه ليس ببر (١).

ولكن البر من اتقى الله بالتزام حدوده وذلك بترك مخالفته والابتعاد عن المحارم والشهوات وبفعل ما أمر به على الوجه المطلوب.

وقد جاء تفصيل ذلك في آية سابقة من سورة البقرة وهي قوله تعالى ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ (٢).

ثم يأمرهم الله عز وجل بأن يأتوا البيوت من أبوابها إذ ليس في العدول عن هذه الحالة بر ولكن البر كما أخبر سبحانه وتعالى هو التقوى.

ثم يختم الحق تبارك وتعالى الآية الكريمة بالأمر بالتقوى لما لها من شأن عظيم ومكانة كبيرة حيث قال ﷻ: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾

والمعنى: اتقوا الله في جميع أحوالكم لكي تفوزوا بما تطلبون. فعلق الفلاح على التقوى.

يقول العلامة أبو حيان (٣) في البحر: "قوله تعالى ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ ظاهره التعلق بالجملة الأخيرة وهي قوله ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ لأن تقوى الله هي جماع الخير من امتثال الأوامر واجتناب النواهي فعلق التقوى برجاء الفلاح، وهو الظفر بالبغية" (٤).

---

(١) روح المعاني للآلوسي ٢/ ٧٣، ٧٤ بتصرف.

(٢) سورة البقرة / ١٧٧.

(٣) هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي الأندلسي، أثير الدين أبو حيان: أديب لغوي مفسر محدث مقرئ مؤرخ، صاحب التفاسير الكثيرة الواسعة من تصانيفه: "البحر المحيط" في تفسير القرآن الكريم، توفي سنة ٧٤٥ هـ. الأعلام للزركلي ٧/ ١٥٢، ومعجم المؤلفين لرضا كحالة ١٢/ ١٣٠.

(٤) البحر المحيط ٢/ ٧٢.

ومعنى ذلك أن التقوى متعلقة بالفلاح، والفلاح معلق على التقوى.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ وما كان مثله فيما ورد في كلام الله تعالى من قوله "لعلكم تتقون"، و"لعلكم تعقلون"، و"لعلكم تشكرون"، و"لعلكم تذكرون" فيه إشكال مفاده: أن كلمة لعل للترجي والإشفاق، والرجاء هو الإخبار عن تهيئ وقوع أمر في المستقبل وقوعًا مؤكدًا فتبين أن لعل حرف مدلوله خبري لأنها إخبار عن تأكد حصول الشيء، ومعناها مركب من رجاء المتكلم في المخاطب وهو معنى جزئي حرفي، وقد شاع عند المفسرين وأهل العلوم الحيرة في محمل لعل الواقعة من كلام الله تعالى لأن معنى الترجي يقتضي عدم الجزم بوقوع المرجو عند المتكلم فللشك جانب في معناها حتى قيل: "لعل كلمة شك"، والترجي لا يحصل إلا عند الجهل بالعاقبة، وهذا لا يناسب علم الله تعالى بأحوال الأشياء قبل وقوعها، ولأنها قد وردت في أخبارٍ مع عدم حصول المرجو كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [1] مع أنهم لم يتذكروا كما بينت الآيات من بعد.

ولهم في تأويل (لعل) الواقعة في كلام الله تعالى وجوه:

الأول: أن لعل على بابها من الترجي، والترجي إنما هو في حيز البشر؛ فكأنه قيل لهم: افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع أن تفلحوا وأن تتقوا وأن تعقلوا كما في قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [2] أي اذهبا أنتما على رجائكما وطمعكما في إيمانه، ثم الله تعالى عالم بما يؤول إليه أمره.

الثاني: أنها للتعليل بمعنى كي، فالعرب استعملت لعل مجردة من الشك بمعنى كي والمعنى لتفلحوا ولتتقوا ولتعقلوا.

الثالث: أن لعل للإطماع تقول للقاصد لعلك تنال بغيتك، وقد جاءت على سبيل الإطماع في مواضع من القرآن الكريم.

الرابع: أن لعل بمعنى التعرض للشيء، كأنه قيل افعلوا ذلك متعرضين لأن تفلحوا، أو لأن تتقوا، أو لأن تعقلوا، وهذا من قول العرب [3].

---

(١) سورة الأعراف / الآية ١٣٠ .

(٢) سورة طه / الآية ٤٤ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/٢٢٦، ٢٢٧ ، والتفسير الكبير للفخر الرازي ١/١٠٩، ١١٠، والتحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ١/١٢٩، ١٣٠ . عند تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ سورة البقرة / الآية ٢١ .

التعليق على المبدأ القرآني:

و"البر هو التقوى" مبدأ عام من مبادئ القرآن الكريم حيث إن الله سبحانه وتعالى جعل البر هو التقوى وليس شيئًا آخر فليس الإتيان بعبادة على شكل معين كما كانت عادتهم في الجاهلية هو البر بل البر في نظر القرآن الكريم هو التقوى.

يقول الأستاذ سيد قطب: "وسواء كانت هذه عادتهم في السفر بصفة عامة، أو في الحج بصفة خاصة وهو الأظهر في السياق فقد كانوا يعتقدون أن هذا هو البر - أي الخير أو الإيمان - فجاء القرآن ليبطل هذا التصور الباطل، وهذا العمل المتكلف الذي لا يستند إلى أصل، ولا يؤدي إلى شيء وجاء يصحح التصور الإيماني للبر.. فالبر هو التقوى.

هو الشعور بالله ورقابته في السر والعلن. وليس شكلية من الشكليات التي لا ترمز إلى شيء من حقيقة الإيمان. ولا تعني أكثر من عادة جاهلية" (١).

ويقول الأستاذ محمد عزة دروزة معلقًا على قوله تعالى ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾: "وهكذا يكون قد انطوى في هذا الشطر وهو يلغي هذا التقليد حكمة تشريعية من جهة، وتلقين جليل مستمر المدى بأن الجوهري والبر الحقيقي عند الله هو تقواه والتزام حدوده دون الأشكال والأعراض والمظاهر" (٢).

أقول: والتلقين الجليل المستمر المدى في كلام الأستاذ السابق هو نفسه المبدأ القرآني العام الذي أشير إليه ألا وهو البر هو التقوى.

***

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٨٤ .

(٢) التفسير الحديث ٧/ ٢٩٣ ط: دار إحياء الكتب العربية.

المبدأ الخامس: الفتنة أشد من القتل

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾(١) .

المعنى الإجمالي:

واقتلوا أولئك المشركين (٢) الذين بدأوكم بالقتال حيث وجدتموهم، وأخرجوهم من مكة المكان الذي أخرجوكم منه، والفتنة – وهي فتنة المسلمين عن دينهم وإجبارهم على الرجوع عنه إلى الكفر – أشد من قتلكم إياهم، وفي هذا إذن للمؤمنين بقتل أولئك المشركين أينما وجدوا ومتى وجدوا، إلا أن الآية الكريمة قد استثنت من ذلك الحرم فنهت عن البدء بقتال المشركين عند المسجد الحرام مراعاة لحرمته حتى يبدءوا هم بالقتال، فإن هم فعلوا كان جزاؤهم القتل جزاء عادلًا، ومثل هذا يجازى الكافرون.

التفسير:

جاءت هذه الآية الكريمة في سياق الآيات التي تتحدث عن القتال ومشروعيته، وتوضح وضع الجماعة المسلمة في المدينة مع مشركي مكة الذين اخرجوا المؤمنين من ديارهم، وآذوهم في دينهم، وفتنوهم في عقيدتهم، وهي - مع هذا - تمثل قاعدة أحكام الجهاد في الإسلام (٣).

فالآية التي سبقتها جاء فيها الإذن للنبي ﷺ والمسلمين في قتال الذين يقاتلونهم وهو إذن في قتال الدفاع لدفع هجوم العدو، ثم جاءت هذه الآية مكملة لها فقال تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾

والمعنى: واقتلوا أولئك الذين بدءوكم بالقتال حيث وجدتموهم ولقيتموهم.

---

(١) سورة البقرة / الآية ١٩١ .

(٢) المشار إليهم في الآية السابقة وهي قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ الآية رقم ١٩٠ من سورة البقرة .

(٣) في ظلال القرآن ١/١٨٧ بتصرف .

يقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور: "وهذا أمر بقتال من يعثر عليه منهم وإن لم يكن في ساحة القتال، فإنه بعد أن أمرهم بقتال من يقاتلهم عمم المواقع والبقاع زيادة في أحوال القتل، وتصريحًا بتعميم الأماكن فإن أهمية ذلك الغرض تبعث على عدم الاكتفاء باقتضاء عموم الأشخاص تعميم الأمكنة، ليكون المسلمون مأذونين بذلك فكل مكان يحل فيه العدو فهو موقع قتال، ولذلك قال هنا ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾ ولم يقل وقاتلوهم مثل الآية قبلها تنبيهًا على قتل المحارب ولو كان وقت العثور عليه غير مباشر للقتال" (١).

وقوله تبارك وتعالى في الآية الكريمة ﴿وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ﴾ أمر معطوف على سابقه أي افعلوا ما تيسر لكم من هذين الأمرين في حق المشركين.

والمراد من النص: أي يحل لكم حينئذٍ أن تخرجوهم من مكة التي أخرجوكم منها، وهذا تهديد للمشركين، ووعد للمؤمنين بفتح مكة.

وللعلماء المفسرين آراء عديدة في المراد بالفتنة في الآية الكريمة جمعها الإمام الشوكاني في تفسيره حيث قال: "قوله ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾ أي الفتنة التي أرادوا أن يفتنوكم، وهي رجوعكم إلى الكفر أشد من القتل، وقيل المراد بالفتنة المحنة التي تنزل بالإنسان في نفسه أو أهله أو ماله أو عرضه، وقيل إن المراد بالفتنة الشرك الذي عليه المشركون، لأنهم كانوا يستعظمون القتل في الحرم، فأخبرهم الله أن الشرك الذي هم عليه أشد مما يستعظمونه، وقيل المراد فتنتهم إياكم بصدكم عن المسجد الحرام أشد من قتلكم إياهم في الحرم أو من قتلهم إياكم إن قتلوكم. والظاهر أن المراد الفتنة في الدين بأي سبب كان وعلى أي صورة اتفقت. فإنها أشد من القتل" (٢).

وأرى أن المراد بالفتنة هنا هي الفتنة في الدين والرجوع إلى الكفر، ويكون المعنى: إن إجبار المسلمين على الرجوع عن دينهم أشد من القتل، ومما يؤيد ذلك أيضًا ما ذكره الأستاذ محمد عزة دروزة في تفسيره حيث قال: "ومن الجدير بالذكر أن كلمة (الفتنة) واشتقاقاتها قد تكررت في القرآن بمعانٍ عديدة غير أنه لم تأت بمعنى الشرك صراحة أو دلالة واضحة. وقد جاءت بخاصة بمعنى

(١) التحرير والتنوير ٢/٢٠١، ٢٠٢ بتصرف .

(٢) فتح القدير ١/١٩١ .

إجبار المسلمين على الارتداد عن دينهم مثل آية البروج هذه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾ (١)، وآية سورة النحل هذه ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ (٢) ، وهذا المعنى هو المقصود فيما نعتقد في الآيات وبه يتضح معنى الجملة ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ أي أن إجبار المسلمين على الارتداد عن دينه أشد نكاية من القتل والقتال وأكثر تبريرًا للقتال" (٣) .

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ معطوف على قوله ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ الذي أفادت الأمر بتتبع المقاتلين بالتقتيل حيثما حلوا سواء كانوا مشتبكين بقتال المسلمين، أو كانوا في حالة تنقل أو تطلع أو نحو ذلك لأن أحوال المحارب لا تنضبط وليست في الوقت سعة للنظر في نواياه والتوسم في أغراضه لأنه قد يبادر إلى اغتيال عدوه في لحظة تردده وتفكره، فجاءت هذه الجملة لتخص المكان الذي عند المسجد الحرام من عموم الأمكنة التي شملها قوله ﴿ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ أي إن ثقفتموهم عند المسجد الحرام غير مشتبكين في قتال معكم فلا تقتلوهم وذلك لحرمة المسجد الحرام التي جعلها الله له بقوله ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ (٤) فدلت الآية بمنطوقها على منع المسلمين من قتال المشركين عند المسجد الحرام ودلت بمفهومها على منع قتل المشركين دون قتال عند المسجد الحرام.

وجعلت غاية النهي قوله ﴿ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ﴾ أي فإن قاتلوكم عند المسجد الحرام فاقتلوهم عنده لأنهم خرقوا حرمته فلو ترك معاملتهم بالمثل لكان ذلك ذريعة إلى هزيمة المسلمين (٥).

---

(١) الآية ١٠ .

(٢) الآية ١١٠ .

(٣) التفسير الحديث ٢٩٩/٧ ط: دار إحياء الكتب العربية.

(٤) سورة آل عمران / الآية ٩٧ .

(٥) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٢٠٣/٢ بتصرف .

والإشارة في قوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١﴾ إلى القتل المأخوذ من قوله ﴿فَٱقۡتُلُوهُمۡۚ﴾ أي كذلك القتل جزاؤهم.

ووضع سبحانه وتعالى لفظ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١﴾ الظاهر موضع المضمر إما نعيًا عليهم بالكفر، أو المراد منه الجنس ويدخل المذكورون فيه دخولًا أوليًا (١) .

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة تضمنت مبدًا عامًا من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو " الفتنة أشد من القتل " ولم لا ؟ والفتنة في الدين وإكراه المسلم على الرجوع عن دينه أشد إيلامًا من الإيلام الحسي من الضرب والتعذيب بل والقتل لأنه إيلام حسي وفيه إكراه للنفس على ترك أمر اهتدت إليه وارتضت به لما رأت فيه من خير ورشاد وصلاح في الآجل والعاجل، فمن هنا كانت الفتنة أشد من القتل، وقد ورد هذا المبدأ في موضع آخر بلفظ ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾ (٢) .

يقول الأستاذ سيد قطب: "إن الفتنة في الدين اعتداء على أقدس ما في الحياة الإنسانية. ومن ثم فهي أشد من القتل. أشد من قتل النفس وإزهاق الروح وإعدام الحياة ...وهذه النظرة الإسلامية لحرية العقيدة، وإعطاؤها هذه القيمة الكبرى في حياة البشرية هي التي تتفق مع طبيعة الإسلام ونظرته إلى غاية الوجود الإنساني. فغاية الوجود الإنساني هي العبادة (ويدخل في نطاقها كل نشاط خير يتجه به صاحبه إلى الله).

وأكرم ما في الإنسان حرمة الاعتقاد. فالذي يسلبه هذه الحرية، ويفتنه عن دينه فتنة مباشرة أو بواسطة، يجني عليه ما لا يجني عليه قاتل حياته"

ثم يُعقِّب على تكرار الفتنة في قوله تعالى ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ (٣): "وهذا التكرار في الحديث عن منع الفتنة بعد تفظيعها واعتبارها أشد من القتل.. هذا التكرار يوحي بأهمية الأمر في اعتبار الإسلام، وينشئ مبدأ عظيمًا يعني في حقيقته ميلادًا جديدًا للإنسان على يد الإسلام. ميلادًا

---

(١) روح المعاني للآلوسي ٢/ ٧٦ .

(٢) سورة البقرة / الآية ٢١٧ .

(٣) سورة البقرة / الآية ١٩٣ .

تتقرر فيه قيمة الإنسان بقيمة عقيدته، وتوضع حياته في كفة وعقيدته في كفة فترجح كفة العقيدة"[١].

ومن كلام الأستاذ السابق يتضح لنا أن الآية الكريمة قد أنشأت مبدأ جديدًا في حياة الإنسانية.

وقد أشار الأستاذ محمد عزة دروزة إلى هذا المبدأ في تفسيره وهو يتحدث عن هذه الآية الكريمة والآيات السابقة واللاحقة حيث قال: "ومهما يكن من أمر فإن فحوى الآيات وروحها يلهمان أنها أولى الآيات في أمر المسلمين بالقتال في سبيل الله ودينه. وقد ذاحتوت قواعد تشريعية خطيرة في هذا الباب غدت روح المبادئ الجهادية الإسلامية وضابطها ...

ثم ذكر من هذه المبادئ: اعتبار فتنة الكفار للمسلمين عن دينهم وأذيتهم وتعطيل الدعوة الإسلامية وحريتها سببًا مبررًا لقتال كل من يقف كل هذه المواقف حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله...

ثم يختم الأستاذ كلامه قائلًا: "وإنها لمبادئ في غاية الحق والعدل والاتساق مع طبائع الأمور تظل بها الشريعة الإسلامية متلألئة العزة أبد الدهر ومترشحة للخلود. وفيها رد على كل من حاول أو يحاول أن يلصق بها ما هي براء منه في صدد الجهاد مثل الإكراه في الدين والقتال بدءًا أو عدوانًا لحمل الناس على الإسلام" [٢].

ومن النقل السابق للشيخ دروزة نجد أنه يوضح أن هذه الآيات وما تضمنته يعتبر روح المبادئ الجهادية الإسلامية، وأن من هذه المبادئ مبدأ "الفتنة أشد من القتل" وهذا ما أريد أن أبينه وأوضحه.

***

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٨٩، ١٩٠ بتصرف .

(٢) التفسير الحديث ٧/ ٢٩٥، ٢٩٦ بتصرف ط: دار إحياء الكتب العربية.

المبدأ السادس: الحرمات قصاص

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾ (١).

المعنى الإجمالي:

إن استحل المشركون قتالكم أيها المؤمنون في الشهر الذي حرم الله تعالى فيه القتال، فقاتلوهم أنتم أيضًا على سبيل القصاص والمجازاة بالمثل؛ لأن الحرمات قصاص، والذي يعتدي عليكم يكون عقابه بمثل فعله، وجزاؤه من جنس عمله، ولا حرج عليكم في ذلك؛ لأنه هو الذي بدأ بالعدوان، وعليكم بخشية الله وكونوا وقَّافين عند حدوده فلا تسرفوا في العقوبة، واعلموا أن الله مع المتقين – الذين يمتثلون أوامره ويجتنبون نواهيه – بالحفظ والنصر والتأييد والرعاية والتوفيق.

التفسير:

هذه الآية الكريمة جملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا، فإنه تعالى لما بين تعميم الأمكنة في قوله ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ (٢) وأخرج منها المسجد الحرام إلا في حالة قيامهم ببدء القتال في قوله ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾ (٣) فكأن سائلًا يتساءل عما يماثل البقاع الحرام وهي الأزمنة الحرام أعني الأشهر الحرم التي يتوقع حظر القتال فيها فجاءت هذه الآية الكريمة ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾... أي إن استحلوا قتالكم في الشهر الحرام فقاتلوهم فقد أباح الله لكم قتال المدافعة.

يقول الله تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ﴾ وسبب نزول هذه الآية ما أخرجه ابن جرير (٤) عن قتادة قال: "أقبل نبي الله ﷺ وأصحابه معتمرين في ذي القعدة ومعهم الهدي، حتى

---

(١) سورة البقرة / الآية ١٩٤.

(٢) سورة البقرة / الآية ١٩١.

(٣) سورة البقرة / الآية ١٩١.

(٤) هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر: مفسر مقرئ محدث مؤرخ، وفقيه أصولي، كان مجتهدًا في أحكام الدين لا يقلد أحدًا، ولد في آمل طبرستان، واستوطن بغداد وتوفي بها. وعرض عليه القضاء فامتنع، والمظالم

إذا كانوا بالحديبية صدهم المشركون، وصالحهم النبي ﷺ على أن يرجع من عامه ذلك ثم يرجع من العام المقبل فلما كان العام المقبل أقبل وأصحابه حتى دخلوا مكة معتمرين في ذي القعدة، فأقام بها ثلاث ليال وكان المشركون قد فخروا عليه حين ردوه فأقصه الله منهم، فأدخله مكة في ذلك الشهر الذي كانوا ردوه فيه. فأنزل الله ﴿ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ ﴾ ..... الآية [(١)] .

والمعنى: إذا قاتلوكم في الشهر الحرام وهتكوا حرمته فاقتلوهم في الشهر الحرام مجازة لهم على فعلهم.

والأظهر في التعريف في الشهر هنا في الموضعين أن يكون تعريف الجنس لأنه يفيد حكمًا عامًا يشمل كل شهر من الأشهر الحرم، وأما قوله تعالى ﴿ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ ﴾ فهو تعميم للحكم السابق ولذلك عطفه ليكون كالحجة لما قبله من قوله تعالى ﴿ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِ ﴾ وقوله ﴿ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ ﴾ [(٢)].

ومعنى ذلك أن قوله تعالى ﴿ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ ﴾ علة لما قبله كأنه قيل كيف نقاتل في الشهر الحرام؟ فكان الجواب: الحرمات قصاص، والحرمات جمع حرمة وهي: ما منعت من انتهاكه وهو لفظ عام جاء بصيغة الجمع ليشمل حرمة الشهر الحرام، وحرمة البلد الحرام، وحرمة الإحرام فمن انتهك حرمة ذلك أو شيء منه فقاتلوه فإنه قصاص، والقصاص: المساواة والمماثلة.

ثم يأمر الحق تبارك وتعالى المؤمنين بمقابلة الاعتداء بمثله من غير تجاوز أو مغالاة فيقول: ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾ وهذا أمر بالعدل حتى في المشركين، وهذا من عظمة هذا الدين، وإنما سمي جزاء الاعتداء اعتداء على سبيل المشاكلة.

فأبى. له "أخبار الرسل والملوك" يعرف بتاريخ الطبري، و"جامع البيان في تفسير القرآن" وهو من ثقات المؤرخين، قال ابن الأثير: أبو جعفر أوثق من نقل التاريخ. توفي سنة ٣١٠هـ . الأعلام للزركلي ٦٩/٦، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ١٤٧/٩ .

(١) جامع البيان ١١٤/٢، ١١٥ ، ولباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ٣٤، ٣٥ .

(٢) التحرير والتنوير ٢١١/٢ بتصرف .

ثـم يختـم الحـق تبـارك وتعـالى الآيـة الكريمـة بـأمرهم بملازمـة التقـوى حيـث يقـول: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾

والمعنى: واتقوا الله في الاعتداء فلا تتجاوزوا الحد المرخص لكم.

وعن أمرهم بالاتقاء في هذا المقام يقول العلامة محمد طاهر بن عاشور: "لأن شأن المنتقم أن يكون عن غضب فهو مظنة الإفراط لذلك أمرهم بالتزام التقوى" (١).

وقوله ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾

لفظ [اعلم] من الألفاظ التي تنبئ عن أهمية ما سيأتي بعدها، والمعنى: أن الله مع المتقين بالنصر والمعونة والتأييد في الدنيا والآخرة.

التعليق على المبدأ القرآني:

وهـذه الآيـة الكريمـة قـد تـضمنت مبـدأ عامًـا مـن مبـادئ القـرآن الكـريم ألا وهـو "الحرمـات قصاص".

فالحق سبحانه وتعالى أباح لنا أن نقتص من الذي ينتهك حرماتنا بمثل ما اعتدى جزاء له على فعله.

والحرمات كما قلنا لفظ عام شامل، فهو يشمل جميع الحرمات سواء حرمة الأزمنة، أو حرمة الأمكنة، أو حرمة الناس وأموالهم وأعراضهم وهي أشد حرمة.

يقول الشيخ رشيد رضا (٢) بعد ذكره لسبب نزول الآية الكريمة: " ثم بين الحق سبحانه وتعالى قاعدة عظيمة معقولة وهي أن الحرمات - أي ما يجب احترامه والمحافظة عليه - يجب أن يجري فيه

---

(١) المرجع السابق ٢/٢١١ .

(٢) هو محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب: صاحب مجلة "المنار" وأحد رجال الإصلاح الإسلامي. ومن الكتاب، العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير. ولد ونشأ في القلمون (من أعمال طرابلس الشام) رحل إلى مصر سنة ١٣١٥هـ فلازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ له. ثم أصدر مجلة المنار، رحل إلى الهند والحجاز وأوروبا. وعاد، فاستقر بمصر إلى أن توفي بها سنة ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م.من أشهر آثاره: مجلة المنار، الوحي المحمدي، شبهات النصارى وحجج الإسلام، تفسير القرآن الكريم (اثنا عشر جزءًا فقط). الأعلام للزركلي ٦/١٢٦ .

القصاص والمساواة فقال ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ﴾ ذكر هذه القاعدة حجة لوجوب مقاصة المشركين على انتهاك حرمة الشهر الحرام بمقابلتهم بالمثل، ليكون شهرًا بشهر جزاءً وفاقًا. وفي جملة من الإيجاز ما ترى حسنه وإبداعه" (١).

وهذا المبدأ لو طبق لرأى الناس ما فيه من منافع؛ لأنه ينشر الأمن والأمان بينهم، فهو يصون دماءهم وأعراضهم، ويحفظ أموالهم وحرماتهم، فالذي يريد أن يسلب منا الأمن والأمان يحرم هو منه لأنه ينتهك الحرمات. والذي ينتهك الحرمات لا تصان له حرمه، فالحرمات قصاص. فلو علم الذي يريد أن يقدم على انتهاك حرمة من حرمات المسلمين ما سيلاقيه من جزاء وعقاب على فعله ما أقدم على ذلك.

ومما سبق يتضح لنا أن "الحرمات قصاص" من المبادئ العامة العظيمة التي نص عليها القرآن الكريم.

***

(١) تفسير المنار ٢/١٧١ .

المبدأ السابع: وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١).

المعنى الإجمالي:

فرض الله عليكم – أيها المسلمون – قتال أعدائكم، وهذا القتال مكروه لكم كراهية طبعية لما فيه من مشقة، ولكن كون القتال مكروهًا للنفس لا ينافي الرضا والتسليم؛ لأن امتثال الأمر قد يتضمن مشقة، فإذا عرف الثواب هانت المشقة؛ ولأن الإنسان قاصر عن إدراك ما فيه نفع له أو ما فيه ضر له، فقد يكره شيئًا يكون هو الخير بعينه، وقد يحب شيئًا يكون هو الشر بعينه، والله يعلم ما فيه مصلحتكم، وأنتم لا تعلمون؛ لجهلكم بعواقب الأمور، فبادروا بالامتثال إلى أوامر خالقكم.

التفسير:

هذه الآية الكريمة نص صريح في فرض الجهاد على المسلمين، وإن كانت بدون حدود أو شروط، فإن هذا لا يعني أن على المسلمين القتال بدون ذلك، لأن هناك آيات أخرى كثيرة قد وضعت الضوابط والحدود والشروط للقتال.

يقول الله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ ﴾: لفظ [كتب] يقتضي الوجوب، وقوله [عليكم] يقتضيه أيضًا (٢).

و[أل] في القتال للجنس، ولا يكون القتال إلا للأعداء فهو عام عمومًا عرفيًا، أي كتب عليكم قتال عدو الدين (٣).

والمراد أن الله قد فرض على المسلمين قتال أعدائهم.

ومعنى قوله تبارك وتعالى ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾: أي القتال، فإنه شاق على النفس لما فيه من القتل والأسر وإفناء البدن وتلف المال وتلك الكراهية لا تنافي الرضا بالتكليف، كالمريض الذي يشرب الدواء وهو كاره له لما فيه من مصلحة ومنفعة من جهة أخرى (٤).

---

(١) سورة البقرة / الآية ٢١٦ .

(٢) التفسير الكبير ٦/٢٧ .

(٣) التحرير والتنوير ٢/٣١٩ .

(٤)روح المعاني للآلوسي ٢/١٠٦ .

يقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور: "ومعلوم أن كراهية الطبع الفعل لا تنافي تلاقي التكليف به برضا لأن أكثر التكليف لا يخلو من مشقة" (١).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ ﴾ كالتعليل لما قبله: أي أن الله تعالى كتب عليكم القتال وهو كره لكم، لكن هناك أشياء تكرهونها وهي خير لكم وهناك أشياء تحبونها وهي شر لكم، فهذه الجملة وإن كانت خاصة بتعليل فرضية القتال إلا أنها عامة في أمور كثيرة، فالنفس قد تكره شيئًا مع أن فيه بقاءها وصلاحها وقد تحب شيئًا مع أن فيه هلاكها وفسادها.

وقوله سبحانه وتعالى ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ ﴾ تذييل احتيج إليه لدفع الاستغراب الناشئ عن قوله ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ ﴾ لأنه إذا كان مكروهًا فكان شأن رحمة الله بخلقه ألا يكتبه عليهم فذيل بهذا لدفع ذلك، وهذا الكلام تلطف من الله تعالى لرسوله والمؤمنين، وإن كان سبحانه غنيًا عن البيان والتعليل، لأنه يأمر فيطاع. ولكن في بيان الحكمة تخفيفًا من مشقة التكليف، وفيه تعويد المسلمين بتلقي الشريعة معللة مذللة وأشار إلى أن حكمة التكليف تعتمد المصالح ودرء المفاسد، ولا تعتمد ملاءمة الطبع ومنافرته، إذ يكره الطبع شيئًا وفيه نفعه وقد يحب شيئًا وفيه هلاكه، وذلك باعتبار العواقب والغايات، فإن الشيء قد يكون لذيذًا ملائمًا ولكن ارتكابه يفضي إلى الهلاك، وقد يكون كريهًا منافرًا وفي ارتكابه صلاح (٢).

وإضافة إلى ما سبق يقول العلامة الآلوسي: "قوله تعالى ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ وهو جميع ما كلفوا به، فإن الطبع يكرهه وهو مناط صلاحهم، ومنه القتال فإن فيه الظفر والغنيمة والشهادة التي هي السبب الأعظم للفوز بغاية الكرامة، ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ ﴾ وهو جميع ما نهى عنه فإن النفس تحبه وتهواه وهو يفضي بها إلى الردى، ومن ذلك ترك قتال الأعداء فإن فيه الذل وضعف الأمر وسبي الذراري ونهب الأموال وملك البلاد وحرمان الحظ الأوفر من النعيم الدائم" (٣).

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٣٢١.

(٢) المرجع السابق ٢/٣٢١، ٣٢٢ .

(٣) روح المعاني ٢/١٠٦، ١٠٧ .

ثم يختم الحق تبارك وتعالى الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾

والمعنى: والله يعلم ما فيه خير لكم فيأمركم به، وما فيه شر لكم فينهاكم عنه؛ لأن الله يعلم الأشياء على ما هي عليه لأنه الخالق، وأنتم لا تعلمون ذلك؛ لأن الناس عقولهم قاصرة يشتبه عليهم فيظنون الملائم للطبع نافعًا والمنافر له ضارًا فبادروا بفعل ما أمركم الله به؛ لأنه لا يأمركم إلا بما فيه خير لكم، وانتهوا عما نهاكم عنه؛ لأنه لا ينهاكم إلا عما فيه شر لكم (١).

والمراد من ذلك تعليم المسلمين أن يتلقوا أمر الله باعتقاد أنه الصلاح والخير.

والمقصود من قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ الترغيب العظيم في الجهاد وذلك لأن الإنسان إذا اعتقد قصور علم نفسه، وكمال علم الله تعالى، ثم علم أنه سبحانه لا يأمر العبد إلا بما فيه خيرته ومصلحته، علم قطعًا أن الذي أمره الله تعالى به وجب عليه امتثاله، سواء كان مكروهًا للطبع أو لم يكن فكأنه تعالى قال: يا أيها العبد اعلم أن علمي أكمل من علمك فكن مشتغلًا بطاعتي ولا تلتفت إلى مقتضى طبعك (٢).

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة تضمنت مبدًا عامًا من مبادئ القرآن الكريم، وأصلًا مهما من أصول التربية ألا وهو "وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم"

لأن النفس البشرية بفطرتها تحب من الأشياء ما كان ملائمًا لطبعها وإن كان فيه شر وهلاك، وتكره من الأشياء ما كان منافرًا لطبعها وإن كان فيه خير وبقاء، وذلك لأنها لا تنظر إلى العواقب والغايات، فالإنسان قد يبتلى بشيء مكروه أو بحرمان من شيء محبوب فيسخط مع أن هذا الابتلاء قد يكون خيرًا له، لما فيه من الامتحان والاختبار والتمحيص ثم يكون بعد ذلك الجزاء الحسن، ودائمًا يكون اليسر مع العسر والفرج مع الشدة والنصر مع الصبر.

وإذا نظرنا إلى أحوالنا في هذه الحياة وجدنا أننا كثيرًا ما نتلهف للحصول على أمور نحبها، ثم يتبين لنا فيما بعد أن فواتها كان محض الخير والفائدة لنا، وكثيرًا ما نتلهف للبعد عن أمور نكرهها، ثم يتبين لنا فيما بعد أن فواتها كان محض الشر والخسارة لنا.

---

(١) المرجع السابق ٢/١٠٧ بتصرف.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ٦/٣٠.

"والناظر في القرآن الكريم يجده يقرر أن من الفرائض ما هو شاق مرير كريه المذاق، ولكن وراءه حكمة تهون مشقته، وتسيغ مرارته، وتحقق به خيرًا مخبوءًا قد لا يراه النظر الإنساني القصير.. عندئذ يفتح للنفس البشرية نافذة جديدة تطل منها على الأمر؛ ويكشف لها عن زاوية أخرى غير التي تراه منها. نافذة تهب منها ريح رخية عندما تحيط الكروب بالنفس وتشق عليها الأمور.. إنه من يدري فلعل وراء المكروه خيرًا. ووراء المحبوب شرًا. إن العليم بالغايات البعيدة، المطلع على العواقب المستورة، هو الذي يعلم وحده. حيث لا يعلم الناس شيئًا من الحقيقة.

إنه منهج في التربية عجيب. منهج عميق بسيط. منهج يعرف طريقه إلى مسارب النفس الإنسانية وحناياها ودروبها الكثيرة.

إن هذا الإيحاء الذي يحمله النص القرآني، لا يقف عند حد القتال، فالقتال ليس إلا مثلًا لما تكرهه النفس، ويكون من ورائه الخير.. إن هذا الإيحاء ينطلق في حياة المؤمن كلها. ويلقي ظلاله على أحداث الحياة جميعها.. إن الإنسان لا يدري أين يكون الخير وأين يكون الشر" (١).

وهذا الإيحاء المشار إليه سابقًا هو المبدأ القرآني العام الذي أردت توضيحه.

ويقول الأستاذ محمد عزة دروزة: "وأسلوب الآية ينطوي على علاج نفساني قوي وتلقينات جليلة في صدد فرض القتال. فالقتال مما تستثقله النفوس عادة ولكنه ضرورة لا مناص منها في مثل حدوده وشروطه الإسلامية وفيه الخير العميم في مختلف النواحي" (٢).

وهذا العلاج النفساني القوي، والتلقينات الجليلة التي جاء ذكرها في صدد فرض القتال، هو ما سميته بالمبدأ القرآني العام؛ لأن أسلوب الآية عام في شتى نواحي الحياة.

***

(١) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ١/ ٢٢٣، ٢٢٤ بتصرف .

(٢) التفسير الحديث ٧/ ٣٢٨ ط: دار إحياء الكتب العربية .

المبدأ الثامن: لا إكراه في الدين

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ (١).

المعنى الإجمالي:

إذا كان شأن الدين عند من أنزله سبحانه وتعالى: أنه لا إكراه فيه، فلا تكرهوا عليه أحدًا؛ لأن الإيمان قد تميّز من الكفر بالآيات الكثيرة الواضحة، فمن كفر بكل ما عُبد سوى الله، وآمن بالله إيمانًا صادقًا، فقد استمسك من الدين بأقوى سبب محكم لا انقطاع له، واستقام على الطريقة المثلى، والله سميع للأقوال الظاهرة، عليم بالنيات الباطنة، وسوف يجازي على ذلك.

التفسير:

جاءت هذه الآية الكريمة بعد آيات كثيرة تحدثت عن القتال في هذه السورة، فقد يُظن أن القتال لأجل إكراه أحد على الدخول في الإسلام فبين سبحانه في هذه الآية أنه لا إكراه في الدين. كما أن موقع هذه الآية الكريمة بعد آية الكرسي له دلالة خاصة إذ إن ما اشتملت عليه آية الكرسي من دلائل الوحدانية وعظمة الخالق من شأنه أن يسوق ذوي العقول إلى قبول هذا الدين الواضح العقيدة، المستقيم الشريعة باختيارهم دون جبر ولا إكراه (٢).

حيث لا يتصور الإكراه في الدين، لأن الإكراه في الحقيقة إلزام الغير فعلًا لا يرى فيه خيرًا يحمله عليه، والدين كله خير، وجملة ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ إما أن تكون خبرًا لفظًا ومعنى، ويكون معناها لا يتصور الإكراه في الدين لما فيه من خير في الآجل والعاجل، وإما أن تكون خبرًا لفظًا إنشاءً معنى أي تكون إخبارًا في معنى النهي، ويكون معناها لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام (٣)؛ وذلك لأن دلائله بينة وبراهينه واضحة لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهًا.

(١) سورة البقرة / الآية ٢٥٦ .

(٢) التحرير والتنوير ٣/ ٢٥ بتصرف .

(٣) روح المعاني ٣/ ١٢، ١٣ بتصرف .

وأرى أن التأويل الأول هو الأصح لما فيه من مطابقة لمفهوم المبدأ وهو عدم التكليف مباشرة.

و[أل] في الدين للعهد (١). أي دين الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ واقع موقع العلة لما قبله وهو قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾.

والرَّشَدُ والرُّشْدُ خلاف الغي، يستعمل استعمال الهداية، وقال بعضهم: الرَّشَدُ أخص من الرُّشْد، فإن الرُّشْد يقال في الأمور الدنيوية والأخروية، والرَّشَدُ يقال في الأمور الأخروية لا غير (٢).

والرشد الإيمان والغي الكفر، أي قد تميز الإيمان من الكفر، والحق من الباطل، والهدي من الضلال بكثرة الحجج والبراهين الدالة والآيات الواضحة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ تفريع على قوله ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ إذ لم يبق بعد التفريع إلا الكفر بالطاغوت وفيه بيان لنفي الإكراه في الدين إذ قد تفرع عن تميز الرشد من الغي ظهور أن متبع الإسلام مستمسك بالعروة الوثقى فهو ينساق إليه اختيارًا (٣).

والمراد بالطاغوت قيل الشيطان، وقيل الكاهن، وقيل الساحر، وقيل كل ما عبد من دون الله تعالى، وعن بعضهم الأصنام، والأولى أن يقال بعمومه سائر ما يطغي، ويُجعل الاقتصار على بعض في تلك الأقوال من باب التمثيل.

وعطف قوله تعالى ﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ على الشرط، لأن الكفر بالطاغوت لا مزية فيه إذا لم يكن الإيمان بالله عوض عنه.

والمراد بالإيمان بالله التصديق به تصديقًا موافقًا لما جاء به الرسل الكرام عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

وأصل (استمسك) تمسك، والسين والتاء للتأكيد والمبالغة إذ لا معنى لطلب التمسك بالعروة الوثقى بعد حصول الإيمان.

---

(١) المرجع السابق ٣/١٣ .

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص١٩٦ .

(٣) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٣/٢٨ بتصرف .

فكأنه وهو متلبس به يطلب من نفسه الزيادة فيه والثبات عليه [١].

وجملة ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ جواب الشرط.

والعروة الوثقى قيل هي الإيمان أو القرآن أو كلمة الإخلاص أو الاعتقاد الحق أو السبب الموصل إلى رضا الله أو الإسلام أو لا إله إلا الله.

قال الإمام القرطبي: "وهذه عبارات ترجع إلى معنى واحد" [٢].

ولا مانع من الحمل على الجميع إذ أنها كلها معانٍ محتملة.

ومعنى قوله تعالى ﴿ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ أي لا انقطاع لها.

والاستمساك بالعروة الوثقى من باب التشبيه والتمثيل لما هو معلوم بالدليل بما هو مدرك بالحاسة.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ أي: والله سميع بالأقوال المنطوقة عليم بالعقائد المعتقدة يسمع منطوق الألسنة ويعلم مكنون الأفئدة.

والجملة تذييل حامل على الإيمان رادع عن الكفر والنفاق لما فيها من الوعد والوعيد.

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت مبدًا عامًا من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو "لا إكراه في الدين" وهذا مبدأ عظيم من مبادئ الإسلام حيث يقرر أنه لا إكراه في الدين، فالإسلام يريد مؤمنين حقًا قلبًا وقالبًا، لا منافقين يؤمنون بألسنتهم وتأبى قلوبهم، فعندما جاء الإسلام جاء بالبراهين والآيات الواضحة لكل ذي عقل، وبين للناس ما فيه خير وصلاح لهم في العاجل والآجل ثم بعد ذلك ترك لهم حرية الاعتقاد فقال ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [٣].

يقول الأستاذ سيد قطب: "إن قضية العقيدة .كما جاء بها هذا الدين .قضية اقتناع بعد البيان والإدراك، وليست قضية إكراه وغصب وإجبار.

(١) روح المعاني ١٢/٣ وما بعدها بتصرف .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٨٢/٣ .
(٣) سورة الكهف / الآية ٢٩

فإذا كان هذا الدين لا يواجه الحس البشري بالخارقة المادية القاهرة، فهو من باب أولى لا يواجه بالقوة والإكراه ليعتنق هذا الدين تحت تأثير التهديد أو مزاولة الضغط القاهر بالإكراه بلا بيان ولا إقناع ولا اقتناع.

وقد جاء الإسلام ليعلن .في أول ما يعلن .هذا المبدأ العظيم الكبير:

" لا إكراه في الدين. قد تبين الرشد من الغي "

وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان؛ واحترام إرادته وفكره ومشاعره؛ وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد؛ وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه.. وهذه هي أخص خصائص التحرر الإنساني.

إن حرية الاعتقاد هي أول حقوق "الإنسان" التي يثبت له بها وصف "إنسان". فالذي يسلب إنسانًا حرية الاعتقاد إنما يسلبه إنسانيته ابتداء.

والإسلام .وهو أرقى تصور للوجود وللحياة، وأقوم منهج للمجتمع الإنساني بلا مراء .هو الذي ينادي بأن لا إكراه في الدين. وهو الذي يبين لأصحابه قبل سواهم أنهم ممنوعون من إكراه الناس على هذا الدين " (١).

ومن النقل السابق يتضح لنا أن هذه الآية الكريمة قد تضمنت مبدًا عظيمًا من مبادئ القرآن الكريم هو مبدأ حرية الاعتقاد كما يرى فضيلة الأستاذ سيد قطب.

يقول الأستاذ محمد عزة دروزة معلقًا على هذه الآية الكريمة والتي بعدها: "ويلحظ أن صيغة الآيتين وقوة أسلوبهما تلهمان أنهما أعم معنى وقصدًا من مناسبة فردية. وأنهما تنطويان على تقرير مبدأ عام في صدد الدعوة الإسلامية والحرية الدينية قرره القرآن بأساليب متنوعة ويقرره هنا بقوة ووضوح وصراحة.

والآيتان في حد ذاتهما جملة تامة. وقد احتوت إحداهما بخاصة مبدأ جليلًا من مبادئ القرآن

---

(١) في ظلال القرآن ٢٩١/١ بتصرف.

الأساسية المحكمة وإيراده في القرآن المدني وبخاصة في سياق أمر المؤمنين فيه بالقتال والإنفاق في سبيل الله ذو معنى خاص في صدد توكيد محكمية هذا المبدأ كما هو المتبادر " [١].

ومما سبق يبدو جليًا أن الآية الكريمة قد تضمنت مبدأ قرآنيًا عامًا فيما يتعلق بالحرية الدينية ألا وهو مبدأ "لا إكراه في الدين".

***

(١) التفسير الحديث ٧/ ٣٨٤ بتصرف ط: دار إحياء الكتب العربية.

المبدأ التاسع: لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ (١).

المعنى الإجمالي:

إن دين الله يسر، ومن مظاهر هذا اليسر: أنه سبحانه لا يكلف عباده إلا بما في وسعهم وطاقتهم، وهذا من رحمة الله تعالى بهم، وسوف يحاسبهم على ما قدموه إن خيرًا فخير وإن سوءًا فسوء فجزاء الإحسان إحسان كما أن جزاء السيئة مثلها، ثم يعلم الله سبحانه عباده المؤمنين دعوات يدعونه بها وهي: ربنا لا تعاقبنا بإثم ما يترتب على وقوع الخطأ والنسيان منا؛ لجهلنا وتفريطنا. ربنا ولا تشدد علينا في التكاليف كما شددت على من قبلنا من الأمم السابقة. ربنا ولا تكلفنا ما لا طاقة لنا به من التكاليف الشديدة. واعف عن ذنوبنا بعدم المعاقبة عليها، واستر على ذنوبنا فلا تفضحنا بفضلك، وتفضل علينا برحمتك الواسعة، فإنك أهل العفو والمغفرة والإحسان. ولأنك ولينا وناصرنا فقد دعوناك، فانصرنا على القوم الكافرين واجعل العاقبة لنا عليهم.

التفسير:

هذه الآية الكريمة ختمت بها سورة البقرة، وهي والآية التي قبلها لهما فضل عظيم بينته السنة النبوية (٢).

يقول الأستاذ سيد قطب: "هذا ختام السورة الكبيرة.. في آيتين اثنتين.. ولكنهما تمثلان بذاتهما تلخيصًا وافيًا لأعظم قطاعات السورة. يصلح ختامًا لها. ختامًا متناسقًا مع موضوعاتها وجوها وأهدافها " (٣) وجملة ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ إخبار من الله تعالى لا من كلام الرسول والمؤمنين.

---

(١) سورة البقرة / الآية ٢٨٦ .

(٢)ففي صحيح الإمام البخاري عن أبي مسعود ﷺ قال: قال النبي ﷺ: "**من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه**" كتاب فضائل القرآن باب فضل سورة البقرة ١٨٨/٦ .

(٣) في ظلال القرآن ٣٣٩/١ .

يقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور: "الأظهر أنه من كلام الله تعالى لا من حكاية كلام الرسول والمؤمنين، فيكون اعتراضًا بين الجمل المحكية بالقول. وفائدته إظهار ثمرة الإيمان، والتسليم، والطاعة، فأعلمهم الله بأنه لم يجعل عليهم في هذا الدين التكليف بما فيه مشقة، وهو مع ذلك تبشير باستجابة دعوتهم الملقنة أو التي ألهموها: وهي ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾... إلى آخر الآية الكريمة " (١).

والتكليف: إلزام ما فيه كلفة ومشقة، والوسع: ما تسعه قدرة الإنسان أو ما يسهل عليه من المقدور وهو ما دون مدى طاقته، والمراد: أن من سنته تعالى ألا يكلف نفسًا من النفوس إلا ما تطيق وإلا ما هو دون ذلك كما في سائر ما كلفنا به من الصلاة والصيام وسائر العبادات (٢).

وهذا من لطفه تعالى بخلقه، ورأفته بهم، وإحسانه إليهم.

وعلى كون الجملة من كلام الله تعالى فهي نسخ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣).

وهذا مروي في صحيح الإمام مسلم (٤)، وإطلاق النسخ على هذا اصطلاح للمتقدمين والمراد

---

(١) التحرير والتنوير ٣/ ١٣٤ بتصرف .

(٢) روح المعاني للآلوسي ٣/ ٦٩ بتصرف .

(٣) سورة البقرة / الآية ٢٨٤ .

(٤) عن أبي هريرة قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب، فقالوا أي رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها قال رسول الله ﷺ: **أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**، قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم فأنزل الله في إثرها ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل الله عز وجل ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال نعم ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ قال نعم ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن =

البيان والتخصيص لأن الذي تطمئن له النفس أن هذه الآيات متتابعة النظم، ومع ذلك يجوز أن تكون قد نزلت منجمة، فحدث بين فترة نزولها ما ظنه بعض المسلمين حرجًا [1].

وفي قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ ترغيب وترهيب. أي لها ثواب ما كسبت من الخير، وعليها وزر ما اكتسبت من الشر.

وكسبت واكتسبت بمعنى واحد في كلام العرب خلافًا لمن قال أن كسب للخير فقط، واكتسب للشر فقط حيث قال تعالى في القرآن الكريم ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [2] وقال ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢)﴾، وإنما عبر هنا مرة بـ"كسبت" وأخرى بـ"اكتسبت" تفننًا وكراهية إعادة الكلمة بعينها [3].

يقول الإمام الشوكاني: "وإنما كرر الفعل وخالف بين التصريفين تحسينًا للنظم كما في قوله تعالى ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧)﴾ " [4].

= قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)﴾ قال نعم.

صحيح الإمام مسلم. كتاب الإيمان. باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق. جـ١/صـ١١٥،١١٦ حديث رقم ١٢٥ . ونحوه عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ قال دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء فقال النبي ﷺ **قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا قال فألقى الله الإيمان في قلوبهم** فأنزل الله تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال قد فعلت ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ قال قد فعلت ﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا﴾ قال قد فعلت.

صحيح الإمام مسلم كتاب الإيمان باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق ١١٦/١ حديث رقم ١٢٦ .

* **والإمام مسلم هو:** الإمام الكبير الحافظ المجود الحجة الصادق أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري صاحب الصحيح، قيل: إنه ولد سنة أربع ومائتين وتوفي في شهر رجب سنة إحدى وستين ومائتين بنيسابور عن بضع وخمسين سنة. سير أعلام النبلاء ٥٥٧/١٢: ٥٨٠ .

(١) التحرير والتنوير ١٣٥/٣ بتصرف .

(٢) سورة الأنعام / الآية ١٦٤ .

(٣) التحرير والتنوير ١٣٧/٣، ١٣٨ بتصرف .

(٤) فتح القدير ٣٠٧/١ . والآية رقم ١٧ من سورة الطارق .

وجاءت العبارة في الحسنات بـ"لها" من حيث هي مما يفرح المرء بكسبه ويسر بها، فتضاف إلى ملكه وجاءت في السيئات بـ"عليها" من حيث هي أثقال وأوزار ومتحملات صعبة (١) .

ثم يلقن الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين دعوات لكي يدعوه بها فيقول: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾

والمعنى: ربنا لا تعاقبنا بإثم ما يترتب على وقوع الخطأ والنسيان منا.

وعُطف قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ على الجملة التي قبله، وفصل بينهما بإعادة النداء، وفي تكريره إظهار التذلل ومزيد التضرع.

والمعنى: لا تشدد علينا في التكاليف كما شددت على من قبلنا من اليهود، وذلك أن الله تعالى فرض عليهم خمسين صلاة، وأمرهم بأداء ربع أموالهم في الزكاة، ومن أصاب ثوبه نجاسة أمر بقطعها، وكانوا إذا نسوا شيئًا عجلت لهم العقوبة في الدنيا، وكانوا إذا أتوا بخطيئة حرم عليهم من الطعام ما كان حلالًا لهم (٢).

وعُطف قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ﴾ على الجملة التي قبله، وفصل بينهما بإعادة النداء للنكتة ذاتها.

والمعنى: لا تكلفنا ما لا طاقة لنا به من التكاليف.

قيل: هذا دعاء بمعافاتهم من التكاليف الشديدة، والذي قبله دعاء بمعافاتهم من العقوبات التي عوقبت بها الأمم.

ولم يؤت مع هذه الدعوات ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ﴾ بقوله "ربنا" إما لأنه تكرر ثلاث مرات والعرب تكره تكرير اللفظ أكثر من ثلاث مرات إلا في مقام التهويل، وإما لأن تلك الدعوات المقترنة بقوله "ربنا" فروع لهذه الدعوات الثلاث، فإذا استجيبت تلك حصلت إجابة هذه بالأولى(٣).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٤٣٠، ٤٣١ .
(٢) التفسير الكبير ١٥٨/٧ بتصرف .
(٣) التحرير والتنوير ٣/ ١٤١ .

والعفو إسقاط العقاب وعدم المؤاخذة، والمغفرة ستر الذنوب.

والمعنى: اعف عن ذنوبنا بعدم المؤاخذة عليها بكرمك، واستر على ذنوبنا فلا تفضحنا بفضلك، وتفضل علينا برحمة منك فإنك أهل العفو والمغفرة والإحسان.

ثم يختم الحق تبارك وتعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

وقد فصل سبحانه وتعالى بين الدعوات السابقة وقوله، ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ بقوله ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ لأنه كالعلة للدعوات السابقة أي دعوناك لأنك مولانا.

والمعنى: أنت ولينا وناصرنا فانصرنا على القوم الكافرين الذين جحدوا دينك وأنكروا وحدانيتك ورسالة نبيك، واجعل العاقبة لنا عليهم لإعلاء كلمتك ونشر دينك.

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة تضمنت مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو "لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها".

فقد امتازت الشريعة الإسلامية باليسر والرفق، ومن مظاهر هذا اليسر رفع الحرج عن المكلف وذلك يكون بعدم تكليفه إلا بما في وسعه وطاقته، وهذا من رحمة الله تعالى بنا في التكاليف التي يفرضها علينا والأوامر التي يأمرنا بها.

يقول الأستاذ محمد عزة دروزة معلقًا على الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة: "وقد جاءت الآيتان خاتمة قوية لسورة البقرة التي احتوت أسس الدعوة الإسلامية وأهدافها وكثيرًا من التشريعات والتلقينات والمبادئ التعبدية والاجتماعية والأخلاقية"......

ثم يكمل فيقول: "ولقد احتوت آيات عديدة مكية تقرير كون الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها ولم يجعل الله على المسلمين في الدين من حرج وتقرير كونه قد أباح لهم في وقت الاضطرار والإكراه مما حظره عليهم في الحالات العادية ووعدهم بالنصر على الكافرين ومغفرة مما يقترفونه من خطيئات إذا ما تابوا إليه وأنابوا. ولقد أكدت الآيات المدنية العديدة كل هذا. فالمتبادر أن حكمة التنزيل قد اقتضت بإيحاء هاتين الآيتين ليكون فيهما للمسلمين كل ما تلوهما بشرى وطمأنينة مستمرتان متجددتان" (١).

(١) التفسير الحديث ٧/٤١٥، ٤١٦ بتصرف ط: دار إحياء الكتب العربية.

وفي كلام الأستاذ السابق نرى أنه صرح بأن سورة البقرة قد تضمنت العديد من المبادئ القرآنية، كما أن الآيات المدنية أكدت ما احتوت عليه الآيات المكية من تقريرات، مثل كون الله تعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وكونه تعالى لم يجعل على المسلمين في الدين من حرج، وهذه التقريرات القرآنية هي المبادئ العامة، وهذه الآية الكريمة قد تضمنت أحد هذه المبادئ ألا وهو مبدأ منها ألا وهو "لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها".

* * *

المبدأ العاشر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾(1).

المعنى الإجمالي:

وجدتم – أيها المؤمنون – على هذه الحالة من الأخيرية على جميع الأمم التي أظهرت للناس، وإنما حصلت لكم هذه الأخيرية بحصول أسبابها ووسائلها، وهي: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله. وهذه الخيرية دائمة مادمتم محافظين على أسبابها ووسائلها، ولو آمن أهل الكتاب بالنبي محمد ﷺ وما جاء به من الإسلام لكان خيرًا لهم في الدنيا والآخرة، منهم المؤمنون المصدقون به ﷺ ورسالته، وهم قليل، وأكثرهم الخارجون عن دين الله وطاعته.

التفسير:

سيقت هذه الآية الكريمة لبيان فضل الأمة الإسلامية على غيرها من الأمم، ولتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الاعتصام بالله، والاتفاق على الحق والدعوة إلى الخير.

"فبعدما أمر الله تعالى بالاعتصام بحبله وذكر بنعمته على المؤمنين بتأليف القلوب وأخوة الإسلام، وبعدما نهى عن التفرق في الأهواء والاختلاف في الدين، وتوعد ذلك بالعذاب العظيم، بين فضل المعتصمين بحبله. المتآخيين في دينه. المتحابين فيه، ووصفهم بهذا الوصف الشريف ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ فعلم أن خيرية الأمة وفضلها على غيرها تكون بهذه الأمور: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله" (2).

والخطاب في قوله ﴿كُنتُمۡ﴾ إما لأصحاب الرسول ﷺ ونقل ذلك عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال عمر رضي الله عنه: هذه لأولنا ولا تكون لآخرنا، وإضافة خير إلى أمة

(1) سورة آل عمران / الآية 110 .

(2) تفسير المنار للشيخ رشيد رضا 4/ 47 .

من إضافة الصفة إلى الموصوف أي كنتم أمة خير أمة أخرجت للناس، فالمراد بالأمة الجماعة وأهل العصر النبوي مثل القرن وهو إطلاق مشهور، ولا شك أن الصحابة كانوا أفضل القرون التي ظهرت في العالم لأن رسولهم أفضل الرسل ولأن الهدى الذي كانوا عليه لا يماثله هدى أصحاب الرسل الذين مضوا، فإن أخذت الأمة باعتبار أن الرسول فيها فالصحابة أفضل أمة من الأمم مع رسولها قال النبي ﷺ: "**خير الناس قرني**" (١)والفضل ثابت للمجموع على المجموع، وإن أخذت الأمة من عدا الرسول ﷺ فكذلك الصحابة أفضل الأمم التي مضت بدون رسلها، وهذا تفضيل للهدي الذي اهتدوا به وهو هدي رسولهم محمد ﷺ وشريعته.

وإما أن يكون الخطاب بضمير (كنتم) للمسلمين كلهم في كل جيل ظهروا فيه، ومعنى تفضيلهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع كونه من فروض الكفايات لا تقوم به جميع أفراد الأمة أنه لا يخلو مسلم من القيام بما يستطيع القيام به من هذا الأمر على حسب مبلغ العلم ومنتهى القدرة، أو لأن وجود طوائف القائمين بهذا الأمر في مجموع الأمة أوجب فضيلة لجميع الأمة لكون هذه الطوائف منها كما كانت القبيلة تفتخر بمحامد طوائفها، وفي هذه ضمان من الله تعالى بأن ذلك لا ينقطع من المسلمين إن شاء الله.

والمعنى: وجدتم على حالة الأخيرية على جميع الأمم أي حصلت لكم هذه الأخيرية بحصول أسبابها ووسائلها لأنهم اتصفوا بالإيمان والدعوة للإسلام وإقامته على وجهه والذب عنه النقصان والإضاعة لتحقق أنهم لما جعل ذلك من واجبهم وقد قام كل بما استطاع فقد تحقق منهم القيام به أو قد ظهر منهم العزم على امتثاله كلما سنح سانح يقتضيه (٢).

يقول العلامة الآلوسي: "والظاهر أن الخطاب وإن كان خاصًا بمن شاهد الوحي من المؤمنين أو بعضهم لكن حكمه يصلح أن يكون عامًا للكل كما يشير ذلك قول عمر ﷺ: "يا أيها الناس من سره أن يكون من تلكم الأمة فليؤد شرط الله تعالى منها" وأشار بذلك إلى قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ " (٣).

---

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الشهادات باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد ٣/ ١٧١، والإمام مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة باب فضل الصحابة، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ٤/ ١٩٦٢، ١٩٦٣ حديث رقم ٢٥٣٣ .

(٢) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٤/ ٤٨، ٤٩ بتصرف .

(٣) روح المعاني ٤/ ٢٨ بتصرف .

ومعنى قوله تعالى: ﴿أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ أي أظهرت لهم، والمراد: كنتم خير الأمم المخرجة للناس في جميع العصور والأزمنة.

وقوله تعالى: ﴿تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ مدح لهذه الأمة ما أقاموا على ذلك واتصفوا به. فإذا تركوا التغيير وتواطؤا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذم، وكان ذلك سببًا لهلاكهم (١) .

ولهذا قال مجاهد (٢) : إنهم خير أمة على الشرائط المذكورة في الآية (٣) .

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي تؤمنون بالله تعالى إيمانًا كاملًا صادقًا، والإيمان بالله على هذا النحو لا يكون إلا إذا استوعب صاحبه جميع ما يجب الإيمان به، فلو أخل بشيء لم يؤمن بالله تعالى إيمانًا كاملًا، وإنما قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله لأنهما أظهر في بيان فضل المسلمين على غيرهم، على أن الإيمان يدعيه أهل الكتاب وإن تكن دعوى باطلة (٤) .

وقد يسأل سائل فيقول: كيف تحصل أفضلية هذه الأمة على من قبلها من الأمم بهذه الأمور الثلاثة وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله؟ وهل الأمم السابقة لم يكن فيها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وإيمان بالله؟

أقول: أورد هذا الاعتراض الإمام الطاهر بن عاشور وأجاب عنه فقال: وإذا قلت: إذا كان وجه التفضيل على الأمم هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله فقد شاركنا في هذه الفضيلة بعض الجماعات من صالحي الأمم قبلنا؛ لأنهم آمنوا بالله على حسب شرائعهم وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر لتعذر أن يترك الأمم الأمر بالمعروف؛ لأن الغيرة على الدين أمر مرتكز في نفوس الصادقين من أتباعه؟ قلت: لم يثبت أن صالحي الأمم كانوا يلتزمون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ إما لأنه لم يكن واجبًا عليهم؛ أو لأنهم كانوا يتوسعون في حل التقية، وهذا هارون في زمن

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/ ١٧٣ .

(٢) هو مجاهد بن جبر الإمام شيخ القراء والمفسرين أبو الحجاج المكي الأسود، روى عن ابن عباس فأكثر واطاب، وعنه أخذ القرآن والتفسير والفقه، وعنه قال: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، مات وهو ساجد سنة ثنتين ومائة، وقيل ثلاثة ومائة، وقيل غير ذلك. سير أعلام النبلاء للذهبي ٤/ ٤٤٩: ٤٥٥ .

(٣) فتح القدير للشوكاني ١/ ٣٧١ .

(٤) التفسير الواضح للشيخ محمد محمود حجازي ٤/ ١٣ .

موسى عليهما السلام عبدت بنو إسرائيل العجل بمرأى منه ومسمع فلم يغير عليهم قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ ﴾ [١] وأما قوله تعالى: ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [٢] فتلك فئة قليلة من أهل الكتاب هم الذين دخلوا في الإسلام مثل عبد الله بن سلام وقد كانوا فئة قليلة بين قومهم فلم يكونوا جمهرة الأمة [٣] .

المهم أن هذه الأمة ما كانت به خير أمة لا يحفظ ولا يدوم إلا بإقامة هذه الأصول الثلاثة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله) وما ترك قوم التناصح على الحق والخير إلا انحدروا من سيء إلى أسوأ كيف لا وقد أخبر الحق سبحانه وتعالى أن الناس جميعًا في خسران إلا المؤمنين المتواصين على الحق والصبر فقال جل شأنه: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [٤].

ثم رغب الحق تبارك وتعالى أهل الكتاب في الإيمان فقال: ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ ﴾ أي مما هم عليه من الرياسة في الدنيا لدفع القتل والذل عنهم، وفي الآخرة لدفع العذاب المقيم، وقيل: ولو آمن أهل الكتاب بمحمد ﷺ لكان خيرًا لهم من الإيمان بموسى وعيسى عليهما السلام فقط [٥].

وقوله تعالى: ﴿ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ كعبد الله بن سلام ورهطه من اليهود، والنجاشي [٦] ورهطه من النصارى، ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ أي الخارجون عن طاعة الله تعالى.

---

(١) سورة طه / الآيات ٩٢: ٩٤ .

(٢) سورة آل عمران / الآيتان ١١٣، ١١٤

(٣) التحرير والتنوير ٤/ ٥٠: ٥٢ ، كلام العلامة محمد الطاهر بن عاشور عن عدم تغيير هارون للمنكر الذي كان عليه بنو إسرائيل فيه نظر لما جاء ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ ﴾ سورة طه / الآية ٩٠ .

(٤) سورة العصر / ١: ٣ .

(٥) روح المعاني للآلوسي ٤/ ٢٨ بتصرف .

(٦) هو أصحمة بن أبحر ملك الحبشة واسمه بالعربية عطية، والنجاشي لقب له أسلم على عهد النبي ﷺ ولم يهاجر إليه وأحسن إلى المسلمين الذين هاجروا للحبشة وأخرج أصحاب الصحيح قصة صلاة النبي ﷺ عليه صلاة الغائب ووصفه له بالصلاح. من عدة طرق. انظر الإصابة في تمييز الصحابة ١/ ٢٠٥ وما بعدها .

ويرد هنا سؤال: الوصف إنما يذكر للمبالغة. فأي مبالغة تحصل في وصف الكافر بأنه فاسق؟

وقد أورد هذا السؤال الإمام الفخر الرازي وأجاب عليه فقال: الكافر قد يكون عدلًا في دينه وقد يكون فاسقًا في دينه فيكون مردودًا عند الطوائف كلهم، لأن المسلمين لا يقبلونه لكفره، والكفار لا يقبلونه لكونه فاسقًا بينهم، فكأنه قيل أهل الكتاب فريقان: منهم من آمن، والذين ما آمنوا فهم فاسقون في أديانهم فليسوا ممن يجب الاقتداء بهم البتة عند أحد من العقلاء [(١)].

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد أمر الحق تبارك وتعالى عباده المؤمنين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صراحةً في قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [(٢)]، وهذا يوجب على الأمة أن يكون بينها دائمًا جماعة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

أما الآية التي معنا فقد أخبر الحق تبارك وتعالى أن أهم الصفات التي استوجبت بها هذه الأمة الخيرية على جميع الأمم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لذلك يجب على المسلمين القيام بهذا الواجب والمحافظة على الاتصاف بهذه الصفة، ولهذا جعلتها آية المبدأ.

يقول الأستاذ محمد عزة دروزة معلقًا على قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ ﴾: "والآية واسعة المدى بليغة التلقين. وقد جاءت بصيغة الماضي لتقرر كما يتبادر أمرًا متسقًا مع الواقع للرعيل الأول من المهاجرين والأنصار الذين وصفوا في آيات عديدة بعظيم صفات الخير والطاعة والعبادة والتعاون والفناء في الله ودينه ونبيه والتشاور والتناصر على الحق واستحقوا من أجل ذلك رضاء الله تعالى عنهم، وإلى هذا فإنها جعلت ضمنًا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صفة محققة للمسلمين في كل وقت، وأوجبت عليهم التحقق بهذه الصفة ورشحتهم بذلك لحمل واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقررت أنهم يكونون بحملهم هذا الواجب والتحقق بتلك الصفة خير أمة أخرجت للناس" [(٣)] .

---

(١) التفسير الكبير ٨/ ١٩٨ .

(٢) سورة آل عمران / الاية ١٠٤ .

(٣) التفسير الحديث ٨/ ١٤٤، ١٤٥ بتصرف ط: دار إحياء الكتب العربية .

وقد أوردت لنا السنة النبوية أحاديثًا تقرر هذا المبدأ وتؤكده، وتبين أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر درجات ومراتب، منها ما روي عن أبي سعد الخدري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**" (١).

قال العلماء: الأمر بالمعروف باليد على الأمراء، وباللسان على العلماء، وبالقلب على الضعفاء يعني عوام الناس (٢).

ومن الأحاديث كذلك ما روي عن حذيفة بن اليمان ﷺ عن النبي ﷺ قال: "**والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم**" (٣).

ولمشروعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حكمة هامة، ذكرها فضيلة الشيخ محمد الغزالي حيث قال: "شرع الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صيانة للجماعة من تطرق العبث والفوضى إلى نواحيها، شرعه كذلك قيادة لها إلى الكمال، ودفعًا إلى الأمام، وإثباتًا لمشاعر التراحم والحنان بين الإنسان والإنسان!.

فلما كان الله سبحانه وتعالى يعتبر الإيمان بين أصحابه علاقة تناصر وتحاب فقد اعتبر ائتمارهم بالمعروف وتناهيهم عن المنكر من لوازم هذه العلاقة وقدمه في الذكر على أركان الدين نفسه ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ " (٤).

وفي هذه الآية السابقة جعل الحق تبارك وتعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقًا بين المؤمنين والمنافقين؛ فدل ذلك على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أخص أوصاف المؤمنين.

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان. ١/ ٦٩ حديث رقم ٤٩ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/ ٤٩ .

(٣) سنن الترمذي كتاب الفتن باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤/ ٤٦٨ حديث رقم ٢١٦٩ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن .

(٤) الإسلام والاستبداد السياسي ص١٥٢ بتصرف والآية رقم ٧١ من سورة التوبة .

المبدأ الحادي عشر: قوامة الرجال على النساء

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ (١).

المعنى الإجمالي:

الرجال من واجبهم القيام على النساء ورعايتهن وحمايتهن، وذلك لسببين:- أحدهما: يرجع إلى ما خصهم الله تعالى به من خصائص تهيئهم للقيام بهذا الواجب، والآخر: يرجع إلى إنفاقهم، أي: بسبب ما أُلزم به الرجال من إنفاق على النساء، ومن تقديم المهور لهن عند الزواج بهن، فالصالحات منهن مطيعات لله تعالى ولأزواجهن، حافظات لكل ما غاب عن علم أزواجهن بما اؤتمنَّ عليه، يحفظن أنفسهن وفروجهن في حال غيبة أزواجهن بحفظ الله تعالى وعونه وتوفيقه، واللاتي تخشون ترفعهن وعدم طاعتهن فعليكم أولًا بنصحهن بالمعروف، وإلا فاعتزلوهن في الفراش ولا تقربوهن، فإن لم ينفع الهجران فاضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن أطعنكم فاحذروا أن تظلموهن بأن تطلبوا عليهن الضرب والهجران على سبيل التعنت والإيذاء، فإن الله رقيب عليكم، قادر على أن ينتصف لهن ممن ظلمهن.

التفسير:

جاءت هذه الآية الكريمة في سياق الآيات التي تعتني بتنظيم أمور الأسرة المسلمة وإقامتها على أساس ثابت يلائم الفطرة التي فطر الله تعالى البشرية عليها.

وسبب نزول هذه الآية: قال مقاتل: نزلت هذه الآية في سعد بن الربيع وكان من النقباء، وامرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير، وهما من الأنصار، وذلك أنها نشزت عليه فلطمها، فانطلق أبوها معها إلى النبي ﷺ فقال: أفرشته كريمتي فلطمها، فقال النبي ﷺ: لنقتص من زوجها، وانصرفت مع أبيها لتقتص منه، فقال النبي ﷺ: أرجعوا هذا جبريل عليه السلام أتاني، وأنزل الله

(١) سورة النساء / الآية ٣٤.

تعالى هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: أردنا أمرًا وأراد الله أمرًا، والذي أراد الله خير، ورفع القصاص [١].

يقول الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾

ومعنى ذلك: أن الرجال من شأنهم القيام على النساء والإشراف عليهن ورعايتهن، وهذه القوامة لها سبب ألا وهو المذكور في قوله تعالى ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ فالباء للسببية. أي أن الرجال قوامون على النساء بسبب تفضيل الله تعالى بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم.

فالله سبحانه وتعالى بعد أن ذكر أن الرجال قوامون على النساء ذكر سببين لهذه القوامة:

أحدهما: ما يرجع إلى الصفات التي فطر الله تعالى عليها كلًا من الرجال والنساء ككمال العقل وحسن التدبير ورزانة الرأي ومزيد القوة في الأعمال والطاعات ولذلك خصوا بالنبوة والإمامة والولاية وإقامة الشعائر والشهادة في جميع القضايا ووجوب الجهاد والجمعة وغير ذلك في جانب الرجال، وفي جانب المرأة كحاجتها إلى من يدافع عنها ويرعاها.

وثانيهما: النفقة وذلك لأن العادة جرت أن الرجال هم الذين يقومون بالإنفاق على نسائهم.

إذن فقيام الرجال على النساء وهو قيام الحفظ والرعاية والدفاع، وقيام الإنفاق المالي.

و"ما" في الموضعين مصدرية أو موصولة.

يقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور: "ومن بديع الإعجاز صوغ قوله ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ في قالب صالح للمصدرية وللموصولية، فالمصدرية مشعرة بأن القيامية سببها تفضل من الله وإنفاق، والموصولية مشعرة بأن سببها ما يعلمه الناس من فضل الرجال وإنفاقهم ليصلح الخطاب للفريقين عالمهم وجاهلهم" [٢].

وقوله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ شروع في تفصيل أحوالهن وبيان كيفية القيام عليهن بحسب اختلاف هذه الأحوال، أي: فالصالحات منهن مطيعات لأمر الله تعالى ولأزواجهن.

---

(١) أسباب النزول للواحدي ٨٦ .

(٢) التحرير والتنوير ١٣٩/٥ .

ومعنى قوله تعالى: ﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ أي يحفظن أنفسهن وفروجهن في حال غيبة أزواجهن، قال الثوري [(١)] وقتادة: أي يحفظن في غيبة الأزواج ما يجب حفظه في النفس والمال[(٢)].

و"ما" في قوله تعالى: ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ فيها وجهان:

الأول: أنها موصولة بمعنى الذي والعائد محذوف. والتقدير: بما حفظه الله لهن، والمعنى: أن عليهن أن يحفظن حقوق الأزواج في مقابلة ما حفظ الله حقوقهن على أزواجهن.

الثاني: أنها مصدرية، والتقدير: بحفظ الله [(٣)].

ثم يكمل الحق تبارك وتعالى الآية بقوله: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾ وهذا استكمال لتفصيل أحوالهن فبعد أن ذكر الصالحات المطيعات ذكر الحالة المقابلة وهي حالة النشوز، والنشوز: عصيان المرأة لزوجها، وعدم طاعته، والترفع عليه، وإظهار كراهيته.

يقول الإمام الفخر الرازي: "اعلم أن الخوف عبارة عن حال يحصل في القلب عند ظن حدوث أمر مكروه في المستقبل. قال الإمام الشافعي ﷺ: النشوز قد يكون قولًا، وقد يكون فعلًا، فالقول مثل أن كانت تلبيه إذا دعاها، وتخضع له بالقول ثم تغيرت، والفعل مثل أن كانت تقوم إليه إذا دخل عليها، أو كانت تسارع إلى أمره وتبادر إلى فراشه باستبشار إذا التمسها، ثم تغيرت عن كل ذلك، فهذه أمارات دالة على نشوزها وعصيانها فحينئذ ظن نشوزها ومقدمات هذه الأحوال توجب خوف النشوز" [(٤)].

وقوله تعالى ﴿فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾ مقصود منه الترتيب كما يقتضيه ترتيب ذكرها مع ظهور أنه لا يراد الجمع بين الثلاثة، والترتيب هو الأصل والمتبادر في

---

(١) هو شيخ الإسلام، إمام الحفاظ، سيد العلماء العاملين في زمانه أبو عبد الله الثوري الكوفي المجتهد، صنف كتاب الجامع، ولد سنة سبع وتسعين اتفاقًا ومات سنة ست وعشرين ومائة. سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٢٩، ٢٣٠ .

(٢) روح المعاني ٥/ ٢٤ .

(٣) التفسير الكبير ١٠/ ٩٢ بتصرف .

(٤) المرجع السابق ١٠/ ٩٢، ٩٣ بتصرف .

العطف بالواو، قال سعيد بن جبير [١] : يعظها، فإن قبلت وإلا هجرها، فإن هي قبلت وإلا ضربها[٢] .

ومعنى قوله ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ أي انصحوهن بالترغيب والترهيب وذلك بأن يقول الرجل لزوجته: اتق الله وإن لي عليك حقا واعلمي أن طاعتي فرض عليك ونحو ذلك، فإن لم ترجع هجرها في المضجع وهو المراد بقوله ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾ بمعنى إن لم تنفع معهن النصيحة ولم تؤثر فيهن الموعظة فاهجروهن في المضاجع.

والمراد بالمضاجع مواضع الاضطجاع، أي اتركوهن منفردات في مضاجعهن فلا تدخلوهن تحت اللحف ولا تباشروهن فيكون الكلام كناية عن ترك الجماع، وقيل المراد اهجروهن في الفراش بأن تولوهن ظهوركم فيه فلا تلتفتوا إليهن، ولعله كناية أيضًا عن ترك الجماع، وقيل المضاجع المبيت أي اهجروا حجرهن ومحل مبيتهن [٣].

وهذا عقاب نفسي فإن لم ينزجرن بالهجران جاء العقاب الحسي وهو المراد بقوله ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ أي ضربًا غير مبرح بأن لا يقطع لحمًا ولا يكسر عظمًا.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه الضرب بالسواك ونحوه [٤].

والأمر هنا للإباحة لذلك يجوز تركه، فعن إياس بن عبد الله بن أبي ذباب [٥] قال: قال رسول الله ﷺ: "**لا تضربوا إماء الله**" فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: ذئرن النساء على أزواجهن فرخص

---

(١)هو سعيد بن جبير بن هشام، الإمام الحافظ المقرئ المفسر الشهيد أبو محمد روى عن ابن عباس فأكثر وجود وقرأ عليه القرآن، رُوي عن عمرو بن ميمون عن أبيه قال: لقد مات سعيد بن جبير وما على ظهر الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه، قتله الحجاج في شعبان سنة خمس وتسعين. سير أعلام النبلاء٤/٣٢١ ومابعدها.

(٢) التحرير والتنوير ٥/٤٢ .

(٣)روح المعاني للآلوسي ٥/٢٥ بتصرف .

(٤) المرجع السابق ٥/٢٥.

(٥) هو إياس بن عبد الله بن أبي ذباب الدوسي. سكن مكة مختلف في صحبته. قال ابن حجر: جزم أحمد بن حنبل والبخاري وابن حبان بأن لا صحبة له، ولم يخرج أحمد حديثه في مسنده، وذكره ابن حبان في ثقات التابعين وذكره في الصحابة. والراجح صحبته. تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ١/٣٨٩. دار صادر بيروت.

في ضربهن فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشكون أزواجهن فقال النبي ﷺ: "**لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن ليس أولئك بخياركم**" (١).

فنجد أن رسول الله ﷺ قد أخبر هنا أن التارك للضرب خير من فاعله، وذلك لأن الضارب دائمًا يكون في حالة غضب فيكون لديه الدافع للانتقام وفي هذه الحالة يكون الاحتمال في تجاوز الحد المسموح به أدعى، ومن هنا كان ترك الضرب أولى. ولكن مَنْ فعله في حدود ما أمر الله قاصدًا إصلاح العشرة فهذا أمر لا بأس به ولا شيء عليه.

ومعنى قوله تعالى في الآية: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أي: إن أطاعت المرأة زوجها في كل ما يريده منها مما أحله الله فلا طريق له للتعدي عليها بعد ذلك.

ثم يختم الحق تبارك وتعالى الآية بتذييل لتهديد الرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب فيقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ أي: إن الله عليٌّ عليكم. حاكم فيكم، فهو يعدل بينكم، وهو كبير أي قوي قادر، فبوصف العلو يتعين امتثال أمره ونهيه، وبوصف القدرة يحذر بطشه عند عصيان أمره ونهيه (٢).

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو مبدأ "الرجال قوامون على النساء". يجب أن نعلم أولًا أن الله تعالى قد خلق الناس من ذكر وأنثى فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ (٣) ، وجعل النساء شقائق الرجال في التكاليف الشرعية وقال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ (٤)، وشرع الزواج وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٥).

(١) سنن أبي داود كتاب النكاح باب في ضرب النساء ٢/٦٠٨، ٦٠٩ حديث رقم ٢١٤٦، ونحوه في سنن ابن ماجه كتاب النكاح باب في ضرب النساء ١/ ٦٣٨ حديث رقم ١٩٨٥ . ومعنى ذئرن: نشزن وتجرأن وساء خلقهن .

(٢) التحرير والتنوير ٥/٤٢ بتصرف .

(٣) سورة الحجرات / الآية ١٣ .

(٤) سورة النساء / الآية ١٢٤ .

(٥) سورة الروم / الآية ٢١ .

ومن هذا الزواج تكون الأسرة التي هي نواة المجتمع، وقد جعل الله تعالى لهذه الأسرة مبادئ وقوانين تنظم العلاقة بين أفرادها، ومن ضمن هذه المبادئ "الرجال قوامون على النساء"

وقوامة الرجل على المرأة كما بينها القرآن الكريم "بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم" فالله تعالى هو الخالق، وقد وهب لكل من الرجل والمرأة خصائص تختلف عن التي عند الآخر، وبناءً على هذه الخصائص تنبني الوظائف، فمن خصائص الرجل التي وهبها الله تعالى له القوة والحزم لذلك كان أمر الحفظ والرعاية والكسب والإنفاق موكولًا إليه.

أما المرأة فهي تحتاج إلى من يقوم برعايتها وحفظها والإنفاق عليها لأن وراءها وظيفة أخرى، ومهمة خطيرة وهي أن تحمل وتضع وترضع وتربي وتكفل ثمرة الاتصال بينها وبين زوجها وهي وظيفة ليست هينة ولا يسيرة. فلكل خصائصه ولكل وظائفه، ومن هنا كان "الرجال قوامون على النساء" مبدأ عظيمًا من مبادئ القرآن الكريم.

❊❊❊

المبدأ الثاني عشر: من يعمل سوء يجز به

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ (١).

المعنى الإجمالي:

ليس الجزاء موكولًا إلى أمانيكم أيها المسلمون ولا إلى أماني أهل الكتاب، وإنما يحصل ما وعد الله تعالى به من الثواب بالإيمان المقترن بالعمل الصالح، فمن يعمل سوءًا يجز به، وليس له من دون الله وليًا يواليه ولا نصيرًا ينصره يدفع عنه عذاب الله.

التفسير:

اختلف العلماء في سبب نزول هذه الآية الكريمة إلى سببين:

الأول: ما ذكره الإمام الواحدي عن مسروق وقتادة: احتج المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نحن أهدى منكم، فنبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أهدى منكم وأولى بالله، نبينا خاتم الأنبياء وكتابنا يقضي على الكتب التي قبله، فأنزل الله تعالى هذه الآية (٢) .

الثاني: ما ذكره الإمام السيوطي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قالت اليهود والنصارى لا يدخل الجنة غيرنا، وقالت قريش إنا لا نبعث فأنزل الله ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ ﴾ (٣) .

أي ليس الجزاء تابعًا لأماني الناس ومشتهاهم، بل هو أمر مقدر من الله تعالى تقديرًا بحسب الأعمال، فليس ما وعد الله تعالى من الثواب ينال بأمانيكم أيها المسلمون ولا أماني أهل الكتاب، وإنما ينال بالإيمان والعمل الصالح.

---

(١) سورة النساء / الآية ١٢٣ .

(٢) أسباب النزول للواحدي ١٠٤ .

(٣) لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ٩٤ .

فقد روي عن الحسن (١) أنه قال: "ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل، إن قومًا ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا: نحسن الظن بالله تعالى وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل" (٢).

ثم يكمل الحق تبارك وتعالى الآية فيقول ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾

يقول الإمام القرطبي: قال الجمهور: لفظ الآية عام، والكافر والمؤمن مجاز بعمله السوء، فأما مجازاة الكافر فالنار؛ لأن كفره أوبقه، وأما المؤمن فبنكبات الدنيا (٣).

فقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: لما نزلت ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ بلغت من المسلمين مبلغًا شديدًا، فقال رسول الله ﷺ **"قاربوا وسددوا ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها والشوكة يشاكها"** (٤).

وأخرج الإمام الترمذي (٥) عن أبي بكر الصديق قال كنت عند رسول الله ﷺ فأنزلت عليه هذه الآية ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ فقال رسول الله

(١) هو الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد: تابعي، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمنه. وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك. ولد بالمدينة، وشب في كنف علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، قال الغزالي: كان الحسن البصري أشبه الناس كلامًا بكلام الأنبياء، وأقربهم هديًا من الصحابة. كانت وفاته بالبصرة سنة ١١٠ هـ. الأعلام للزركلي ٢/٢٢٦، ٢٢٧.

(٢) تفسير أبي السعود ٢/٢٣٥، الكشاف ١/٥٦٥، روح المعاني ٥/١٥٢. وقال العلامة الآلوسي: "أخرجه ابن أبي شيبة عن الحسن موقوفًا" انظر الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار لابن أبي شيبة ١١/ ٢٢. وهذا الأثر أورده الديلمي في الفردوس من حديث أنس مرفوعًا ٣/ ٤٠٤. وقد جاء في (فيض القدير شرح الجامع الصغير) للعلامة المناوي. ٥/ ٣٥٥، ٣٥٦. أنه حديث ضعيف وقال: "وقد روي معناه بسند جيد عن الحسن من قوله وهو الصحيح". وسواء أكان حديثًا أم قولًا مأثورًا عن الحسن فإن المعنى المقصود صحيح ولا غبار عليه.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٥/٣٩٦، ٣٩٧.

(٤) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب. باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها ٤/١٩٩٣. حديث رقم ٢٥٧٤. ومعنى النكبة: ما يُصيب الإنسان من الأذى والحوادث.

(٥) هو محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي البوغي الترمذي، أبو عيسى: من أئمة علماء الحديث وحفاظه، من أهل ترمذ (على نهر جيحون) تتلمذ للبخاري، وشاركه في بعض شيوخه، وقام برحلة إلى خراسان والعراق والحجاز وعمي في آخر عمره، وكان يضرب به المثل في الحفظ. مات بترمذ سنة ٢٧٩ هـ ومن تصانيفه: "الجامع الكبير" باسم "صحيح الترمذي" في الحديث، و"الشمائل النبوية". الأعلام للزركلي ٦/٣٢٢.

ﷺ: **يا أبا بكر ألا أقرئك آية أنزلت علي ؟** قلت: بلى يا رسول الله قال: فأقرأنيها فلا أعلم إلا أني قد كنت وجدت انقصامًا في ظهري فتمطأت لها فقال رسول الله ﷺ: **ما شأنك يا أبا بكر ؟** قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي وأينا لم يعمل سوءًا وإنا لمجزون بما عملنا فقال رسول الله ﷺ: **أما أنت يا أبا بكر والمؤمنون فتجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله وليس لكم ذنوب، وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة** (١).

يقول العلامة الآلوسي: "والأحاديث بهذا المعنى أكثر من أن تحصى، ولهذا أجمع عامة العلماء على أن الأمراض والأسقام ومصائب الدنيا وهمومها وإن قلت مشقتها يكفر الله بها الخطيئات" (٢).

وإذا نظرنا في هذه الجملة وجدنا أنها قد وضعت التصور الإيماني الصحيح لمسألة العمل والجزاء، وبينت حقيقة الأمر في هذه المسألة، وحكم الله تعالى فيها.

يقول صاحب تفسير المنار: "هذا بيان من الله لحقيقة الأمر في المسألة، فإنه لما نفى أن يكون الأمر منوطًا بالأماني والتشبيهات وغرور الناس بدينهم، كان من يسمع هذا النفي جديرًا بأن يتشوق إلى استبانة الحق والوقوف على حكم الله فيه، فبينه عز وجل بصيغة العموم، والمعنى أن كل من يعمل سوءًا يلق جزاءه" (٣).

ومعنى بقوله تبارك وتعالى في الآية: ﴿وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣﴾ أي: ليس لمن يعمل السوء من دون الله وليًا يواليه ويدفع عنه عقوبة الله تعالى، ولا نصيرًا ينصره وينجيه من عذاب الله.

التعليق على المبدأ القرآني:

وقد تضمنت هذه الآية مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو "من يعمل سوءًا يجز به".

ويعد هذا المبدأ المبدأ الأساسي في مسألة العمل والجزاء، وهو ميزان العدل الرباني الذي وضعه الله سبحانه وتعالى، فإذا علم الإنسان أن أمر الجزاء ليس موكولًا إلى الأماني بل هو بحسب الأعمال كان عمله موافقًا لما علمه، فإن هو عمل سوءًا سيجزى به.

---

(١) سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة النساء ٥/٢٤٨. حديث رقم ٣٠٣٩ . وقال: هذا حديث غريب، وفي إسناده مقال . ومعنى تمطأت: انحنيت .

(٢) روح المعاني ٥/١٥٢ .

(٣) تفسير المنار ٥/٣٥٤ بتصرف .

وقد ذكر الأستاذ سيد قطب العلاقة بين هذه الآية وسياق الآيات التي قبلها، وتحدث عن هذا المبدأ فقال: "ثم يعقب السياق بقاعدة الإسلام الكبرى في العمل والجزاء.. إن ميزان الثواب والعقاب ليس موكولًا إلى الأماني. إنه يرجع إلى أصل ثابت، وسنة لا تتخلف، وقانون لا يحابي. قانون تستوي أمامه الأمم. فليس أحد يمت إلى الله بنسب ولا صهر. وليس أحد تخرق له القاعدة، وتخالف من أجله السنة، ويعطل لحاسبه القانون.. إن صاحب السوء مجزي بالسوء؛ وصاحب الحسنة مجزي بالحسنة. ولا محاباة في هذا ولا مماراة" (١) .

والقاعدة الكبرى في كلام الأستاذ السابق هو المبدأ القرآني العام.

وقد عقب الأستاذ محمد عزة دروزة على هذه الآية والآيات التي قبلها بقوله: "وعلى كل حال فالآيات قوية حاسمة في التعبير والتقرير والتلقين كما هو واضح. فلا يصح لامرئ أن يركن إلى الدعوى والانتساب والظواهر. وعلى كل إنسان أن يتأكد أنه ملاق جزاء عمله إن خيرًا فخيرًا وإن سوءًا فسوءًا" (٢) .

والتقرير والتلقين القوي الحاسم في الآية هو ما عبرت عنه بالمبدأ القرآني العام الذي أردت توضيحه، وهو "من يعمل سوءًا يجز به".

***

(١) في ظلال القرآن ٢/٧٦٢ .

(٢) التفسير الحديث ٩/ ١٧٤ ط: دار إحياء الكتب العربية .

المبدأ الثالث عشر: الصلح خير

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١).

المعنى الإجمالي:

وإن امرأة خافت من زوجها ترفقًا عليها أو انصرافًا عنها كراهية لها بأن ظهر لها من العلامات الدالة ذلك، فلا إثم ولا حرج على المرأة وزوجها، بل مأذون لهما أن يصلحا ما بينهما بأن تتنازل المرأة عن بعض حقوقها، أو أن تضع عن زوجها بعض نفقتها، والصلح الحقيقي الذي تسكن إله النفوس ويزول به الخلاف خير على الإطلاق، وفي هذه الحالة أولى وأفضل، والنفوس مجبولة على الشح حتى كأنه حاضر لديها، فشح الرجل بأن لا يجود عليها بماله وبأن لا يحسن معاشرتها، وشح المرأة بأن لا تتهاون في شيء من حقوقها مقابل دوام العشرة، والله سبحانه وتعالى يخبر بأن هذا الشح قد يحول بين الزوجين وبين الصلح، وإن تحسنوا فيما بينكم فتراحموا وتتقوا النشوز والإعراض، وما يترتب عليهما من منع الحقوق أو الشقاق، فإن الله كان بما تعملونه خبيرًا لا يخفى عليه شيء، فيجازيكم على أعمالكم.

التفسير:

جاءت هذه الآية الكريمة في سياق الآيات التي تحدثت عن استفتاء الصحابة الكرام للنبي ﷺ في النساء فجاء في الآية السابقة (٢) بعض الجواب وفي هذه الآية والآيات التي بعدها تتمة الجواب، كما أن هذه الآية وثيقة الصلة بالآيات التي تقدمتها في أول السورة، ففي أول السورة كان الحديث عن نشوز المرأة في قوله تعالى ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ (٣)، وهنا جاء الحديث عن نشوز الرجل.

---

(١) سورة النساء / الآية ١٢٨.

(٢) أعني قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ سورة النساء / الآية ١٢٧.

(٣) سورة النساء / الآية ٣٤.

وقد ذكر الإمام الواحدي في سبب نزول هذه الآية رواية عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها في قول الله تعالى ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ نزلت في المرأة تكون عند الرجل فلا يستكثر منها ويريد فراقها، ولعلها أن تكون لها صحبة ويكون لها ولد فيكره فراقها، وتقول له: لا تطلقني أمسكني وأنت في حل من شأني فأنزلت هذه الآية (١).

وروى الإمام الترمذي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت: لا تطلقني وأمسكني، واجعل يومي منك لعائشة فنزلت ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز (٢).

يقول الله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ﴾ وخافت بمعنى توقعت، ومن قال خافت تيقنت خطأ، والنشوز: الاستعلاء، والترفع، والجفاء، والخشونة في القول أو في الفعل أو فيهما، والإعراض: الانصراف عنها بأن يقل محادثتها ومؤانستها لطعن في سن، أو دمامة، أو شين في خِلق أو خُلق، أو ملال، أو طموح عين إلى أخرى أو غير ذلك وهو أخف من النشوز (٣).

والمعنى: وإن امرأة خافت من زوجها ترفقًا عليها أو انصرافًا عنها بأن حدث من الأمارات الدالة على أن ذلك كراهة لها ورغبة عنها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ﴾ أي: فلا إثم ولا حرج على المرأة وزوجها، بل مأذون لهما أن يصلحا ما بينهما بأن تتنازل المرأة عن بعض حقوقها، أو أن تضع عن زوجها بعض نفقتها وذلك استعطافًا له حتى لا يطلقها.

والصلح في قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾ عام مطلق يقتضي أن الصلح الحقيقي الذي تسكن إليه

---

(١) أسباب النزول للواحدي ١٠٥، ١٠٦ .

(٢) سنن الترمذي. كتاب تفسير القرآن. باب ومن سورة النساء ٥/ ٢٤٩. حديث رقم ٣٠٤٠ . وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٣) راجع: روح المعاني للآلوسي ٥/ ١٦١، والبحر المحيط لأبي حيان ٣/ ٣٧٩، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥/ ٤٠٣، والتفسير الكبير للفخر الرازي ١١/ ٦٦ بتصرف .

النفوس ويزول به الخلاف خير على الإطلاق. ويدخل في هذا المعنى جميع ما يقع عليه الصلح بين الرجل وامرأته في مال أو وطء أو غير ذلك.

وقوله: ﴿خَيْرٌ﴾ أي خير من الفرقة فإن التمادي على الخلاف والشحناء والمباغضة هي قواعد الشر [١]. وكلمة (خير) ليست للتفضيل وإنما لبيان خيرية الصلح وذلك للترغيب فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ تمهيد لما قد يحدث من بقاء الخلاف والشقاق الذي يحول بين الزوجين وبين الصلح، فإن الشح طبيعة ملازمة للنفوس البشرية حتى كأنه حاضر لديها، فشح الرجل بأن لا يجود عليها بماله وبأن لا يحسن معاشرتها، وشح المرأة بأن لا تتهاون في شيء من حقوقها مقابل دوام العشرة، والله سبحانه وتعالى يخبر بأن هذا الشح الذي هو من أمراض النفوس قد يقف حائلًا بين الزوجين وبين الصلح، وفي التعبير بهذه الجملة بعد سابقتها من التحريض على المسارعة إلى الصلح ما ترى.

ثم يختم الحق تبارك وتعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾

هذا شرط وجوابه ذيل الحق تبارك وتعالى به الآية الكريمة للترغيب في الإحسان والتقوى، وفي قوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ تحذير بأن الله تعالى مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها.

والمعنى: وإن تحسنوا فيما بينكم فتراحموا وتتعاطفوا ويعذر بعضكم بعضا وتتقوا النشوز والإعراض، وما يترتب عليهما من منع الحقوق أو الشقاق، فإن الله كان بما تعملونه من ذلك خبيرًا لا يخفى عليه شيء من دقائقه وخفاياه ولا من قصدكم فيه، فيجزي الذين أحسنوا منكم بالحسنى، والذين اتقوا بالعاقبة الفضلى [٢].

التعليق على المبدأ القرآني:

و"الصلح خير" مبدأ عام من مبادئ القرآن الكريم، والصلح الذي أقصده ليس هو الصلح بين الزوجين فحسب، بل هو الصلح العام الذي يزول به أي خلاف وتسكن إليه جميع النفوس، فهو خير على الإطلاق.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥/٤٠٦ .

(٢) تفسير المنار للشيخ رشيد رضا ٥/٣٦٥ بتصرف .

يقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور: "والتعريف في قوله ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ تعريف الجنس وليس تعريف العهد، لأن المقصود إثبات أن ماهية الصلح خير للناس، فهو تذييل للأمر بالصلح والترغيب فيه، وليس المقصود أن الصلح المذكور آنفًا خير من النزاع بين الزوجين لأن هذا وإن صح معناه فإن فائدة الوجه الأول أوفر. ولأن فيه التفادي عن إشكال تفضيل الصلح على النزاع في الخيرية مع أن النزاع لا خير فيه أصلًا. ومن جعل الصلح الثاني عين الأول غرته القاعدة المتداولة عند بعض النحاة، وهي: أن لفظ النكرة إذا أعيد معرفًا باللام فهو عين الأول. وهذه القاعدة ذكرها ابن هشام الأنصاري [١] في مغني اللبيب في الباب السادس [٢] فقال، يقولون: "النكرة إذا أعيدت نكرة كانت غير الأولى، وإذا أعيدت معرفة، أو أعيدت المعرفة معرفة أو نكرة كانت الثانية عين الأولى"، ثم ذكر أن في القرآن آيات ترد هذه الأحكام الأربعة كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾ [٣]، وقوله: ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ ، ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [٤] والشيء لا يكون فوق نفسه، ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [٥] ، ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [٦] ، وأن في كلام العرب ما

---

(١) هو عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري الشيخ جمال الدين الحنبلي. النحوي الفاضل، العلامة المشهور، أبو محمد. ولد في ذي القعدة سنة ثمان وسبعمائة. اتقن العربية ففاق الأقران بل الشيوخ. قال ابن خلدون: مازلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام، أنحى من سيبويه. كان كثير المخالفة لأبي حيان، شديد الانحراف عنه. من تصانيفه: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، شذور الذهب وشرحه، قطر الندى وشرحه، وله عدة حواش على الألفية. توفي ليلة الجمعة خامس ذي القعدة سنة إحدى وستين وسبعمائة. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ٢ / ٦٨، ٦٩ .

(٢) نص كلام ابن هشام الأنصاري في مغني اللبيب ما يلي: "وعلى الثاني – أي ويُشكل على الثاني وهو إعادة النكرة معرفة – قوله تعالى ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ فالصلح الأول خاص وهو الصلح بين الزوجين والثاني عام، ولهذا يستدل بها على استحباب كل صلح جائز". مغني اللبيب صـ ٨٦١ وما بعدها ط: دار الفكر – بيروت.

(٣) سورة الروم / الآية ٥٤ .

(٤) سورة النحل / الآية ٨٨ .

(٥) سورة المائدة / الآية ٤٥ .

(٦)سورة النساء / الآية ١٥٣ .

يـرد ذلـك أيـضًا. والحـق أنـه لا يختلـف في ذلـك إذا قامـت قرينـة عـلى أن الكـلام لتعريـف الجـنس لا لتعريف العهد كما هنا" [١] .

ومما سبق يتضح لنا أن الصلح هنا عام، وأن "الصلح خير" مبدأ عام من مبادئ القرآن الكريم.

***

(١) التحرير والتنوير ٥/ ٢١٦ بتصرف .

المبدأ الرابع عشر: العدل أساس الملك

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾[1].

المعنى الإجمالي:

يا أيها الذين أمنوا كونوا قائمين بالعدل، شهداء بالحق، ووطنوا أنفسكم على ذلك، فلا يحملنكم بغضكم لأحد على عدم التزام العدل معه فتعتدوا عليه وتميلوا عن الحق، بل عليكم بالعدل معه، فذلك أقرب لتقوى الله، واتقوا الله في جميع أعمالكم، فإن الله تعالى خبير بها فيجازيكم عليها إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

التفسير:

جاءت هذه الآية الكريمة في سياق آيات تضمنت تكليفًا للمؤمنين ببعض الشرائع، وتذكيرًا لهم ببعض النعم.

فالتكليف بالشرائع حاصل بقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾ ... الآية[2]، وهذه الشرائع متعلقة بهم، أما الآية التي معنا فتضمنت شرائع متعلقة بما يجري بينهم وبين غيرهم.

والتذكير بالنعم حاصل بقوله ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ ﴾ ... الآية[3].

فلما كان ذلك خاطبهم بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ ﴾ ... الآية وحصل بهذا الخطاب أمران:

الأول: التذكير بمنبع النعم وأعظمها وهو الإيمان.

(١) سورة المائدة / الآية ٨ .

(٢) سورة المائدة / الآية ٦ .

(٣) سورة المائدة / الآية ٧ .

الثاني: سرعة الانقياد إلى التكاليف التى منها أن يكونوا قوامين لله شهداء بالقسط.

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا كونوا من أصحاب النفوس الطيبة والهمم العالية، الذين يتقنون أعمالهم، ويخلصون فيها لله تعالى، سواء منها الأعمال الدينية والدنيوية، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا، والإتقان والإخلاص أساس النجاح، أما الشهادة بالقسط وتحري العدل فهي الدعامة الأولى لسعادة الأمم، وانتشار الطمأنينة في ربوعها، وانصراف كل إلى عمله، وأنت إذا لم تحاب أحدًا في شهادتك، وقمت بها عادلًا، لم تراع قرابة ولا صداقة، ولم تخش في الله لومة لائم كانت شهادتك بالقسط (١).

وجاء التعبير بلفظ "قوامين" لإفادة المبالغة والدوام والإستمرار في القيام بالعدل.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ﴾ أي: لا يحملنكم بغضكم للمشركين على أن تتركوا العدل فتعتدوا عليهم بأن تنتصروا منهم وتتشفوا بما في قلوبكم من الضغائن بارتكاب ما لايحل لكم من مثلة أو قذف أو قتل أولاد أو نساء أو نقض عهد أو ما أشبه ذلك (٢).

يقول الإمام الفخر الرازي: "في الآية قولان:

الأول: إنها عامة. والمعنى لا يحملنكم بغض قوم على أن تجوروا عليهم وتجاوزوا الحد فيهم، بل اعدلوا فيهم، وإن أساءوا عليكم، وأحسنوا إليهم وإن بالغوا في إيحاشكم، فهذا خطاب عام ومعناه أمر الله تعالى جميع الخلق بأن لا يعاملوا أحدًا إلا على سبيل العدل والإنصاف، وترك الميل والظلم والاعتساف.

والثاني: إنها مختصة بالكفار. فإنها نزلت في قريش لما صدوا المسلمين عن المسجد الحرام.

فإن قيل: فعلى هذا القول كيف يعقل ظلم المشركين مع أن المسلمين أمروا بقتلهم وسبي ذراريهم وأخذ أموالهم ؟ قلنا: يمكن ظلمهم أيضًا من وجوه كثيرة: منها أنهم إذا أظهروا الإسلام لا يقبلونه منهم، ومنها قتل أولادهم الأطفال لاغتمام الآباء، ومنها إيقاع المثلة بهم، ومنها نقض عهودهم، والقول الأول أولى" (٣).

---

(١) التفسير الواضح للشيخ محمد محمود حجازي ٣٤/٦ بتصرف .
(٢) الكشاف للزمخشري ٥٩٨/١ .
(٣) التفسير الكبير ١١/١٨٤، ١٨٥.

وأميل إلى ما اختاره الإمام الفخر الرازي؛ لأنه أعم في معنى العدل.

ثم لم يكتف الحق تبارك وتعالى بالنهي والتحذير من ترك العدل مهما كان السبب، بل صرح بالأمر به تأكيدًا وتشديدًا فقال: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾

أي: قد فرضت عليكم العدل فرضًا لا هوادة فيه، اعدلوا فالعدل أقرب لتقوى الله، أي لاتقاء عقابه وسخطه باتقاء معصيته وهي الجور الذي هو أكبر المعاصي لما يتولد منه من المفاسد (١).

ثم يختم الحق تبارك وتعالى الآية الكريمة بالأمر بالتقوى بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ وذلك اعتناءً بشأنها، وتنبيهًا على أنها ملاك الأمر.

والمعنى: واتقوا الله في جميع أعمالكم، فإنه تعالى خبير بها، مطلع عليها، لا يخفى عليه شيئ من أحوالكم، فيجازيكم على ذلك إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

التعليق على المبدأ القرآني:

إن هذه الآية الكريمة تعتبر درسًا من الدروس القرآنية لجماعة المؤمنين، تأمرهم بإقامة العدل بين الناس، العدل الذي يكون النظر فيه الى الله تعالى وحده، فلا مجاملة ولا وساطة لأحد، العدل المتجرد عن متابعة الهوى والعاطفة، المتجرد عن البغض والأحقاد والكراهية.

إن إقامة العدل على هذا النحو الفريد يضمن للبشرية أمنها وسعادتها وطمأنينتها، وذلك لأن العدل في الحكم وآداء الشهادة بالحق هو قوام صلاح المجتمع، والانحراف عن ذلك ولو قيد أنملة يجر إلى فساد متسلسل لا ينتهي أبدًا، فالعدل كما يقولون هو أساس الملك.

وقد قرر القرآن الكريم هذا المبدأ في أكثر من موضع، ففي سورة النساء نظير لهذه الآية الكريمة التى معنا، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾(٢).

وقد أمر الله تعالى بالقسط والعدل في أكثر من موضع في القرآن الكريم، ففي سورة الأعراف

(١) تفسير المنار للشيخ رشيد رضا ٦/٢٢٧ بتصرف.

(٢) النساء /الآية ١٣٥.

يقول الله تعالى ﴿ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾ (١) ، وفي سورة النحل يقول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

يقول الأستاذ سيد قطب: "ومن الميثاق الذي واثق الله به الأمة الإسلامية، القوامة على البشرية بالعدل.. العدل المطلق الذي لايميل ميزانه مع المودة والشنآن؛ ولايتأثر بالقرابة أو المصلحة أو الهوى في حال من الأحوال. العدل المنبثق من القيام لله وحده بمنجاة من سائر المؤثرات.. والشعور برقابة الله وعلمه بخفايا الصدور" (٣) .

ويقول الأستاذ محمد عزة دروزة معلقًا على هذه الآية الكريمة والآيتين التاليتين لها (٤): "عبارة الآيات واضحة. وقد احتوت أولاها هتافًا للمسلمين بأن يكونوا قوامين لله فيما أمر ونهى مراعين جانبه وحده في الشهادة بالقسط والحق والعمل بهما والتعاون على إقرارهما دون أن يكون لبغضهم لقوم ما تأثير يؤدي إلى الإخلال بواجب العدل والانحراف عن جادة القسط والحق. فهذا هو واجبهم وهو الأمثل بالمؤمنين. والمحقق لمعنى تقوى الله. والموجب لرضائه. وعليهم أن يلاحظوا دائمًا أنه خبير بكل مايفعلونه.

والمبدأ الذي احتوته هذه الآية متسق من حيث الأصل مع تقريرات القرآن ومبادئه التى تضمنتها آيات كثيرة مكية ومدنية. وقد جاء ما يقاربها بنوع خاص في سورة النساء [١٣٥] غير أن الأسلوب الذي جاءت به الآية والتعقيب والتدعيم والتبشير والإنذار الذي جاء في الآيتين التاليتين لها يجعل ما احتوته قويًا ساطعًا، ويجعلها من أروع الآيات القرآنية وأبعدها مدى في مجال الحق والعدل والتجرد والنزاهة شهادة وعملًا وقضاء وتطمينًا. وفي واجب مراعاة جانب الله وحده في هذا المجال وعدم التأثر فيه بعداء وبغضاء وأحقاد. وإذا لوحظ أن الشنآن إنما كان على الأكثر واردًا فيما بين المسلمين وغير المسلمين تجلت روعة الآية ومداها أكثر" (٥) .

---

(١) الآية ٢٩ .

(٢) الآية ٩٠ .

(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٨٥٢ .

(٤) هما قوله تعالى ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٠﴾ ﴾ سورة المائدة / الآيتان ٩ ،١٠ .

(٥) التفسير الحديث ٩/ ٦٩، ٧٠ بتصرف .

ومما سبق يتضح لنا أن الآية الكريمة قد تضمنت مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو مبدأ "العدل أساس الملك".

***

المبدأ الخامس عشر: عفا الله عما سلف

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ (١) .

المعنى الإجمالي:

يا أيها الذين آمنوا إن الله ينهاكم عن قتل صيد البر في حالين: حال كونكم محرمون، وحال كون الصيد من صيد الحرم، ومن يفعل ذلك منكم قاصدًا عالمًا، فعليه أن يؤدى نظير ذلك الصيد الذي قتله، يخرجه من النعم: الإبل أو البقر أو الغنم، ويعرف هذا النظير بتقدير رجلين عدلين صالحين منكم يحكمان به، ويسوقه إلى مكة لفقراء الحرم، وإن شاء اشترى بثمنه طعامًا وتصدق به، إن شاء صام بدل كل نصف صاع يومًا، ليذوق جزاء ذنبه. عفا الله عما وقع منكم قبل التحريم، ومن عاد إلى ما نُهيتم عنه من قتل الصيد بعد هذا، فقد عرَّض نفسه للعقاب الشديد من الله، والله غالب شديد العقاب لمن يصر على معصيته.

التفسير:

جاءت هذه الآية الكريمة في سياق الآيات التي تتحدث عن أحكام الصيد في أرض الحرم أو في حال الإحرام.

فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ ﴾ هذا النداء توطئة لبيان ما يجب على المحرم المعتدي في الصيد من الجزاء والكفارة في الدنيا، وقد سبق في أول السورة تحريم الصيد على من كان محرمًا بحج أو عمرة ومن في أرض الحرم في قوله تعالى: ﴿ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ ﴾ (٢) وقد أعاده هنا ليرتب عليه جزاءه (٣) .

ومعنى قوله تعالى ﴿وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ ﴾ أي: أن الله تعالى قد عليكم حرم الصيد في حالين: حال كون الصائد محرمًا، وحال كون الصيد من صيد الحرم ولو لم يكن الصائد محرمًا.

---

(١) سورة المائدة / الآية ٩٥ .

(٢) سورة المائدة / الآية ١ .

(٣) تفسير المنار ٨٦/٧ بتصرف .

وحرم المكان حرمان: حرم المدينة، وحرم مكة، وزاد الشافعي الطائف [١] .

وإن كان ظاهر الآية عامًا إلا أنه قد خُص من هذا العموم صيد البحر بقوله تعالى ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ [٢] ، وكذلك خُص ما هو مضر وهي السباع المؤذية وذوات السموم والفأر وسباع الطير، ودليل التخصيص السنة ففي الصحيحين عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها عن النبي ﷺ أنه قال: "**خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الحية والغراب الأبقع والفأرة والكلب العقور والحديا**" [٣] .

ثم يبين الله تعالي جزاء من فعل ذلك، حيث قال: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ .

قال ابن عباس والجمهور: يحكم عليه بالجزاء وإن تعمد القتل مع ذكر الإحرام. وهذا مذهب عامة الفقهاء، أما إذا قتل الصيد خطًا بأن قصد غيره بالرمي فأصابه فهو كالعمد في وجوب الجزاء، وقال سعيد بن جبير: لا أري في الخطأ شيئًا. وهذا قول شاذ لا يؤخذ به [٤].

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ أي فعليه جزاء من النعم مثل ما قتل.

يقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور: "وقد أخبر أن الجزاء مثل ما قتل الصائد، وذلك المثل من النعم، وذلك أن الصيد إما من الدواب وإما من الطير، وأكثر صيد العرب من الدواب، وأما الطير فنادر صيده، فمماثلة الدواب للأنعام هينة، وأما مماثلة الطير للأنعام فهي مقاربة وليست مماثلة، وما لا نظير له كالعصفور فيه القيمة، وهذا قول مالك [٥] والشافعي ومحمد بن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٠٧/٦ .

(٢) سورة المائدة / الآية ٩٦ .

(٣) صحيح مسلم كتاب الحج باب ما يندب للمحرم وغيره قتلة من الدواب ٨٥٦/٢ حديث رقم ١١٩٨، ونحوه في صحيح البخاري كتاب بدء الخلق. باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم ١٢٩/٤، والغراب الأبقع: هو الذي في ظهره أو بطنه بياض .

(٤) تفسير الخازن ٩٢/٢ بتصرف. راجع معه: التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٤٣/٧ وما بعدها، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٠٧/٦ وما بعدها، تفسير أبي السعود ٧٩/٣ .

(٥) هو مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري، أبو عبد الله: إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه تنسب المالكية. مولده وفاته في المدينة. كان صلبًا في دينه، بعيدًا عن الأمراء والملوك، وجه إليه=

الحسن(١). وقال أبو حنيفة (٢) وأبو يوسف (٣): المثل القيمة في جميع ما يصاب من الصيد. والقيمة عند مالك طعام. وقال أبو حنيفة: دراهم. فإذا كان المصير إلى القيمة؛ فالقيمة عند مالك طعام يتصدق به، أو يصوم عن كل مد من الطعام يومًا. وقال أبو حنيفة: يشتري بالقيمة هديًا إن شاء، وإن شاء اشترى طعامًا، وإن شاء صام عن كل نصف صاع يومًا " (٤).

ومعنى قوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي يحكم بالجزاء رجلان من أهل العدالة والمعرفة. ووجه الحاجة إلى الحكمين العدلين أنه ليس كل أحد يعرف صفة المماثلة بين الصيد والنعم فجعل الله تعالى هذا الأمر موكولًا إلى الحكمين. وهما يعينان له المثل، ويخير بين أن يعطي المثل أو الطعام أو الصيام، ويقدران ما هو قدر الطعام إن اختاره.

ومعنى قوله تعالى: ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ أي: إذا حكم بالهدي يجب أن يصل إلى الكعبة ويذبح

= الرشيد العباسي ليأتيه فيحدثه، فقال: العلم يؤتى، فقصد الرشيد منزله واستند إلى الجدار، فقال مالك: يا أمير المؤمنين من إجلال رسول الله إجلال العلم، فجلس بين يديه فحدثه. وساله المنصور أن يضع كتابًا للناس يحملهم على العمل به فصنف "الموطأ"، وله رسالة في "الوعظ"، وكتابًا في "المسائل" كانت وفاته سنة ١٧٩ هـ. الأعلام للزركلي ٥/٢٥٧، ٢٥٨ .

(١) هو محمد بن الحسن بن فرقد، من موالي بن شيبان، أبو عبد الله: إمام بالفقه والأصول، وهو الذي نشر علم أبي حنيفة. ولد بواسط. ونشأ بالكوفة، فسمع من أبي حنيفة وغلب عليه مذهبه وعرف به. قال الشافعي: "لو أشاء أن أقول نزل القرآن بلغة محمد بن الحسن لقلت؛ لفصاحته". توفي سنة ١٨٩هـ من تصانيفه: "المبسوط" في فروع الفقه، و"الجامع الكبير"، وغير ذلك. الأعلام للزركلي ٦/ ٨٠ .

(٢) هو النعمان بن ثابت الكوفي، أبو حنيفة: إمام الحنفية، الفقيه المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. ولد ونشأ بالكوفة. كان قوي الحجة، ومن أحسن الناس منطقًا، قال الإمام مالك، يصفه: رأيت رجلًا لو كلمته في هذه السارية أن يجعلها ذهبًا لقام بحجته، وعن الإمام الشافعي: الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة. توفي ببغداد سنة ١٥٠ هـ. له "مسند" في الحديث جمعه تلاميذه، و"المخارج" في الفقه، وتنسب إليه رسالة "الفقه الأكبر" ولم تصح النسبة. الأعلام للزركلي ٨/٣٦ .

(٣) هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي، أبو يوسف: صاحب الإمام أبي حنيفة، وتلميذه؛ وأول من نشر مذهبه. كان فقيهًا علامة، من حفاظ الحديث. ولد بالكوفة، وتفقه بالحديث والرواية، ثم لزم أبا حنيفة، وولي القضاء ببغداد أيام المهدي والهادي والرشيد ومات في خلافته ببغداد سنة ١٨٢ هـ وهو على القضاء. وهو أول من دعي "قاضي القضاة". من كتبه: "الخراج"، و"النوادر"، و"أدب القاضي"، وغير ذلك. الأعلام للزركلي ٨/١٩٣ .

(٤) التحرير والتنوير ٧/٤٥ بتصرف . راجع معه: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦/ ٣١٠ وما بعدها .

هناك، وليس المراد أن يذبح حول الكعبة بعينها وإنما أراد الحرم فيذبح الهدي بمكة ويتصدق به على المساكين.

ومعنى قوله تعالى: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ أي: يكفر عن فعله بإطعام مساكين، وسمي الإطعام كفارة لأنه ليس بجزاء، ومقدار الطعام موكول إلى الحكمين، وقد شاع عند العرب أن المد من الطعام هو طعام رجل واحد، فلذلك قدره مالك بمد لكل مسكين. وهو قول الأكثر من العلماء[١].

ومعنى قوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ أي: أو يكفر عن فعله بالصيام، وقد جاء مجملًا، ومقداره موكول إلى الحكمين.

قال مالك: يصوم عن كل مد يومًا، وإن زاد على شهرين أو ثلاثة، وبه قال الشافعي. ومن أهل العلم من لا يرى أن يتجاوز في صيام الجزاء شهرين. قالوا؛ لأنها أعلى الكفارات، وقال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يصوم عن كل مدين يومًا [٢].

واختلف الفقهاء في "أو" في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾، وقوله: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ فذهب الشافعي ومالك وأبو حنيفة أنها للتخيير، وقال أحمد [٣] وزفر [٤] إنها للترتيب. وهما روايتان عن ابن عباس [٥].

ثم بين الحق سبحانه وتعالى الحكمة من هذه الكفارة وذلك الجزاء بقوله: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أي: سوء عاقبة ذنبه الذي اقترفه.

---

(١) المرجع السابق ٤٨/٧ بتصرف .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣١٦/٦ بتصرف .

(٣) هو أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، المروزي، البغدادي، أبو عبد الله: إمام في الحديث والفقه، صاحب المذهب الحنبلي، وأحد الأئمة الأربعة، ولد ببغداد ونشأ بها، وطلب العلم وسمع الحديث من شيوخها، ثم رحل إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام، وتوفي ببغداد سنة ٢٤١هـ، له من الكتب: "المسند"، و"الزهد" وغير ذلك. الأعلام للزركلي ٢٠٣/١، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٩٦/٢ .

(٤) هو زفر بن الهذيل بن قيس العنبري، من تميم، أبو الهذيل: فقيه كبير من أصحاب الإمام أبي حنيفة. أصله من أصبهان. أقام بالبصرة وولي قضاءها وتوفي بها سنة ١٥٨ هـ. وهو أحد العشرة الذين دونوا "الكتب". جمع بين العلم والعبادة. الأعلام للزركلي ٤٥/٣ .

(٥) تفسير الخازن ٩٣/٢ .

ثم يكمل الحق تبارك وتعالى الآية الكريمة فيقول: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي: لا يؤاخذكم الله تعالى بما سلف قبل التحريم أو قبل الجزاء، وقيل: عما سلف في الجاهلية؛ لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ويطهر نفس صاحبه من الأدران السابقة، فلا يبقى لها اثر في النفس تترتب عليه مؤاخذة (١). وهذه هي سمة التشريع الإسلامي فبعد التهديد والوعيد يأتي العفو والرأفة.

ثم يختم الحق تبارك وتعالى الآية بقوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾أي: من عاد إلى فعل هذا الأمر المنهي عنه – وهو قتل الصيد حال الإحرام أو في الحرم – فينتقم الله منه في الآخرة إذ أن الجزاء والعقوبة في الدنيا لم تمنعه من العودة إلى الفعل مرة أخرى.

والانتقام المبالغة في العقوبة، وهذا الوعيد لا يمنع إيجاب الجزاء في المرة الثانية والثالثة، فإذا تكرر من المحرم قتل الصيد تكرر عليه الجزاء، وهذا قول جمهور العلماء (٢).

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم، ألا وهو "عفا الله عما سلف"، وهو مبدأ عدم رجعية أثر القانون (الحكم الشرعي عامة) في جميع مواد الشريعة ونصوصها، وهو مبدأ يؤكد فورية القوانين، ومعنى ذلك أن القوانين والأحكام لا تكون بأثر رجعي فلا تطبق على من وقعت منه المخالفة في الزمن الماضي قبل تشريعها، مع أنه يجب البدء في تنفيذها فورًا.

ولهذا المبدأ نظائر أخرى في القرآن الكريم حيث قال الله تعالى في آية سورة البقرة الخاصة بتحريم الربا ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (٣) وهذه الآية الكريمة جاءت في سياق الآيات التي تتحدث عن حرمة الربا، فقال جل ثناؤه: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ﴾ يعني بالموعظة والتذكير والتخويف الذي ذكرهم وخوفهم به في آي القرآن وأوعدهم على أكلهم الربا من العقاب، فمن

---

(١) تفسير المنار للشيخ رشيد رضا ٧/٩٥ .

(٢) تفسير الخازن ٢/٩٤ .

(٣) سورة البقرة / الآية ٢٧٥ .

جاءه ذلك فانتهى عن أكل الربا وارتدع عن العمل به وانزجر عنه ﴿ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ ﴾ يعني ما أكل وأخذ فمضى قبل مجيء الموعظة والتحريم من ربه في ذلك [١].

وفي هذا دلالة على عدم المؤاخذة على ما مضى قبل التحريم، وذلك يعني عدم رجعية التشريع إلى الماضي.

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [٢]، فالآية تنهى عن نكاح ما نكح الآباء، وتقطع حبل استمراره بمجرد العلم بالتحريم، لكنها تقرر عدم رجعية أثر النهي فتقول ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ ﴾ أي إلا ما وقع منكم قبل نزول التحريم، فيجب التفريق بين الزوجين في هذا النكاح فورًا مع بقاء آثاره المترتبة عليه.

وفي الآية التي معنا يقول الله تعالى ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ ﴾، والمعنى: عفا الله أيها المؤمنون عما سلف منكم من إصابتكم الصيد وأنتم حرم، فلا يؤاخذكم بما كان منكم قبل التحريم، ولا يلزمكم له كفارة، لكن من عاد منكم لقتله وهو محرم بعد علمه بتحريمه مستحلًا لقتله فينتقم الله منه، فهنا بينت الآية عدم مؤاخذتهم بما وقع منهم قبل نزول التحريم، ولكنها بدأت في تنفيذ الحكم فورًا.

ولهذا المبدأ تطبيقات كثيرة في مجال القانون في مسائله المختلفة.

* * *

(١) جامع البيان للطبري ٦٩/٣.

(٢) سورة النساء / الآية ٢٢.

المبدأ السادس عشر: لا يستوي الخبيث والطيب

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[١] .

المعنى الإجمالي:

قل يا أيها الرسول الكريم للناس: إنه لا يستوي عند الله تعالى الخبيث والطيب، فالخبيث من الأشخاص والأعمال والأقوال لا يساوي الطيب بحال من الأحوال، وإن سركم كثرة الخبيث؛ لأنه كثيرًا كان أو قليلًا فإنه خبيث في باطنه، فلا تغرنكم كثرته، فاتقوا الله يا أصحاب العقول السليمة الراجحة في تحري الخبيث، وقدموا الطيب عليه، ليتحقق لكم الفلاح والفوز العظيم في الدنيا والآخرة.

التفسير:

جاءت هذه الآية الكريمة في سياق آيات تضمنت نوعًا من الترغيب والترهيب، فقد سبقها قوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾[٢] ، فلما بيَّن سبحانه أن عقابه شديد لمن عصى وأنه غفور رحيم لمن أطاع، رغَّب هنا في الطاعة ونفَّر من المعصية، وبيَّن أنه لا يستوي المطيع والعاصي وإن كان العصاة والكفرة كثرة، فقال ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾[٣].

وقد ذكر الإمام الخازن لهذه الآية الكريمة سبب نزول فقال: عن جابر بن عبد الله أن رجلًا قال يا رسول الله إن الخمر كانت تجارتي فهل ينفعني ذلك المال إن عملت فيه بطاعة الله ؟ فقال النبي ﷺ "إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب"، فأنزل الله تصديقًا لرسوله ﷺ: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[٤].

---

(١) سورة المائدة / الآية ١٠٠ .

(٢) سورة المائدة / الآية ٩٨ .

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ٤/ ٣٠ بتصرف .

(٤) تفسير الخازن ٢/ ٩٧. راجع: لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي صـ١١٤، وأسباب النزول للواحدي صـ١٢. باختلاف يسير في الروايات وكلها عن جابر.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾ قيل المراد بالخبيث والطيب: الحلال والحرام، وقيل المؤمن والكافر، وقيل العاصي والمطيع، وقيل الرديء والجيد.

والأولى أن الاعتبار بعموم اللفظ فيشمل هذه المذكورات وغيرها مما يتصف بوصف الخبيث والطيب من الأشخاص والأعمال والأقوال، فالخبيث لا يساوي الطيب بحال من الأحوال (١) . أي أن اللفظ عام في نفي المساواة بين النوعين.

والخطاب في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ لكل واحد يصلح له الخطاب. أي وإن سرك كثرة الخبيث فإنه لا يستوي بحال من الأحوال مع الطيب.

يقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور: "المراد لا تعجبكم من الخبيث كثرته إذا كان كثيرًا فتصرفكم عن التأمل في خبثه وتحدوكم إلى متابعته لكثرته، ولكن انظروا إلى الأشياء بصفاتها ومعانيها لا بأشكالها ومبانيها" (٢) .

أي: إذا كان الخبيث كثيرًا أو قليلًا فإنه خبيث في باطنه فلا تغرنكم كثرته فإنه لا يستوي في كلتا حالتيه مع الطيب.

ثم يختم الحق تبارك وتعالى الآية بالأمر بالتقوى حيث قال: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ وهذا تذييل أريد به تأكيد ما مر من الترغيب في الطاعات والتحذير من المعاصي.

وقوله تعالى ﴿ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ أي يا أصحاب العقول السليمة الراجحة، وإنما خصهم بالذكر لأن أهل البصيرة من العقلاء هم الذين يعتبرون بعواقب الأمور.

والمعنى: فاتقوا الله يا أولي الألباب في تحري الخبيث وإن كثر وآثروا عليه الطيب وإن قل فإن مدار الاعتبار هو الجودة والرداءة لا الكثرة والقلة فالمحمود القليل خير من المذموم الكثير بل كلما كثر الخبيث كان أخبث (٣).

---

(١) فتح القدير ٢/ ٨٢ .

(٢) التحرير والتنوير ٧/ ٦٣ بتصرف .

(٣) تفسير أبي السعود ٣/ ٨٤ .

يقول العلامة الآلوسي: "وفي الآية إشارة إلى غلبة أهل الإسلام وإن قلوا " (١).

ومعنى قوله ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠٠﴾ أي إذا فعلتم ما أمرتم به من التزام التقوى في ذلك الأمر خاصة وفي حياتكم عامة يكون أرجى لحصول الفلاح لكم في الدنيا والآخرة.

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو "لا يستوي الخبيث والطيب".

وإن كان للآية سبب نزول إلا أن لفظها عام ومجالها أوسع حتى إنه يشمل الحياة كلها، وعلى ذلك نص غير واحد من المفسرين.

يقول العلامة أبو السعود (٢): "قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾ حكم عام في نفي المساواة عند الله تعالى بين الرديء من الأشخاص والأعمال والأموال وبين جيدها قصد به الترغيب في جيد كل منها والتحذير عن رديئها" (٣) .

ويقول العلامة أبو حيان في البحر: "والظاهر أن الخبيث والطيب عامان، فيندرج تحتهما حلال المال وحرامه، وصالح العمل وفاسده، وجيد الناس ورديئهم، وصحيح العقائد وفاسدها، والخبيث من هذا كله لا يصلح، ولا يحب، ولا يحسن له عاقبة، والطيب وإن قل نافع جيد العاقبة"(٤) .

ومن النقلين السابقين يتضح لنا أن لفظ الخبيث والطيب عامان في الأشخاص والأعمال والأموال، فلا يستوي الخبيث والطيب من الناس فالمطيع طيب والعاصي خبيث، وكذلك لا يستوي

---

(١) روح المعاني ٧/٣٧ .

(٢) هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، أبو السعود: فقيه أصولي مفسر شاعر، عارف باللغات العربية والفارسية والتركية، كانت وفاته في شهر جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة هجرية من تصانيفه: "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"في تفسير القرآن. معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ١١/٣٠١، طبقات المفسرين للأدنروي ١/٣٩٨، ٣٩٩ .

(٣) تفسير أبي السعود ٣/٨٣ . راجع معه: روح المعاني ٧/٣٧ باختلاف يسير.

(٤) البحر المحيط ٤/٣٠.

طيب العمل وخبيثه فالله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه الكريم، وكذلك لا يستوي طيب الأموال وخبيثها فالله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا.

يقول الأستاذ محمد عزة دروزة معلقًا على هذه الآية والآيات التي قبلها: "ولقد أتمت الآية الأخيرة [١] هذا التلقين [٢] بما نبهت عليه من عدم جواز إقبال الناس على الخبيث والحرام والضار والشر انخداعًا بمظهره وزخرفه ولذاته وسهولة الحصول عليه. ومن وجوب التفريق بينه وبين الطيب والحلال النافع والخير وعدم التسوية بين هذا وذاك. وكل هذا متسق مع التقريرات والتلقينات القرآنية العامة. وكل هذا كذلك من مرشحات الشريعة الإسلامية للخلود لأنه متسق مع مصلحة الإنسانية وكرامتها وخيرها وصلاحها وطاهرة روحها ولا يستطيع عاقل منصف في أي ظرف أن ينكره" [٣].

ومن كلام الشيخ السابق يتضح لنا أن التفريق بين الخبيث والطيب وعدم التسوية بينهما متسق تمامًا مع التقريرات والتلقينات القرآنية العامة، وهذا مما يؤكد أن "لا يستوي الخبيث والطيب" مبدأ عام من مبادئ القرآن الكريم.

***

---

(١) يقصد بها الآية التي معنا – سورة المائدة /الآية ١٠٠ .

(٢) يقصد بهذا التلقين: "التلقين بإباحة توطيد وإيجاد وتيسير كل ما من شأنه أن يكون فيه قوام مصالح الناس ومعايشهم. ووسيلة إلى قوة المسلمين وعمران بلادهم. وارتقاء أحوالهم مع مراعاة حرمات الله تعالى والوقوف عند الحدود التي رسمها للحلال والحرام والطيب والخبيث والنافع والضار والخير والشر والعدل والإحسان والبغي والطغيان".

(٣) التفسير الحديث ٢٣٨/٩ بتصرف .

المبدأ السابع عشر: لا تزر وازرة وزر أخرى

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (١).

المعنى الإجمالي:

قل يا أيها الرسول الكريم: أغير الله تعالى أطلب ربًا أشركه فى عبادته، والحال أنه سبحانه هو رب كل شيء ومليكه، وهو خالق الخلق ومربيهم جل وعلا، ولا تكسب كل نفس إثمًا إلا كان جزؤه عليها وحدها لا يتعداها إلي غيرها، فلا يحمل أحد وزر أحد، ولا يعاقب أحد بذنب أحد، ثم ترجعون إلى ربكم يوم القيامة فيخبركم بما كنتم فيه تختلفون في الدنيا، وحينئذ يتبين الرشد من الغي ويظهر الحق من الباطل.

التفسير:

جاءت هذه الآية الكريمة في سياق الآيات التي ختمت بها السورة الكريمة وهي تؤكد تمسكه ﷺ بالحق الذي هداه الله تعالى إليه وارتضاه له.

وعلاقتها بما قبلها أنه ﷺ لما علم أن الله هداه إلى صراط مستقيم، وأمره بأن يمحض عبادته وطاعته لربه تعالى، شكرًا على الهداية، اتبع ذلك بأن ينكر أن يعبد غير الله تعالى لأن واهب النعم هو مستحق الشكر (٢).

وسبب نزول هذه الآية كما ذكره العلامة أبو حيان في البحر: أنه روى أن الكفار قالوا للنبي ﷺ "ارجع يا محمد إلى ديننا واعبد آلهتنا واترك ما أنت عليه، ونحن نتكفل لك بكل ما تريد في دنياك وآخرتك". فنزلت هذه الآية (٣).

ومعنى قوله تعالى ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ ﴾ أي: قل لهم يا أيها الرسول الكريم أغير

---

(١) سورة الأنعام / الآية ١٦٤ .

(٢) التحرير والتنوير ٨/٢٠٥ بتصرف .

(٣) تفسير البحر المحيط ٤/٢٦٣ .

الله خالق الخلق، وسيدهم، ومربيهم، أطلب ربًا آخر أشركه في عبادتي له لينفعني أو يمنع الضر عني أو ليقربني إليه زلفى ويشفع لي عنده. والحال أنه تعالى هو رب كل شيء وكل ما سواه مربوب (١) .

والاستفهام للإنكار وفي هذا الكلام من التقريع والتوبيخ لهم ما لا يقادر قدره (٢) .

وقوله تعالي: ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾ علة لما قبله، أي أن بقاءكم في الشرك ليس عاقبته على أحد إلا عليكم، فإنه لا تكسب كل نفس إثمًا إلا كان جزؤه عليها لا يتعداها إلي غيرها، وهو نظير قوله تعالي ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ (٣) .

ثم يكمل الحق تبارك وتعالي الآية فيقول: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ وهذا القول تكملة للجملة السابقة مؤكدة لها، فكما أن ما تكسبه كل نفس لايتعدي منه شيء إلي غيرها، كذلك لا تحمل نفس عن نفس شيئًا، فالمعني: لا تغني نفس عن نفس شيئًا تحمله عنها. أي كل نفس تزر وزر نفسها، فيفيد أن وزر كل أحد عليه، وأنه لا يحمل غيره شيئًا من وزره الذي وزره، وأنه لا تبعة على أحد من وزر غيره قريب أو صديق (٤).

وفي قوله تعالي: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ رد لما كانت عليه الجاهلية من مؤاخذة القريب بذنب قريبه، والواحد من القبيلة بذنب الأخر. وقد قيل أن المراد بهذه الآية في الآخرة والتي قبلها لقوله تعالي: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ (٥)، ومثله قول زينب بنت جحش: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال: **نعم إذا كثر الخبث** (٦)، والأولى حمل الآية على ظاهرها: أعني العموم وما ورد من المؤاخذة بذنب الغير كالدية التي تحملها العاقلة ونحو ذلك، فيكون في حكم المخصص بهذا العموم ويقر في موضعه، ولا يعارض هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ

(١) تفسير المنار ٢١٦/٨ بتصرف .

(٢) فتح القدير ١٨٦/٢ بتصرف .

(٣) سورة البقرة / الآية ٢٨٦ .

(٤) التحرير والتنوير ٢٠٧/٨ بتصرف .

(٥) سورة الأنفال / الآية ٢٥ .

(٦) جزء من الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء باب قصة يأجوج ومأجوج ١٣٧/٤، ١٣٨، ١٣٩، والإمام مسلم في صحيحه كتاب الفتن وأشراط الساعة باب اقتراب الفتن و فتح ردم يأجوج ومأجوج ٢٢٠٧/٤ حديث رقم ٢٨٨٠ ، والخبث: الفسق والفجور والمعاصي.

أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ (١) ، فإن المراد بالأثقال التي مع أثقالهم هي أثقال الذين يضلونهم كما في الأية الأخرى: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (٢).

وأذهب إلى ما ذهب إليه العلامة الشوكاني من كون الآية عامة وما ورد مما يشكل على هذا العموم فيعد حالة خاصة مخصوصة.

وعموم لفظ "وِزْرَ" يقتضى اطراد الحكم في أمور الدنيا والآخرة (٣) .

ثم يختم الحق تبارك وتعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ أي أن مرجعكم يوم القيامة إلى الله فيخبركم بما كنتم فيه تختلفون في الدنيا، وحينئذ يكون الجزاء بيد الله وحده فيجازى كل واحد على عمله ويظهر الحق من الباطل.

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو "لاتزر وازرة وزر أخرى".

فالمسئولية في الإسلام فردية، فلا أحد يحمل وزر أحد، و لا أحد يعاقب بذنب أحد، فالإسلام لا يقر ما يسمى بالخطيئة الموروثة، و لا مبدأ الجار يؤخذ بجريرة جاره.

وقد نص القرآن الكريم على هذا المبدأ في أكثر من موضع:

ففي سورة الإسراء يقول الله تعالى: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (٤).

وقال تعالى في سورة فاطر: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (٥).

---

(١) سورة العنكبوت / الآية ١٣.

(٢) فتح القدير للشوكاني ١٨٦/٢، والآية رقم ٢٥ من سورة النحل .

(٣) التحرير والتنوير ٢٧/ ١٣١ .

(٤) الآية ١٥ .

(٥) الآية ١٨ .

وقال تعالى في سورة الزمر: ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾(١) .

وقال تعالى في سورة النجم: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) ﴾(٢) .

فإذا نظرنا إلى الآيات الثلاث الأولى وجدنا أنها كالآية التي معنا، جاءت في سياق الحديث عن العمل والجزاء، وأن جزاء المرء على كسبه لا يتعداه إلى غيره.

أما في آيات سورة النجم فإخبار بأن هذا المبدأ وهو "لا تزر وازرة وزر أخرى" منصوص عليه في صحف سيدنا موسى عليه السلام وهي التوراة، و في صحف سيدنا إبراهيم عليه السلام التي سجل فيها ما أوحى الله تعالى إليه.

ويذكر العلامة محمد الطاهر بن عاشور أنه حكي في التوارة عن إبراهيم أنه قال في شأن قوم لوط "أفتهلك البار مع الآثم"، وفي صحف موسى في التوارة "لا يقتل الآباء عن الأولاد ولا يقتل الأولاد عن الآباء كل إنسان بخطيئته يقتل" (٣). فجاء القرآن الكريم مؤكدًا لهذا المبدأ.

يقول صاحب تفسير المنار معلقًا على قوله تعالى ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾: "وهي قاعدة من أصول دين الله تعالى الذي بعث به جميع رسله، وهى من أعظم أركان الإصلاح للبشر في أفرادهم وجماعاتهم، لأنها هادمة لأساس الوثنية، وهادية للبشر إلى ما تتوقف عليه سعادتهم الدنيوية والأخروية (وهو عملهم)، فالدين قد علمنا أن سعادة الناس وشقاءهم بأعمالهم" (٤).

---

(١) الآية ٧ .
(٢) الآيات ٣٦: ٣٨ .
(٣) التحرير والتنوير ١٣١/٢٧ بتصرف .
(٤) تفسير المنار ٨/ ٢١٧ بتصرف .

ويقـول الأسـتاذ محمـد عـزة دروزة معلقًـا عـلى جملـة ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ في سـورة النجم[١]: "تكررت أربع مرات أخرى في أربع سور [٢] وفي كل المقامات جاءت في صدد كسب الإنسان لعمله ومسئوليته عنه أمام الله. حيث ينطوي في ذلك إيذان قرآني بأن كل إنسان مسؤول عن عمله، وبأن الله تعالى لا يمكن أن يحمل أحدًا مسئولية عمل صدر عن غيره، حيث يمكن أن يقال إن هذا من المبادئ القرآنية المحكمة المتسقة مع مبادئ الحق والعدل التي بشرت بها الدعوة الإسلامية" [٣].

ومن النقلين السابقين يتضح لنا أن "لا تزر وازرة وزر أخرى" مبدأ عظيم من مبادئ القرآن الكريم وهو مبدأ المسؤولية الفردية.

***

(١) الآية ٣٨ .

(٢) الأنعام ١٦٤، والإسراء ١٥، وفاطر ١٨، والزمر ٧ .

(٣) التفسير الحديث ٢/١١٦ .

المبدأ الثامن عشر: إن الظن لا يغني من الحق شيئًا

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (١).

المعنى الإجمالي:

ومن جملة صفات هؤلاء المشركين، أن الكثيرين منهم لا يتبعون في معتقداتهم إلا مجرد الظن، ولا يبحثون عن الحق واليقين، والظن بصفة عامة لا ينفع في جانب الحق ولا يغني عنه شيئًا، والله تعالى عليم بما يفعله هؤلاء، فيحاسبهم ويجازيهم عليه.

التفسير:

جاءت هذه الآية الكريمة بعد آيات ضمت براهين دالة على بطلان اتخاذ المشركين آلهة من دون الله تعالى، وعلى وجوب اتباع الحق، فبينت أن ما يفعلونه مبني على الظن والظن لا يغني من الحق شيئًا.

يقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور: "فبعد أن أمر الله رسوله بأن يحجهم فيما جعلوه آلهة وهي لا تصرف ولا تدبير ولا هداية لها، أعقب ذلك بأن عبادتهم إياها اتباع لظن باطل، أي لوهم ليس فيه شبهة الحق" (٢).

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ﴾ أي: وما يتبع هؤلاء المشركون في إشراكهم بالله وجعلهم له أندادًا إلا مجرد الظن والتخمين والحدس، ولم يكن ذلك عن بصيرة بل ظن من ظن من سلفهم أن هذه المعبودات تقربهم إلى الله، وأنها تشفع لهم، ولم يكن ظنه هذا لمستند قط، بل مجرد خيال مختل وحدس باطل، وقيل المراد بالآية إنه ما يتبع أكثرهم في الإيمان بالله والإقرار به إلا ظنًا. والأول أولى" (٣).

وفي تخصيص هذا الاتباع بالأكثر إشارة إلى أن منهم من قد يتبع فيقف على حقيقة التوحيد وبطلان الشرك لكن لا يقبله مكابرة وعنادًا (٤). وقيل المراد بأكثرهم جميعهم.

(١) سورة يونس / الآية ٣٦.

(٢) التحرير والتنوير ١١/١٦٤.

(٣) فتح القدير للشوكاني ٢/٤٤٥ بتصرف.

(٤) تفسير أبي السعود ٤/١٤٥، وروح المعاني للآلوسي ١١/١١٥، ١١٦ بتصرف.

والظن: يطلق على مراتب الإدراك، فيطلق على الاعتقاد الجازم الذي لا يشوبه شك، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝٤٦﴾ (١)، ويطلق على الاعتقاد المشوب بشك، ويظهر أنه حقيقة في هذا الثاني، وأنه مجاز في الأول. وقد أطلق مجازًا على الاعتقاد المخطئ كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (٢) وقول النبي عليه الصلاة والسلام: "**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**" (٣).

ووجه الجمع بين هذه المتعارضات إعمال كل في مورده اللائق به بحسب مقامات الكلام وسياقه، فمحمل قوله هنا: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ أن العمل المشوب بشك لا يغني شيئًا في اتباع الحق المطلوب وذلك ما يطلب فيه الجزم واليقين من العلوم الحاصلة والدليل العقلي لأن الجزم فيها ممكن لمن أعمل رأيه إعمالًا صائبًا إذ أن الأدلة العقلية يحصل منها اليقين، فأما ما طريق تحصيله الأدلة الظاهرة التي لا يتأتى اليقين بها في جميع الأحوال فذلك يكتفي فيه بالظن الراجح بعد إعمال النظر وهو ما يسمى بالاجتهاد.

والجملة تعليل لما دل عليه القصر من كونهم ليسوا على شيء من الحق فكيف يزعمون أنهم على الحق.

والحق: هو الثابت في نفس الأمر. والمراد بها هنا معرفة الله وصفاته مما دل عليها الدليل العقلي مثل وجوده وحياته، وما دل عليها فعل الله مثل العلم والقدرة والإرادة (٤).

ومعنى ذلك أن الظن لا يفيد في مجال الاعتقاد، أما في غيره فهو متروك للاجتهاد.

يقول العلامة الآلوسي: "والمراد من الحق العلم والاعتقاد الصحيح المطابق للواقع، وفيه دليل لمن قال: إن تحصيل العلم في الاعتقاديات واجب" (٥).

---

(١) سورة البقرة / الآيتان ٤٥، ٤٦ .

(٢) سورة الحجرات / الآية ١٢.

(٣) صحيح البخاري كتاب الأدب باب يا أيها الذين اجتنبوا كثيرًا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ١٩/٨، صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها ١٩٨٥/٤ حديث رقم ٢٥٦٣ .

(٤) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ١٦٥/١١، ١٦٦ بتصرف .

(٥) روح المعاني ١١٦/١١ بتصرف .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾ تذييل للآيةالكريمة، ومعناه: أن الله عليم بما كانوا يفعلون بمقتضى اعتقاداتهم، فهو يحاسبهم ويجازيهم على كل عمل بحسبه. فيدخل فيها ما كان منهم من الإعراض عن البراهين القاطعة بصدهم الرسول ﷺ، وكذلك اتباع الظنون الفاسدة كالتقليد. وفي تذييل الآية بهذه الجملة من التهديد والوعيد ما ترى.

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو مبدأ "إن الظن لا يغني من الحق شيئًا"، ولهذا جاء التصريح بالظاهر دون الضمير حتى يكون جملة مستقلة بذاتها، حكمها عام وإن كانت متعلقة بسياق الآية.

يقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور: "وأظهر لفظ [الظن] دون ضميره لتكون الجملة مستقلة بنفسها فتسير مسير الأمثال" (١).

ويقول صاحب تفسير المنار: "والعبرة للمؤمن بالقرآن في هذه الآية والتي قبلها (٢)، وهما من آياته المحكمات في أصول الإيمان والإسلام، أن يكون غرضه من حياته تزكية نفسه وتكميلها باتباع الحق في كل اعتقاد، والهدى وهو الصلاح في كل عمل، وبناؤهما على أساس العلم دون الظن وما دونه من الخرص والوهم (٣)، فالعلم المفيد للحق والمبين للهدى في الدين هو ما كان قطعي الرواية والدلالة من الكتاب والسنة الذي قامت به الجماعة الأولى، وهو الشرع العام الذي لا يجوز للمسلمين التفرق والاختلاف فيه، فهو مناط وحدتهم، ورابطة جامعتهم" (٤).

والإسلام يحض أتباعه على اتباع الحق واليقين، والبعد عن الظن والشك، لأن الشك لا يزيل اليقين، واليقين هو المعتبر، فمن هنا كان قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾ مبدأ عامًا من المبادئ التي بينها القرآن الكريم.

---

(١) التحرير والتنوير ١١٦/٢٧ .

(٢) يقصد بها قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٥﴾ سورة يونس / الآية ٣٥ .

(٣) الخرص: الكذب، ومنه قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ١٠﴾ الآية رقم ١٠ من سورة الذاريات. أي الكذابون، والوهم: الغلط والخطأ وما يقع في الذهن من الظنون والخواطر .

(٤) تفسير المنار ٢٩٩/١١ .

المبدأ التاسع عشر: العقاب بالمثل

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾(١).

المعنى الإجمالي:

خطاب للنبي ﷺ خاصة، ثم للمسلمين عامة إلى يوم القيامة، بعدم الإفراط في العقوبة، والأمر بالمماثلة فيها، وتوجيه إلى ماهو خير من ذلك ألا وهو الصبر، فالعقوبة مباحة، لكن الصبر أفضل في الدنيا والآخرة.

التفسير:

جاءت هذه الآية الكريمة في سياق الآيات التي ختمت بها سورة النحل، وهي متصلة بما قبلها أتم اتصال، فقد سبقها قوله تعالى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (٢) أي إن كان المقام مقام الدعوة فلتكن دعوتك إياهم كما وصفنا، وإن كنتم أيها المؤمنون معاقبين المشركين على ما نالكم من أذاهم فعاقبوهم بالعدل لا بتجاوز حد ما لقيتم منهم(٣).

سبب نزول الآية: اختلفت أقوال المفسرين في سبب نزول هذه الآية الكريمة.

فقال الإمام القرطبي: "أطبق جمهور أهل التفسير أن هذه الآية مدنية، نزلت في شأن التمثيل بحمزة في يوم أحد، وذهب النحاس (٤) إلى أنها مكية، والمعنى متصل بما قبلها من المكي اتصالًا حسنًا، لأنها تتدرج الرتب من الذي يدعى ويوعظ إلى الذي يجادل، إلى الذي يجازى على فعله. ولكن ما روي عن الجمهور أثبت" (٥).

---

(١) سورة النحل / الاية ١٢٦ .

(٢) سورة النحل / الآية ١٢٥ .

(٣) التحرير والتنوير ١٤/٣٣٥ بتصرف .

(٤) هو أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المصري، أبو جعفر النحاس: مفسر، أديب. مولده ووفاته بمصر. زار العراق واجتمع بعلمائه. صنف "تفسير القرآن"، و"إعراب القرآن"، و"ناسخ القرآن ومنسوخه" كانت وفاته سنة ٣٣٨ هـ. الأعلام للزركلي ١/٢٠٨ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن١٠/٢٠١ بتصرف .

وذكر الإمام السيوطي لنزول هذه الآية سببين:

الأول: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة حين استشهد وقد مثل به فقال: لأمثلن بسبعين منهم مكانك، فنزل جبريل والنبي ﷺ واقف بخواتيم سورة النحل "وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به" إلى آخر السورة فكف رسول الله ﷺ وأمسك عما أراد.

الثاني: عن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون، ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم، فقال الأنصار: لأن أصبنا منهم يومًا مثل هذا لَنُرْبِيَنَّ (١) عليهم، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله "وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ... الآية".

ثم عقب الإمام السيوطي على ذلك فقال: وظاهر هذا تأخر نزوله إلى الفتح، وفي الحديث الذي قبله نزولها بأحد، وجمع ابن الحصار (٢) بأنها نزلت أولًا بمكة ثم ثانيًا بأحد ثم ثالثًا يوم الفتح تذكيرًا من الله لعباده (٣).

أقول: وجمع ابن الحصار الذي نقله الإمام السيوطي جمع لطيف، وليس فيه ما يثبت تكرار النزول إذ إن غاية النزولين الثاني والثالث إنما هو مجرد التذكير فقط، وليس نزولًا مخصوصًا بعينه.

وقد ذكر الإمام الطبري لنزول هذه الآية الكريمة أسبابًا كالسابقة ثم حكى عن فرقة أنها قالت: إنما نزلت فيمن أصيب بظلامة فلا يحل له أن ينال ممن ظلمه أكثر مما نال الظالم منه (٤).

وهذا السبب الأخير سبب عام، والأسباب المذكورة قبله خاصة، ولا تعارض؛ لأن خصوص السبب لا ينافي عموم المعنى، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ أي إن أردتم المعاقبة فلتكن بالمثل من غير إفراط وتجاوز.

(١) لَنُرْبِيَنَّ: لنزيدن في التمثيل بقتلاهم.

(٢) هو علي بن محمد بن محمد بن إبراهيم ابن موسى الخزرجي، أبو الحسن الحصار: فقيه إشبيلي الأصل، نشأ بفاس. سمع بها وبمصر وغيرهما. وجاور بمكة، وتوفي بالمدينة سنة ٦١١ هـ. له كتب في "أصول الفقه" وكتاب في "الناسخ والمنسوخ" سمعه من الحافظ المنذري، و"البيان في تنقيح البرهان". الأعلام للزركلي ٤/ ٣٣٠، ٣٣١.

(٣) لباب النقول في أسباب النزول صـ١٦٤ بتصرف .

(٤) جامع البيان ١٤/ ١٣٢ .

وفي هذه الجملة حث على العفو وفيها رمز وإشارة إلى أن الأولى العفو وترك المعاقبة، وذلك كقول الطبيب للمريض: إن كنت تأكل الفاكهة فكل التفاح، والمعنى أن الأولى بك ألا تأكله (١).

وسمي سبحانه الفعل الأول الذي هو فعل البادئ بالشر عقوبة مع أن العقوبة ليست إلا فعل الثاني للمشاكلة، وهى باب معروف وقع في كثير من الكتاب العزيز (٢). مثل قوله تعالى ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾ (٣).

ثم يرغب الحق تبارك وتعالى ويحث على العفو في ختام الآية الكريمة بقوله: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ والمعنى: ولئن صبرتم وتركتم المعاقبة بالمثل فإن صبركم ذلك خير لكم.

ووضع الصابرين موضع الضمير ثناء من الله عليهم بصبرهم على الشدائد، وبصبرهم على المعاقبة أو أنه أراد بالصابرين جنسهم فالصبر خير للصابرين ويندرج فيه صبر المخاطبين، ويندرجون هم في الصابرين (٤).

وللترغيب في العفو والصبر علة ذكرها العلامة محمد الطاهر بن عاشور حيث قال: "ورغبهم في الصبر على الأذى، أي بالإعراض عن أذى المشركين وبالعفو عنهم، لأنه أجلب لقلوب الأعداء، فوصف بأنه خير، أي خير من الأخذ بالعقوبة، كقوله تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (٥)، وقوله: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ " (٦).

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو مبدأ "وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به"، ومعناه العقاب أو القصاص بالمثل أو رد الإساءة بمثلها من غير تجاوز

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٠/١٤٣ بتصرف.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٣/٢٠٣، ٢٠٤.

(٣) سورة آل عمران / الآية ٥٤.

(٤) البحر المحيط لأبي حيان ٥/٥٣١ بتصرف.

(٥) سورة فصلت / الآية ٣٤.

(٦) التحرير والتنوير ١٤/٣٣٦ بتصرف، والآية رقم ٤٠ من سورة الشورى.

كما في قوله تعالى ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾ (١)، وقوله ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾ (٢).

وإن كان للآية سبب نزول إلا أن لفظها عام والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل إنسان قد وقع عليه نوع من الظلم عادة ما يريد أن يقتص وينتقم من ظالمه والانتقام يكون عن غضب فهو ادعى للإفراط فجاء القرآن الكريم ليبين أن رد الإساءة إنما يكون بمثلها من غير تجاوز، جاء القرآن الكريم بهذا المبدأ ليكبح جماح النفس عن مجاوزة حد العدل والإنصاف.

يقول الأستاذ سيد قطب معلقًا على هذه الآية الكريمة والتي قبلها (٣): "هذا هو منهج الدعوة ودستورها مادام الأمر في دائرة الدعوة باللسان والجدل بالحجة، فإما إذا وقع الاعتداء على أهل الدعوة فإن الموقف يتغير، فالاعتداء عمل مادي يدفع بمثله إعزازًا لكرامة الحق، ودفعًا لغلبة الباطل، على ألا يتجاوز الرد على الاعتداء حدوده إلى التمثيل والتفظيع، فالإسلام دين العدل والاعتدال، ودين السلم والمسالمة، إنما يدفع عن نفسه وأهله البغي ولا يبغى "وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به" وليس ذلك بعيدا عن دستور الدعوة فهو جزء منه. فالدفاع عن الدعوة في حدود القصد والعدل يحفظ لها كرامتها وعزتها..... ثم يكمل فيقول: ومع تقرير قاعدة القصاص بالمثل، فإن القرآن الكريم يدعو إلى العفو والصبر، حين يكون المسلمون قادرين على دفع الشر ووقف العدوان، في الحالات التي يكون العفو فيها والصبر أعمق أثرًا. وأكثر فائدة للدعوة، فأما إذا كان العفو والصبر يهينان دعوة الله ويرخصانها فالقاعدة الأولى هي الأولى" (٤).

ومما سبق يتضح لنا أن مبدأ "العقاب بالمثل" من المبادئ العامة التي تضمنها القرآن الكريم.

***

(١) سورة الشورى / الآية ٤٠ .

(٢)سورة البقرة / الآية ١٩٤ .

(٣) أعني قوله تعالى ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ سورة النحل / الآية ١٢٥ .

(٤) في ظلال القرآن ٤ / ٢٢٠٢ بتصرف .

المبدأ العشرون: إن العهد كان مسئولاً

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ (١).

المعنى الإجمالي:

ومن جملة ما نهى الله تعالى عنه عباده، أن يتصرفوا في مال اليتيم إلا بالطريقة التي هي أحسن لهم، وهي ما تحقق لصاحبه اليتيم المنفعة من تنمية واستثمار ونحو ذلك، حتى يبلغ هذا اليتيم سن البلوغ، ويحسن التصرف في ماله، ثم يأمرهم الله جل وعلا بالوفاء بالعهود عامة؛ لأن الله تعالى سوف يحاسب عليها يوم القيامة.

التفسير:

جاءت هذه الآية الكريمة في سياق آيات ضمت مجموعة من الأوامر و النواهي، فسبقها النهى عن الزنا وعن القتل وكلاهما يرجع إلى إتلاف النفوس إذ إن الزنا يوجب اختلاط الأنساب، وذلك يوجب منع الاهتمام بتربية الأولاد وذلك يوجب انقطاع النسل، وذلك يوجب المنع من دخول الناس في الوجود، و أما القتل فهو عبارة عن إعدام الناس بعد دخولهم في الوجود، فلما ذكر سبحانه وتعالى النهى عن إتلاف النفوس اتبعه بالنهى عن إتلاف الأموال لأنها أعز الأشياء بعد النفوس. وأحق الناس بالنهى عن إتلاف أموالهم هو اليتيم، لأنه لصغره وضعفه وكمال عجزه يعظم ضرره بإتلاف ماله فلهذا السبب خصهم الله تعالى بالنهى عن إتلاف أموالهم (٢).

فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾وهذه الوصية من أهم الوصايا التي جاء بها القرآن الكريم، وأوصى الله تعالى بها في غير موضع فقال تعالى في سورة النساء: ﴿ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ ﴾ (٣) ، وقال تعالى أيضًا في سورة الأنعام: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ

---

(١) سورة الإسراء / الآية ٣٤ .

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٠/ ٢٠٥ بتصرف .

(٣) الآية ٦ .

أَشُدَّهُۥ ﴾ (١) ، وعناية القرآن الكريم بهذا الأمر ما كانت إلا لخطورته، إذ إنهم كانوا في الجاهلية يستحلون أموال اليتامى لضعفهم وقله نصيرهم، فنهى الله سبحانه وتعالى عن هذا الأمر بل وتوعد من يفعله فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ (٢) .

وفى تفسير قوله تعالى ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ وجهان:

الأول: إلا بالتصرف الذي ينميه ويكثره.

الثاني: المراد هو أن تأكل معه إذا احتجت إليه، وروى عن ابن عباس قال: إذا احتاج أكل بالمعروف فإذا أيسر قضاه، فإن لم يوسر فلا شيء عليه (٣).

ومعنى قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ المراد به بلوغ النكاح لقوله تعالى ﴿ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ (٤).

وقال الإمام الخازن: "المراد ببلوغ الأشد كمال عقله ورشده بحيث يمكنه القيام بمصالح ماله و إلا لم ينفك عنه الحجر" (٥).

ثم يختم الحق تبارك وتعالى الآية بالأمر بالوفاء بالعهد فيقول جل شأنه: ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ والتعريف في [العهد] للجنس المفيد للاستغراق حتى يشمل كل عهد جائز.

وكل ما أمر الله به ونهي عنه فهو من العهد، فيدخل في ذلك ما بين العبد وربه، وما بين العباد بعضهم البعض. والوفاء بالعهد هو القيام بحفظه على الوجه الشرعي والقانون المرضي (٦) .

---

(١) الآية ١٥٢ .

(٢) سورة النساء / الآية ١٠ .

(٣) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٠ / ٢٠٥، ٢٠٦ بتصرف .

(٤) سورة النساء / الآية ٦ .

(٥) تفسير الخازن ٤ / ١٥٩ بتصرف .

(٦) فتح القدير للشوكاني ٣/ ٢٢٦ .

وقد ورد الأمر بالوفاء بالعهد في كثير من آيات القرآن الكريم، حيث قال الله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ (١) ، وقال تعالى أيضًا: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ (٢)، وإذا نظرنا في السنة النبوية المطهرة نجد أن النبي ﷺ قد عد عدم الوفاء بالعهد من أمارات النفاق فقال ﷺ: "**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا اؤتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر**" (٣).

وبذلك يتضح لنا أن الوفاء بالعهد من الأمور التي أمر بها الكتاب والسنة لأنه أصل من أصول الدين، لما يترتب على الوفاء به من مصالح وعلى عدم الوفاء به من مفاسد.

وجملة ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ تعليل للأمر، أي للإيجاب الذي اقتضاه، وإعادة لفظ [العهد] في مقام إضماره للاهتمام به، ولتكون هذه الجملة مستقلة فتسير مسرى المثل (٤)، وهذا يؤيد كون هذه الجملة مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم.

ومعنى قوله ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ أي مسئولًا عنه فحذف الجار والمجرور، كما في قوله ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ (٥) أي ما يؤمرون به، وجوز أن يكون الكلام على حذف مضاف أي إن صاحب العهد كان مسئولًا، كما في قوله ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ (٦)، وقيل لا حذف أصلًا، والكلام على التخييل كأنه يقال للعهد لما نكثت وهلا وفي بك تبكيتًا للناكث كما يقال للموءودة في قوله ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ (٧) ، وجوز أن يكون ﴿مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ بمعنى مطلوبًا من سألت كذا إذا طلبت، فيطلب من المعاهد ألا يضيعه وأن يفي به (٨).

(١) سورة الأنعام / الآية ١٥٢ .

(٢) سورة النحل / الآية ٩١ .

(٣) صحيح البخاري كتاب: الإيمان باب: علامة المنافق ١/١٢، ونحوه في صحيح مسلم كتاب: الإيمان باب: بيان خصال المنافق ١/٧٨ حديث رقم ٥٨ .

(٤) التحرير والتنوير ١٥/ ٩٧ .

(٥) سورة التحريم / الآية ٦ .

(٦) سورة يوسف / الآية ٨٢ .

(٧) سورة التكوير / الآيتان ٨، ٩ .

(٨) روح المعاني للآلوسي ١٥/٧١ بتصرف .

وجميع هذه الوجوه محتملة، ومع أن كل واحد منها يفيد معنى غير الآخر إلا أن جميعها يحث على الوفاء بالعهد ويحض على عدم إضاعته.

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو "إن العهد كان مسئولًا".

وإن كانت هذه الجملة وثيقة الصلة بالآية الكريمة إلا أن التصريح فيها بلفظ العهد مرة ثانية دون الضمير جعلها كأنها جملة مستقلة بذاتها، وجعلها صالحة لأن تكون مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم.

وهذه الجملة المستقلة جاءت بعد الأمر بالوفاء بالعهد لتبين أن الله سبحانه وتعالى سيسألنا عنه، ومعروف أن جميع ما أمرنا الله تعالى به أو نهانا عنه سوف يسألنا عنه، ولكنه سبحانه وتعالى لم يعقب جميع أوامره أو نواهيه بمثل هذه الجملة، وهذا يدل على أهمية العهد والوفاء به فالوفاء بالعهد كما يقال هو أساس الاجتماع البشري فلهذا جاء التأكيد عليه بهذا المبدأ العظيم.

يقول الأستاذ محمد عزة دروزة معلقًا على أن هذه الآية الكريمة وسياق الآيات التي قبلها والتي بعدها قد احتوت على تلقينات هامة: "ومما يلفت النظر إليه خاصة.. الأمر بالوفاء بالعهد والتنبيه إلى أن الإنسان مسئول عن عهده أمام الله. ولقد تكرر هذا الأمر بأساليب مختلفة في القرآن المكي ثم المدني" (١).

ومما سبق كله يتضح لنا أن الآية الكريمة قد تضمنت مبدأ عظيمًا من مبادئ القرآن الكريم.

***

(١) التفسير الحديث ٣/٣٧٨: ٣٨٠ بتصرف .

المبدأ الحادي والعشرون: تكريم الله تعالى لبني آدم

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ (١).

المعنى الإجمالي:

ولقد أنعمنا على ذرية آدم بنعم كثيرة، بأن كرمناهم بالعقل، واعتدال القامة، وإرسال الرسل، وغير ذلك، وسخرنا لهم المراكب المختلفة لحملهم في البر والبحر، ورزقناهم من صنوف الطيبات من المطاعم والمشارب التي أحللنا لهم، وفضَّلناهم على كثير من المخلوقات تفضيلا عظيمًا.

التفسير:

- هذا إجمال لذكر النعمة التي أنعم الله تعالى بها على بني آدم.

ففي الآيات التي سبقت هذه الآية كان التهديد بالخسف والإغراق، فلما هدد سبحانه وتعالى بما ذكر، ناسب ذلك أن يعقبه بالتذكير بالنعمة، ليذكروا فيشكروا ويقلعوا عن الكفر والعصيان (٢).

وقد جمعت هذه الآية الكريمة خمس نعم من الله تعالى أنعم بها على بني آدم وهى: التكريم، الحمل في البر، الحمل في البحر، الرزق من الطيبات، التفضيل على كثير من المخلوقات.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾

والتكريم: جعله كريمًا، أي نفيسًا غير مبذول ولا ذليل في صورته ولا في حركة مشيه وفي بشرته(٣).

وفي معنى قوله: ﴿كَرَّمْنَا﴾ أقوال:- قيل: بالعقل، وقيل: بتناول الطعام بأيديهم لا بأفواههم كسائر الحيوانات، وقيل: بتعديل القامة وامتدادها، وقيل: بالمطاعم واللذات، وقيل: بالتسلط على غيرهم من الخلق وتسخيره لهم، وقيل: بجعل محمد ﷺ منهم، وقيل: بخلق الله تعالى أباهم آدم

(١) الاسراء/ ٧٠.

(٢) البحر المحيط لأبي حيان ٦/ ٥٨ بتصرف.

(٣) التحريروالتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ١٥/ ١٦٥ .

بيديه، وقيل بتدبير المعاش والمعاد، وقيل وقيل والكل في الحقيقة على سبيل التمثيل، ومن أدعى الحصر في واحد فقد أدعى غلطًا ورام شططًا وخالف صريح العقل وصحيح النقل (١) .

ثم يكمل الحق تبارك وتعالى بيان نعمه على بني آدم بقوله: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ والحمل في البر يكون على الخيل والبغال والحمير والإبل وغير ذلك، كما قال سبحانه وتعالى ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٢)، أما الحمل في البحر فيكون على السفن.

يقول الإمام الخازن: «وهذا من مؤكدات التكريم لأن الله تعالى سخر لهم هذه الأشياء لينتفعوا بها ويستعينوا بها على مصالحهم» (٣).

وقوله: ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: ورزقناهم من صنوف الطيبات التي أحللنا لهم كلذيذ المطعم والمشرب والملبس وغير ذلك من وسائل العيش التي فيها منفعة لهم، وهذا أيضًا من النعم العظيمة التي أنعم الله بها على بني آدم.

وذلك "لأن الله تعالى ألهم الإنسان أن يطعم ما يشاء مما يروق له، وجعل في الطعوم أمارات على النفع، وجعل ما يتناوله الإنسان من المطعومات أكثر جدًا مما يتناوله غيره من الحيوان الذي لا يأكل إلا أشياء اعتادها" (٤).

ثم يختم الحق تبارك وتعالى الآية بقوله: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ ، وقد قال سبحانه في أول الآية ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ وقال في آخرها ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ﴾ ولابد من الفرق بين هذا التكريم والتفضيل وإلا لزم التكرر، والأقرب أن يقال: إنه تعالى فضل الإنسان على سائر الحيوانات بأمور خلقية طبيعية ذاتية مثل العقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المديدة، ثم إنه تعالى عرضه بواسطة ذلك العقل والفهم لاكتساب العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة، فالأول هو التكريم والثاني هو التفضيل (٥) .

---

(١) روح المعاني للآلوسي ١٥/١١٧، ١١٨ بتصرف .
(٢) سورة النحل / الآية ٨ .
(٣) تفسير الخازن ٣/١٧٠ .
(٤) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ١٥/١٦٥ .
(٥) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢١/١٦، ١٧ .

فكأنه قيل فضلناهم بالتعريض لاكتساب ما فيه النجاة الزلفى بواسطة ما كرمناهم به فعليهم أن يشكروا ويصرفوا ما خلق لهم لما خلق له فيوحدوا الله تعالى ولا يشركوا به شيئًا ويرفضوا ما هم عليه من عبادة غيره عز وجل [١].

ومما سبق يتضح لنا أن التكريم منظور فيه إلى الأمور الذاتية الخلقية الطبيعية، أما التفضيل فمنظور فيه إلى الأمور الكسبية.

وإقحام لفظ [كثير] في قوله تعالى ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ يعلم منه أن ثم مخلوقات غير مفضل عليها بنو آدم تكون مساوية أو أفضل إجمالًا أو تفصيلًا، والإتيان بالمفعول المطلق في قوله ﴿تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ لإفادة ما في التنكير من التعظيم أي تفضيلًا كبيرًا عظيمًا[٢].

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم إلا وهو مبدأ التكريم.

فالله سبحانه وتعالى قد كرم الإنسان بأشياء كثيرة مما سبق ذكرها عند تفسير الآية الكريمة ومن ذلك أنه خلقه ونفخ فيه من روحه، وانعم عليه بالعقل الذي هو مناط التكليف، وكرمه بالإرادة المسئولة فخلقه طاهرًا من الذنوب وأنزل عليه الرسالات يبين له فيها الخير والشر، ومكنه من عمل ما يريد، وحمله مسئوليه عمله وحده، ولم يحمله وزر غيره.

إن هذا التكريم تكريم للإنسان من حيث هو إنسان، دون النظر إلى نسبه أو جنسه أو وطنه وجنسيته أو لونه أو ماله أو جسمه وشكله أو مهنته أو طبقته ومكانته الاجتماعية وهذا هو قمة المساواة في الإنسانية بين بني آدم.

إن نظرة القرآن الكريم للإنسان نظرة راقيه، نظرة تقدير وتكريم لا نظرة احتقار وإذلال كما في الحضارات الحديثة، ثم أين هم دعاة حقوق الإنسان من هذه الآية الكريمة وهذا المبدأ العظيم ؟ إن هذا المبدأ قد سبق مواثيق حقوق الإنسان بل إنه لو فهم جيدًا وطبق بجميع ما يحمله لكان هو الأساس في سن قوانين حقوق الإنسان.

---

(١) روح المعاني للآلوسي ١١٨/١٥ .

(٢) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ١٦٥/١٥ بتصرف .

يقول الأستاذ محمد عزة دروزة معلقًا على هذه الآية: "وقد تضمنت هذه الآية تقريرًا ربانيًا بما اقتضت حكمة الله تعالى من تكريمه لبني آدم ورزقهم من الطيبات وتيسير سيرهم في البر والبحر وتفضيلهم على كثير من مخلوقاته" (١).

وهذا التقرير الرباني هو المبدأ القرآني العام الذي تضمنته الآية الكريمة.

***

(١) التفسير الحديث ٣/ ٤٠٧ بتصرف .

المبدأ الثاني والعشرون: الأمة واحدة

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢ ﴾ (١) ، وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢ ﴾ (٢) .

المعنى الإجمالي:

إن هذه الملة – ملة الإسلام – ملة واحدة، هي ملة الأنبياء جميعًا من لدن سيدنا آدم إلى سيدنا محمد عليهم جميعًا الصلاة والسلام، فحافظوا عليها، ولا تتفرقوا شيعًا وأحزابًا، وأنا خالقكم، فأفردوني بالعبادة، ولا تشركوا معي شيئًا، وامتثلوا أوامري، واجتنبوا نواهيَّ، وهاتان الآيتان دعوة إلهية لتحقيق وحدة الأمة.

التفسير:

ورد وصف الأمة بأنها واحدة في القرآن الكريم في هاتين الآيتين السابقتين.

أما الآية الأولى منهما فقد جاءت بعد ذكر جمع كثير من الأنبياء والمرسلين السابقين عليهم جميعًا السلام، وذكر طرف من سيرتهم، وحياتهم، ومواقفهم، وعبادتهم، ودعوتهم، وما جرى لهم مع أقوامهم، وصراعهم مع الباطل، وصبرهم على أذى الكافرين، وفضل الله عليهم ، ثم عقبت بعد ذلك بهذا التعقيب: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢ ﴾.

وأما الآية الثانية فهي من جملة ما خوطب به الأنبياء، وقد سبقها الحديث عن عدد منهم عليهم جميعًا السلام، ثم قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢ ﴾ (٣) .

فأشارت هاتان الآيتان السابقتان بعد الحديث عن معظم الأنبياء إلى أن أمة الأنبياء جميعًا أمة واحدة، ويمكن أن نفسر الأمة الواحدة بأنها: الدين الواحد والملة الواحدة لجميع الأنبياء من لدن

---

(١) سورة الأنبياء / الآية ٩٢ .

(٢) سورة المؤمنون / الآية ٥٢ .

(٣) سورة المؤمنون / الآيتان ٥١، ٥٢ .

سيدنا آدم إلى سيدنا محمد عليهم جميعًا الصلاة والسلام، وهو دين الإسلام الذي أوحاه الله تعالى إليهم [١].

ومما ينبغي الإشارة إليه والتنبيه عليه أن تفسير الأمة هنا بأنها الدين لا ينفصل عن تفسير آخر للفظ الأمة بمعنى الجماعة، إذ إن الدين لا يتصور بدون جماعة تحمله، وهذا التفسير من مستلزمات التفسير الأول. بعبارة أخرى: إن معنى الجماعة لا ينفك عن تفسير الأمة هنا بالدين.

يقول الشيخ عبد الكريم الخطيب [٢]: "وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ ﴾ إشارة إلى أن هذا هو المجتمع الإنساني، وتلك هي الأمة الإنسانية التي يبعث الله فيها رسله ويصطفي منها من يشاء من عباده .. فهذه هي الأم التي ينتسب إليها كل إنسان، وفيها هذه الوجوه المشرقة التي عرضتها الآيات السابقة، والتي ينبغي أن يقيم الناس وجوههم عليهم، وأن يقتدوا بهم، فهم جميعًا من طينة واحدة، وإنما يكون التفاوت بينهم بالجهد الذي يبذله الإنسان منهم لإعلاء إنسانيته ورفعها من هذا الطين.

وفي قوله تعالى: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ إشارة إلى تلك الوحدة التي تجمع الناس جميعًا وتجعل منهم مجتمعًا واحدًا وإن اختلفوا ألسنة وتباينوا ألوانًا وتناءوا ديارًا وأوطانًا [٣].

والأُمة بضم الهمزة اسم للجماعة الذين أمرهم واحد، مشتقة من الأَم بفتح الهمزة وهو القصد أي يؤمون غاية واحدة، وإنما تكون الجماعة أمة إذا اتفقوا في الموطن أو الدين أو اللغة أو في جميعها[٤].

---

(١) راجع هذا المعنى – على سبيل المثال – في: الكشاف للزمخشري ٢/ ٥٨٣ ، وروح المعاني للآلوسي ١٧/ ٨٩ ، والتحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ١٧/ ١٤٠، ١٤١ .

(٢) هو عبد الكريم محمود يونس أحمد حسن الخطيب: مفكر باحث من أهالي مصر. ولد بالصعيد وتخرج في مدرسة المعلمين بسوهاج فعمل بالتعليم والتحق بدار العلوم فلما تخرج فيها عمل بالمدارس الثانوية وانتقل إلى وزارة الأوقاف. كان عذب الحديث، صافي الذهن والقريحة، سمح الخلق، متواضعًا، عازفًا عن الشهرة. توفي في شهر صفر الخير ١٤٠٦هـ–١٩٨٦م وترك ما يربو على الخمسين كتابًا منها: "التفسير القرآني للقرآن"، و"القصص القرآني"، و"التعريف بالإسلام في مواجهة العصر الحديث وتحدياته". تتمة الأعلام للزركلي تأليف: محمد خير رمضان يوسف ١/ ٣١٧، ٣١٨ ، إتمام الأعلام ذيل لكتاب الأعلام للزركلي تأليف: د/ نزار أباظة، ومحمد رياض المالح صـ١٦٤، ط: دار صادر بيروت.

(٣) التفسير القرآني للقرآن ٥/ ٩٥٠، ٩٥١ .

(٤) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٢/ ٣٠٠ عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ ﴾...الآية سورة البقرة / الآية ٢١٣.

والأمة في نظر المسلمين ممتدة عبر الزمان فيما يمكن أن نسميه بالدين الإلهي، فالأمة تبدأ من آدم، وتشمل كل الرسل والأنبياء في موكبهم المقدس عبر التاريخ، والأمة بعد النبي ﷺ ممتدة عبر الزمان والمكان، وفي جميع الأحوال ولدى جميع الأشخاص، وهذا أمر غاية في الأهمية إذا اعتبرناه تأسيسًا لما ندعو إليه من معاصرة وإصلاح وتجديد [١].

وما سبق كله كان توضيحًا لمعنى الأمة في الآيتين الكريمتين، وكيفية استنباط هذا المبدأ وهو "الأمة واحدة" منهما.

وإذا عدنا إلى الآيتين مرة أخرى، وتعرضنا لهما بشيء من التفصيل والتوضيح وجدنا أن:

الخطاب في الآية الأولى للناس قاطبة، والإشارة إلى ملة التوحيد والإسلام، والمراد بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ الأمر بالمحافظة على تلك الملة ومراعاة حقوقها، والمعنى: أن ملة الإسلام ملتكم التي يجب أن تحافظوا على حدودها وتراعوا حقوقها فافعلوا ذلك [٢] .

وأفاد قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ الحصر.

والمعنى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ﴾ أي إلهكم وحدي ﴿فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ أي أفردوني بالعبادة [٣].

فالله تعالى هو رب جميع الناس وخالقهم ورازقهم، فإذا كان هذا شأنه فيهم فهو المستحق وحده للعبادة.

وهذه الآية الكريمة قد بينت أمرين: بينت أن الأمة واحدة، وأن الإله واحد.

والآية الثانية - آية سورة المؤمنون - وهي من جملة ما خوطب به الأنبياء ولذلك جاء فيها العطف بالواو دون الأولى فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ [٤] ﴾ فمعناها: اعلموا - أيها الرسل - أن

(١) من مقال بعنوان: (مفهوم الأمة) لفضيلة الأستاذ الدكتور/ علي جمعة – مفتي الديار المصرية. نشر بجريدة الأهرام في عددها الصادر يوم السبت الموافق/ ٣ من ربيع الآخر سنة ١٤٢٥هـ - ٢٢ مايو سنة ٢٠٠٤م.

(٢) روح المعاني ١٧/٨٩ بتصرف .

(٣) الجامع الأحكام القرآن للقرطبي ١١/ ٣٣٨ .

(٤) المؤمنين/ ٥٢.

هذه ملتكم وشريعتكم، ملة واحدة وشريعة متحدة يجمعها أصل هو أعظم ما بعث الله به أنبياءه وأنزل فيه كتبه، وهو دعاء جميع الأنبياء إلى عبادة الله وحده لا شريك له والمراد بها على هذا العقائد، إذ هي التي اتحدت في كل الشرائع، أما الأحكام الفرعية فقد اختلفت باختلاف الشرائع [١].

يقول الإمام الفخر الرازي: ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ أي أنه كما يجب اتفاقهم على أكل الحلال والأعمال الصالحة فكذلك هم متفقون على التوحيد وعلى الاتقاء من معصية الله تعالى.

فإن قيل: لما كانت شرائعهم مختلفة فكيف يكون دينهم واحدًا؟ قلنا: المراد من الدين ما لا يختلفون فيه من معرفة الله تعالى وصفاته، أما الشرائع فإن الاختلاف فيها لا يسمى اختلافًا في الدين، فكما يقال في الحائض والطاهر من النساء إن دينهن واحد وإن افترق تكليفهما فكذا هنا ويدل على ذلك قوله: ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ فكأنه نبه بذلك على أن دين الجميع واحد فيما يتصل بمعرفة الله تعالى واتقاء معاصيه فلا مدخل للشرائع وإن اختلفت [٢].

وإن قيل: لم قال تعالى في الأولى ﴿ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ ، وفي الثانية ﴿ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؟

كان الجواب: يجوز أن الله تعالى أمر بالعبادة وبالتقوى ولكن حكى في كل سورة أمرًا من الأمرين، ويجوز أن يكون الأمران وقعا في خطاب واحد، فاقتصر على بعضه في سورة الأنبياء وذكر معظمه في سورة المؤمنين بحسب ما اقتضاه مقام الحكاية في كلتا السورتين. ويحتمل أن يكون كل أمر من الأمرين: الأمر بالعبادة والأمر بالتقوى قد وقعا في خطاب مستقل تماثل بعضه وزاد الآخر عليه بحسب ما اقتضاه الخطاب من قصد إبلاغه للأمم كما في سورة الأنبياء، أو من قصد اختصاص الرسل كما في سورة المؤمنين. ويرجح هذا أنه قد ذكر في سورة المؤمنين خطاب الرسل بالصراحة.

ووجه ذلك أن آية سورة الأنبياء لم تذكر فيها رسالات الرسل إلى أقوامهم بالتوحيد عدا رسالة إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ ﴾ [٣] ثم جاء ذكر غيره من الرسل

(١) فتح البيان لصديق خان ٦/ ٢٩٠ .

(٢) التفسير الكبير ٢٣/١٠٥، ١٠٦ .

(٣) سورة الأنبياء / الآية ٥١ .

والأنبياء مع الثناء عليهم وطال البعد بين ذلك وبين قصة إبراهيم فكان الأمر بعبادة الله تعالى، أي إفراده بالعبادة الذي هو المعنى الذي اتحدت فيه الأديان، أولى هنالك لأن المقصود من ذلك الأمر أن يبلغ إلى أقوامهم، فكان ذكر الأمر بالعبادة أولى بالمقام في تلك السورة لأنه الذي حظ الأمم منه أكثر. إذ الأنبياء والرسل لم يكونوا بخلاف ذلك قط فلا يقصد أمر الأنبياء بذلك إذ يصيروا من تحصيل الحاصل إلا إذا أريد به الأمر الدوام.

وأما آية سورة المؤمنين فقد جاءت بعد ذكر ما أرسل به الرسل إلى أقوامهم من التوحيد وإبطال الشرك فكان حظ الرسل من ذلك أكثر كما يقتضيه افتتاح الخطاب بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ ﴾ فكان ذلك الأمر بالتقوى هنا أنسب بالمقام لأن التقوى لا حد لها. فالرسل مأمورون بها وبالازدياد منها كما قال تعالى في حق نبيه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ ﴾[1] ثم قال في حق الأمة: ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ ﴾[2].

التعليق على المبدأ القرآني:

وهاتان الآيتان الكريمتان قد تضمنتا مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو مبدأ "الأمة واحدة".

وإذا نظرنا إلى مفهوم الأمة بهذا المعنى وجدنا أن لدينا أمة الدعوة وهي الإنسانية كلها، وأمة الإجابة وهم الذين صدقوا النبي ﷺ ودينه ومنهجه في الحياة.

يقول الأستاذ سعيد حوى معلقًا على هاتين الآيتين: "إن الأمة التي ننتسب إليها هي أمة المسلمين جميعًا من لدن آدم حتى محمد ﷺ فالرسل وأتباعهم على مدار التاريخ البشري يشكلون أمة واحدة هذه الأمة هي الأمة الإسلامية وهي التي ينتسب إليها المسلم ولا يجوز أن ينتسب إلى غيرها انتساب إخاء وولاء.

هذه الأمة التي تدين لله بالإسلام على مدار التاريخ مرت بمرحلتين:

المرحلة الأولى: مرحلة ما قبل محمد ﷺ.

---

(١) سورة المزمل / الآيات ١ : ٤ .

(٢) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ١٨/ ٧٠، ٧١ . والآية رقم ٢٠ من سورة المزمل .

المرحلة الثانية: المرحلة التي تبدأ ببعثة النبي ﷺ.

فقبل سيدنا محمد ﷺ كانت الرسالة تظهر بشكل قومي، أي أن رسل الله كانوا يرسلون إلى أقوامهم خاصة، فكان الرسول ينادي قومه فقط، كما قص الله تعالى قصصهم علينا في القرآن الكريم من أنبياء الله ورسله سيدنا نوح وهود وشعيب وصالح عليهم جميعًا السلام كلهم كان نداؤهم يا قوم.

أما ببعثته ﷺ فقد انتقلت الدعوة من الإطار القومي إلى الإطار الإنساني فأصبح النداء (يا أيها الناس) (يا أيها الإنسان) وأصبحت الإنسانية كلها ملزمة باتباع رسول واحد هو سيدنا محمد ﷺ فلا يكون رسول بعده.

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[1] ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[2] ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[3]. وبهذا أصبحت شعوب البشر كلها، على اختلاف أجناسها وألوانها وألسنتها أمة لرسول واحد، يفترض عليها اتباعه والاقتداء به، والتسليم لشريعته، فإن استجابت هذه الشعوب كلها كانت أمة واحدة، وإن لم تستجب هذه الشعوب كلها، فمن استجاب منها أو من أفرادها فهم الذين يشكلون الأمة الإسلامية"[4].

وهذا المبدأ يشكل منطلقًا لوحدة الأمة في واقع معاشها، ومن خلاله نستطيع أن نبني برنامجًا عمليًا يطبق في مختلف المجالات.

---

(١) سورة الأعراف / الآية ١٥٨ .

(٢) سورة الأنبياء / الآية ١٠٧ .

(٣) سورة سبأ / الآية ٢٨ .

(٤) الإسلام ٢/ ١٠٧، ١٠٨ بتصرف .

المبدأ الثالث والعشرون: التوسط في الإنفاق

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾[١].

المعنى الإجمالي:

ومن جملة صفات عباد الرحمن، أنهم إذا أنفقوا لم يجاوزا الحد في الإنفاق بالتبذير والإسراف فيضيعوا الأموال في غير حقها، ولم يضيقوا فيضيعوا الحقوق، بل إنهم في إنفاقهم وسطًا بين الإسراف والتقتير.

التفسير:

جاءت هذه الآية الكريمة في سياق الآيات التي تتحدث عن صفات عباد الرحمن، فأخبرت أن من صفاتهم التوسط في الإنفاق.

وهذه الصفة داخلة تحت قسم الاستقامة على شرائع الإسلام، إذ إن هذه الصفات التي أجريت على "عباد الرحمن" جاءت على أربعة أقسام:

قسم هو من التحلي بالكمالات الدينية، وهي التي ابتدئ بها قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾[٢].

وقسم هو من التخلي عن ضلالات أهل الشرك، وهو الذي من قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ مَتَابًا ﴾[٣].

وقسم هو من الاستقامة على شرائع الإسلام، وهو قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾[٤]، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا

(١) سورة الفرقان / الآية ٦٧ .

(٢) سورة الفرقان / الآية ٦٣ .

(٣) سورة الفرقان / الآية ٦٨

(٤) سورة الفرقان / الآية ٦٤ .

﴿ ٦٧ ﴾ (١)، وقوله: ﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ (٢).

وقسم هو من تطلب الزيادة من صلاح الحال في هذه الحياة وهو قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ (٣).

ومعنى هذه الصفة: أنهم يضعون نفقاتهم في مواضعها الصالحة التي أمرهم الله تعالى بها.

"قال النحاس: ومن أحسن ما قيل في معناه أن من أنفق في غير طاعة الله فهو الإسراف، ومن أمسك عن طاعة الله فهو الإقتار، ومن أنفق في طاعة الله فهو القوام.

وقال ابن عباس: من أنفق مائة ألف في حق فليس بسرف، ومن أنفق درهمًا في غير حق فهو مسرف، ومن منع من حق عليه فقد قتر" (٤).

وقد قيل لعالم: ما البناء الذي لا سرف فيه؟ قال: ما سترك عن الشمس وأكنك عن المطر. فقيل له: فما الطعام الذي لا سرف فيه؟ قال: ما سد الجوعة. فقيل له في اللباس، قال: ما ستر عورتك، ووقاك من البرد (٥).

والقوام: العدل والاستقامة والاعتدال بين الحالتين الإسراف والتقتير.

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة مبدأ عام من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو مبدأ "التوسط في الإنفاق".

ولهذا المبدأ أهمية عظمى في حياة المسلمين، إذ إنه يبن لهم الطريقة المثلى التي لابد وأن يكونوا عليها حال إنفاقهم.

"فتلك الآية أساس الاقتصاد بل أولى دعائمه ساقها القرآن من أربعة عشر قرنًا، وإن جهلها المسلمون ولم يعملوا بها حتى غزانا الأجنبي اقتصاديًا كما غزانا سياسيًا.

---

(١) سورة الفرقان / الآية ٦٧ .
(٢) سورة الفرقان / الآيات ٦٨ : ٧٢ .
(٣) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٦٧/١٩، ٦٨ بتصرف ، والآية رقم ٧٤ من سورة الفرقان .
(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧٢/١٣، ٧٣ .
(٥) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٠٩/٢٤ .

والإنفاق المطلوب شرعًا في الأمور المباحة هو ما كان بين الإسراف والتقتير إذ خير الأمور أوسطها، وأعلم أنه لا سرف في الخير، ولا خير في السرف، والاقتصاد فضيلة بلا شك بشرط ألا يصل إلى حد التقتير والمبالغة في الإمساك" (١).

ويقول الأستاذ سيد قطب عند تفسيره لهذه الآية الكريمة وهو يبين هذه الصفة من صفات عباد الرحمن: "فهم في حياتهم نموذج القصد والاعتدال والتوازن: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ (٢)وهذه سمة الإسلام التي يحققها في حياة الأفراد والجماعات؛ ويتجه إليها في التربية والتشريع، ويقيم بناءه كله على التوازن والاعتدال.

والمسلم - مع اعتراف الإسلام بالملكية الفردية المقيدة - ليس حرًا في إنفاق أمواله الخاصة كما يشاء كما هو الحال في النظام الرأسمالي، وعند الأمم التي لا يحكم التشريع الإلهي حياتها في كل ميدان. إنما هو مقيد بالتوسط في الأمرين الإسراف والتقتير. فالإسراف مفسدة للنفس والمال والمجتمع؛ والتقتير مثله حبس للمال عن انتفاع صاحبه به وانتفاع الجماعة من حوله فالمال أداة اجتماعية لتحقيق خدمات اجتماعية. والإسراف والتقتير يحدثان اختلالًا في المحيط الاجتماعي والمجال الاقتصادي، وحبس الأموال يحدث أزمات ومثله إطلاقها بغير حساب. ذلك فوق فساد القلوب والأخلاق، والإسلام وهو ينظم هذا الجانب من الحياة يبدأ به في نفس الفرد، فيجعل الاعتدال سمة من سمات الإيمان" (٣).

مما سبق يتضح لنا أن مبدأ الاقتصاد والتوسط في الإنفاق من المبادئ العظيمة التي أقرها القرآن الكريم ورغب فيها، وحث أتباعه على التخلق بها.

***

---

(١) التفسير الواضح للشيخ محمد محمود حجازي ٣١/١٩ بتصرف .

(٢) الفرقان/٦٧.

(٣) في ظلال القرآن ٢٥٧٨/٥، ٢٥٧٩ .

المبدأ الرابع والعشرون: القدوة الحسنة

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (١).

المعنى الإجمالي:

لقد كان لكم - أيها المؤمنون - في رسول الله ﷺ قدوة حسنة تقتدون بها في كل شيء، فهو القدوة الحسنة والمثل الأعلى، لمن كان يرجو ثواب الله ويخاف عقابه يوم القيامة، وأكثر من ذكره تعالى في كل حال، رجاء ثوابه، وحبًا في ذكره.

التفسير:

سيقت هذه الآية الكريمة لعتاب وتوبيخ المنافقين المتخلفين عن القتال مع النبي القدوة ﷺ الذي بذل نفسه لنصرة دين الله تعالى في خروجه للخندق، وللثناء على المؤمنين في ثباتهم معه ﷺ.

يقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور: "بعد توبيخ المنافقين والذين في قلوبهم مرض أقبل الكلام على خطاب المؤمنين في عموم جماعتهم ثناءً على ثباتهم وتأسيهم بالرسول ﷺ على تفاوت درجاتهم في ذلك الاتساء" (٢).

والمعنى: لقد كان لكم أيها المتخلفون عن القتال أسوة حسنة بالنبي عليه الصلاة والسلام، فكان الواجب عليكم أن تتأسوا برسول الله وتقتدوا به في كل أعماله، والرسول الكريم ﷺ مثل في الشجاعة والإقدام والصبر والمثابرة على النوازل فهو المؤمن الواثق بالله المتوكل عليه (٣).

واختلف فيمن أريد بهذا الخطاب على قولين:-

أحدهما: أنهم المنافقون عطفًا على ما تقدم من خطابهم.

والثاني: أنهم المؤمنون لقوله تعالى: ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ﴾ (٤).

---

(١) سورة الأحزاب / الآية ٢١ .

(٢) التحرير والتنوير ٢١/ ٣٠٢ .

(٣) التفسير الواضح للشيخ محمد محمود حجازي ٢١/ ٦٩ .

(٤) الفتوحات الإلهية (حاشية العلامة الجمل على تفسير الجلالين) ٣/ ٢٩ .

وقد اختار العلامة الآلوسي القول الثاني وقال: "والظاهر أن الخطاب للمؤمنين الخلص المخاطبين من قبل ذلك في قوله تعالى: ﴿ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ﴾، وقوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[2] وإن كان عتابًا للمتخلفين إلا أنه إرشاد للناس جميعًا بأنه يجب عليهم أن يتأسوا برسول الله ﷺ في كل شيء، فهو المثل الأعلى الكامل، لهذا قال الإمام الشوكاني: "وهذه الآية وإن كان سببها خاصًا فهي عامة في كل شيء"[3].

وقال العلامة الآلوسي أيضًا: "والآية وإن سيقت للاقتداء به عليه الصلاة والسلام في أمر الحرب من الثبات ونحوه فهي عامة في كل أفعاله ﷺ إذا لم يعلم أنها من خصوصيته كنكاح ما فوق أربع نسوة"[4].

واختلف في هذه الأسوة بالرسول عليه السلام، هل هي على الإيجاب أو على الاستحباب على قولين:-

أحدهما: على الإيجاب حتى يقوم دليل على الاستحباب.

الثاني: على الاستحباب حتى يقوم دليل على الإيجاب.

ويحتمل أن يحمل على الإيجاب في أمور الدين، وعلى الاستحباب في أمور الدنيا[5].

وهذا جمع لطيف أميل إليه.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[6] أي لقد كان لكم أسوة حسنة في النبي ﷺ لمن كان يرجو ثواب الله ويخاف عقابه يوم القيامة، وذكر الله تعالى ذكرًا كثيرًا حبًا في ذكره وطمعًا في ثوابه.

---

(١) روح المعاني ٢١/ ١٦٧، والاية رقم ٢٠ من سورة الأحزاب .

(٢) سورة الأحزاب/٢١.

(٣) فتح القدير ٤/ ٢٧١ .

(٤) روح المعاني ٢١/ ١٦٧ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/ ١٥٦ .

(٦) سورة الأحزاب/٢١.

"وقرن سبحانه بالرجاء كثرة الذكر لأن المثابرة على كثرة ذكره عز وجل تؤدي إلى ملازمة الطاعة وبها يتحقق الإتساء برسول الله ﷺ" (١).

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو مبدأ الأسوة الحسنة أو القدوة الحسنة، وهذه المبدأ يدعو إلى الاتساء والاقتداء بالنبي ﷺ، وقد جاء هذا المبدأ متشخصًا على المستوى الفردي في شخص رسول الله ﷺ، واستنباط مبدأيته إنما جاء بواسطة تجريده من هذا التشخص حتى يصبح مبدًا عامًا، ويكون تشخصه هذا مشيرًا إلى كمال فاعليته بهذا التشخص، فكمال القدوة هو سيد الخلق وحبيب الحق سيدنا محمد ﷺ.

وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالاقتداء بالأنبياء السابقين فقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ (٢)، وفي الآية التي معنا أخبر الحق تبارك وتعالى أن النبي ﷺ هو القدوة للناس جميعًا، ومن ثم فإنه يجب عليهم الاقتداء به ﷺ في جميع أفعاله.

والقدوة أسلوب مهم وفعال جدًا من أساليب التربية لابد لمن يقوم بأمرها أن يتبعه؛ لما له من سريع الأثر في توجيه السلوك، وسوف يأتي بيان ذلك عند تطبيق هذا المبدأ في مجال التربية.

***

(١) روح المعاني للآلوسي ٢١/ ١٦٨ .

(٢) سورة الأنعام / الآية ٩٠ .

المبدأ الخامس والعشرون: لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ (١).

المعنى الإجمالي:

هذه الآية مرتبطة بما قبلها أتم ارتباط، ففي الآية السابقة لها (٢) حكى القرآن الكريم عن المشركين أنهم أقسموا بالله غاية اجتهادهم في تأكيد يمينهم: لئن جاءهم رسول ينذرهم ليكونن أكثر هداية من إحدى الأمم التي كذبت رسلها، فلما جاءهم نذير ما زادهم مجيئه إلا بعدًا عن الهدى ونفورًا من الحق، ثم جاءت بعدها هذه الآية الكريمة لتبين سبب هذا النفور وهو الاستكبار، أي: نفروا لأجل الاستكبار في الأرض، ولأجل مكر السيئ وهو هنا الإصرار على الشرك وتكذيب الرسول ﷺ، ولا يحيط هذا المكر السيئ إلا بأهله، وستجري فيهم سنة الله عز وجل التي لا تتبدل ولا تتحول، وسينزل بهم العذاب الذي حل بأمثالهم ممن سبقوهم، وسيهلكون كما هلكوا.

التفسير:

جاءت هذه الآية الكريمة في سياق ما حكاه القرآن الكريم عن المشركين.

فقال تعالى: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ﴾ و "استكبارًا" بدل اشتمال من "نفورًا" أو مفعول لأجله (٣).

وقال العلامة أبو حيان في البحر: "والظاهر أن "استكبارًا" مفعول من أجله أي سبب النفور وهو الاستكبار، و "مكر السيئ" معطوف على "استكبارًا" فهو مفعول من أجله أيضًا. أي: الحامل لهم على الابتعاد من الحق هو الاستكبار والمكر السيئ" (٤).

---

(١) سورة فاطر / الآية ٤٣ .

(٢) هي قوله تعالى ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ سورة فاطر / الآية ٤٢ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٢/٣٣٤ .

(٤) تفسير البحر المحيط ٧/٣٠٥ .

فالمعنى: نفروا لأجل الاستكبار في الأرض، ولأجل مكر السيئ. والاستكبار: شدة التكبر فالسين والتاء للمبالغة. والمكر: هو الخداع والكيد وإخفاء الأذى. وإضافة "مكر" إلى "السيئ" من إضافة الموصوف إلى الصفة. وأصله: أن يمكروا مكر السيئ، وجاءت هذه الإضافة لإظهار ملازمة الوصف للموصوف (١).

ثم يكمل الحق تبارك وتعالى الآية فيقول: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾

حاق به الشيء يحيق حَيْقًا: نزل به وأحاط به، والحَيْق: ما يشتمل على الإنسان من مكروه (٢). قال أبو حيان: "يحيق: يحيط ويحل ولا يستعمل إلا في المكروه" (٣). والمعنى: لا تنزل عاقبة السوء إلا بمن أساء.

ثم يختم الحق تبارك وتعالى الآية بقوله: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (٤).

"ينظرون" هنا من النظر بمعنى الانتظار، والمعنى: فهل ينتظرون إلا سنة الله في الأولين وهي إنزال العذاب بهم.

ومثل ذلك قوله تعالى ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ ﴾ (٥)، ومعنى قوله: ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ ﴾ أي التي سنها بإنزال العذاب بالأمم المكذبة ﴿ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ بوضع غيره وهو الثواب موضعه بدلًا منه ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ بترك عقابهم وإنزال العذاب بغيرهم.

وقد يسأل سائل فيقول: التبديل تحول فما الحكمة من التكرر؟ فالجواب: أنه بقوله تعالى ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ حصل العلم بان العذاب لا تبديل له بغيره، وبقوله ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٣٤ بتصرف .
(٢) لسان العرب لابن منظور مادة: (حاق) ٣/ ٤٢٠ .
(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٠٥ .
(٤) البحر المحيط ٧/ ٣٠٥ .
(٥) سورة يونس / الآية ١٠٢ .

تَحْوِيلًا ﴾ حصل العلم بأن العذاب مع أنه لا تبديل له بالثواب لا يتحول عن مستحقه إلى غيره فيتم تهديد المسيء [١].

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو "لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله".

وهذه الجملة مع أنها جاءت في سياق الآية الكريمة إلا أن أسلوبها عام مستقل، ومعناها: أن عاقبة السوء لا تنزل إلا بمن أساء، والمكر السيئ لا يحل ولا يحيط إلا بصاحبه.

يقول العلامة الآلوسي: "والآية عامة على الصحيح، والأمور بعواقبها والله تعالى يمهل ولا يهمل ووراء الدنيا الآخرة وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون" [٢].

ويقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور: "وجملة ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [٣] تذييل أو موعظة. وإن كان التعريف في "المكر" للجنس كان المراد بـ"أهله" كل ماكر. وهذا هو الأنسب بموقع الجملة ومحملها على التذييل ليعم كل مكر وكل ماكر، فيدخل فيه الماكرون بالمسلمين من المشركين" [٤].

ومما سبق يتضح لنا أن الآية عامة وليست خاصة بسبب معين أو حالة مخصوصة، والمكر ليس من أخلاق المؤمنين، لذلك يجب عليهم عدم التخلق به لأن عاقبته لا تعود إلا على صاحبه كما نص على ذلك هذا المبدأ القرآني العام.

وقد ذكر ابن المبارك [٥] في كتابه الزهد بسنده عن الزهري [٦] بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «**لا**

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٦/٣٥ .

(٢) روح المعاني ٢٢/٢٠٦ .

(٣) فاطر/٤٣.

(٤) التحرير والتنوير ٢٢/٣٣٥ .

(٥) هو عبد الله بن المبارك بن واضح، التميمي، المروزي أبو عبد الرحمن: الحافظ، شيخ الإسلام، المجاهد التاجر، صاحب التصانيف والرحلات، أفنى عمره في الأسفار، حاجًا ومجاهدًا وتاجرًا. وجمع الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء. كان من سكان خراسان، ومات بهيت (على الفرات) سنة ١٨١ هـ منصرفًا من غزو الروم. له كتاب في "الجهاد" وهو أول من صنف فيه، و"الرقائق". الأعلام للزركلي ٤/١١٥ .

(٦) هو محمد بن مسلم بن عبد الله ابن شهاب الزهري، من بني زهرة بن كلاب، من قريش، أبو بكر: أول من دون الحديث، وأحد أكابر الحفاظ الفقهاء. تابعي، من أهل المدينة. كان يحفظ ألفين ومئتي حديث، نصفها مسند. نزل الشام واستقر بها. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحدًا أعلم بالسنة=

تمكر ولا تعن ماكرًا» فإن الله يقول ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ »[(١)] .

ولهذا المبدأ نظير في الكتب السابقة وفي أقوال العرب، فقد ذكر الإمام القرطبي وغيره [(٢)] عن ابن عباس أن كعبًا قال له: إني أجد في التوراة "من حفر لأخيه حفرة وقع فيها" فقال ابن عباس: فإني أُوجِدك في القرآن ذلك. قال: وأين؟ قال فاقرأ ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ ، ومن أمثال العرب "من حفر لأخيه جبًا وقع فيه منكبًا" [(٣)].

فإن قال قائل: كثيرًا ما نرى أن الماكر يمكر ويفيده المكر ويغلب الخصم بالمكر والآية تدل على عدم ذلك، فنقول: الجواب عنه أن الأمور بعواقبها، ومن مكر به غيره ونفذ فيه المكر عاجلًا في الظاهر، ففي الحقيقة هو الفائز، والماكر هو الهالك، وذلك مثل راحة الكافر ومشقة المسلم في الدنيا[(٤)].

***

= الماضية منه. قال ابن الجزري: مات بشَغْب، آخر حد الحجاز وأول حد فلسطين سنة ١٢٤ هـ. الأعلام للزركلي ٧/٩٧.

(١) الزهد والرقائق للإمام شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك. باب النية مع قلة العمل وسلامة القلب. صـ٢٥٢ حديث رقم ٧٢٥. ط: مؤسسة الرسالة.

(٢) انظر: الزمخشري في الكشاف٣/٣١٢، وأبا حيان في البحر المحيط ٧/٣٠٥، والآلوسي في روح المعاني ٢٢/٢٠٦

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/٣٥٩، ٣٦٠ .

(٤)التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٦/٣٤، ٣٥ بتصرف .

المبدأ السادس والعشرون: لله الدين الخالص

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾[١].

المعنى الإجمالي:

ألا لله وحده الطاعة والعبادة والتوحيد التام السالم من الشرك، وهؤلاء المشركون الذين أشركوا مع الله غيره، واتخذوا من دونه أولياء، إذا سئلوا عن ذلك قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله منزلة، فكفروا بذلك؛ لأن المستحق للتوحيد والعبادة وحده هو الله، إن الله يفصل بين أهل الأديان يوم القيامة فيجازي كلًا بعمله، والله لا يوفق للهداية من كان شأنه الإصرار على الكذب، والمبالغة في الكفر.

التفسير:

جاءت هذه الآية الكريمة في سياق الآيات التي افتتحت بها سورة الزمر، ويجدر بي أن أوضح أن من أهم أغراض ومقاصد هذه السورة الكريمة وجوب توحيد الله تعالى وإفراد العبادة خالصة له. وفي هذه الآية الكريمة تقرير حاسم في هذا الشأن، ومن شدة الرابطة بين هذه الآية الكريمة والتي قبلها أنه سبحانه وتعالى قال في الآية السابقة ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ ﴾[٢] ثم جاء في هذه الآية الكريمة فقال: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ ﴾: وهي جملة مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر بالإخلاص: أي أن الدين الخالص من شوائب الشرك وغيره هو لله، وما سواه من الأديان فليس بدين الله الخالص الذي أمر به[٣].

والدين: الطاعة، والخالص: السالم من أن يشوبه تشريك غيره تعالى في عبادته فهذا هو المقصود من الآية[٤].

---

(١) سورة الزمر الآية / ٣ .

(٢) سورة الزمر / الآية ٢ .

(٣) فتح القدير ٤٤٩/٤ .

(٤) التحرير والتنوير ٣١٨/٢٣ .

وفي كون الجملة اسمية، وافتتاحها بأداة التنبيه، وإظهار لفظ الجلالة وتقديمه المفيد للاختصاص مع لام الملك الذي هو هنا بمعنى الاستحقاق من الدلالة على الاعتناء بالدين الذي هو أساس كل خير ما ترى.

ولما أمر الله بعبادته على وجه الإخلاص وأن الدين الخالص له وحده سبحانه، بيَّن بطلان الشرك؛ لأنه مخالف للإخلاص فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [١] والمعنى: والذين لم يخلصوا عبادتهم لله وحده بل شابوها بعبادة غيره قائلين ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى.

قال قتادة: كانوا إذا قيل لهم من ربكم وخالقكم؟ ومن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء ؟ قالوا الله، فيقال لهم ما معنى عبادتكم الأصنام ؟ قالوا ليقربونا إلى الله زلفى، ويشفعوا لنا عنده [٢].

والأولياء عبارة عن كل معبود باطل كالملائكة وعيسى عليهم السلام، والأصنام [٣].

يقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور: "والجملة عطف على جملة ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ لزيادة تحقيق معنى الإخلاص لله في العبادة وأنه خلوص كامل لا يشوبه شيء من الإشراك ولا إشراك الذين زعموا أنهم اتخذوا أولياء وعبدوهم حرصًا على القرب من الله يزعمونه عذرًا لهم فقولهم من فساد الوضع وقلب حقيقة العبادة بأن جعلوا عبادة غير الله وسيلة إلى القرب من الله فنقضوا بهذه الوسيلة مقصدها وتطلبوا القرب بما أبعدها، والوسيلة إذا أفضت إلى إبطال المقصد كان التوسل بها ضربًا من العبث" [٤].

والضمير في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ عائد إلى الذين اتخذوا أولياء، والكلام على تقدير محذوف عطف على "بينهم" أي أن الله يحكم بينهم وبين خصمائهم الذين هم المخلصون للدين وقد حذف لدلالة الحال عليه. والمعنى: أنه تعالى يفصل الخصومة بين المشركين والمخلصين

---

(١) سورة الزمر/ ٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٣٣/٢٥ .
(٣) روح المعاني للآلوسي ٢٣٥/٢٣ .
(٤) التحرير والتنوير ٣٢١/٢٣ .

فيما اختصموا فيه من التوحيد والإشراك وادعى كلٌ صحة ما اتصف به بإدخال المخلصين الموحدين الجنة وإدخال المشركين النار.

وقيل: الضمير للفريقين المتخِذين والمتخَذين. والمعنى: أنه تعالى يحكم بين العابدين والمعبودين فيما يختلفون حيث يرجو العابدون شفاعتهم وهم يتبرءون منهم ويلعنونهم قالًا أو حالًا بإدخال من له أهلية دخول الجنة من المعبودين الجنة كعيسى عليه السلام، وإدخال العابدين ومن ليس له أهلية دخول الجنة ممن عبد كالأصنام النار، وإدخال الأصنام النار ليس لتعذيبها بل لتعذيب عبدتها بها (١).

والتعبير بجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ فيه من التهديد والوعيد ما ترى.

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ﴾ أي: إن الله لا يوفق للاهتداء إلى الحق من هو راسخ الكذب في زعمه أن الآلهة تقربه إلى الله، مبالغ في كفره باتخاذها آلهة وجعلها شركاء لله (٢)، والمراد بهم الذين اتخذوا من دونه أولياء، أي المشركين، ولفظ الآية يعم أولئك وغيرهم.

يقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور: "وهداية الله المنفية عنهم هي: أن يتداركهم الله بلطفه بخلق الهداية في نفوسهم، فالهداية المنفية هي الهداية التكوينية لا الهداية بمعنى الإرشاد والتبليغ وهو ظاهر، فالمراد نفي عناية الله بهم، أي العناية التي بها تيسير الهداية عليهم حتى يهتدوا، أي لا يوفقهم الله بل يتركهم على رأيهم غضبًا عليهم" (٣).

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو مبدأ "الإخلاص".

ومعناه: أن يخلص المؤمن لله رب العالمين لأن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجه الكريم، خالصًا من الشرك والرياء، وهذا كله يعود إلى نية الإنسان.

لذلك فإن حديث رسول الله ﷺ الذي افتتح به الإمام البخاري (٤) صحيحه يعد تعبيرًا صريحًا

---

(١) روح المعاني للآلوسي ٢٣/٢٣٥ بتصرف.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٤/٤٤٩ بتصرف.

(٣) التحرير والتنوير ٢٣/٣٢٣.

(٤) هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه، أبو عبد الله: حبر الإسلام والحافظ لحديث رسول الله. ولد في بخارى في شوال سنة ١٩٤ هـ، ونشأ يتيمًا ورحل في طلب العلم كثيرًا، من تصانيفه "الصحيح" وهو=

عن هذا المبدأ، فعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كان هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»(١).

وقال رسول الله ﷺ: قال الله تبارك و تعالى «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»(٣).

وقد قرر القرآن الكريم هذا المبدأ في غير موضع منه. فقال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ (٢)، ويعد هذا المبدأ أيضًا معيار قبول الأعمال وردها. يقول الله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ (٣).

يقول الأستاذ سيد قطب: "قوله تعالى ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ هكذا يعلنها مدوية عالية في ذلك التعبير المجلجل. بأداة الافتتاح "ألا" وفي أسلوب القصر "لله الدين الخالص". فيؤكد معناها بالبناء اللفظي للعبارة.. فهي القاعدة التي تقوم عليها الحياة كلها. بل يقوم عليها الوجود كله. ومن ثم ينبغي أن ترسخ وتتضح وتعلن في هذا الأسلوب الجازم الحاسم ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾(٤).

وهذه القاعدة التي يقوم عليها الوجود هي توحيد الله، وإخلاص الأعمال لوجهه تعالى، وهذا هو المبدأ العام الذي بينته الآية الكريمة.

= أصح الكتب بعد كتاب الله، وله أيضًا كتاب "التاريخ". كانت وفاته ليلة السبت ليلة الفطر عند صلاة العشاء، ودفن يوم الفطر بعط صلاة الظهر سنة ٢٥٦ هـ عاش اثنتين وستين سنة إلا ثلاثة عشر يومًا. تذكرة الحفاظ للذهبي ٢/٥٥٥، تهذيب التهذيب لابن حجر ٩/٤٧ .

(١) صحيح البخاري كتاب بدء الوحي باب بدء الوحي ١/١٢ حديث رقم ١، ونحوه فى صحيح مسلم كتاب الإمارة باب قوله ﷺإنما الأعمال بالنية وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال ٣/١٥١٥، ١٥١٦ حديث رقم ١٩٠٧ .

(١) صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق باب من أشرك في عمله غير الله ٤/٢٢٨٩ حديث رقم ٢٩٨٥، ونحوه فى سنن ابن ماجة كتاب الزهد باب الرياء والسمعة ٢/١٤٠٥ حديث رقم ٤٢٠٢ .

(٢) سورة البينة / الآية ٥ .

(٣)سورة الكهف / الآية ١١٠ .

(٤) في ظلال القرآن ٥/٣٠٣٧ .

المبدأ السابع والعشرون: لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ (١).

المعنى الإجمالي:

ذكرت هذه الآية الكريمة والآية التي قبلها الفارق الكبير بين المؤمن والكافر، فلما بيَّن الحق تبارك وتعالى في الآية السابقة شيئًا من أحوال الظالمين الضالين المشركين وتمسكهم بغير الله في قوله ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ (٢) أردف ذلك ببيان أحوال المحقين المهتدين الموحدين الذين لا رجوع لهم إلا إلى الله، ولا اعتماد لهم إلا على فضل الله فقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا ﴾ (٣) والكلام مرتبط بما قبله أتم ارتباط، أي: أذلك الكافر المتمتع بكفره خير، أمَّن هو قائم بطاعات الله في ساعات الليل مستمر على ذلك في جميع أحواله، يخشى عذاب الآخرة ويرجو رحمة ربه، قل لهم أيها الرسول الكريم: أنه كما لا يستوي العالم وغيره، فكذلك لا يستوي المطيع والعاصي، إنما يتعظ أصحاب العقول السليمة النيِّرة.

التفسير:

التشديد والتخفيف قراءتان في قوله تعالى ﴿ أَمَّن ﴾: "فقرأ نافع وابن كثير وحمزة (أمن) خفيفة الميم. وقرأ الباقون بالتشديد. والجملة التي قد عادلت (أم) قد حذفت.

والمعنى: الجاحد الكافر بربه خير أم من هو قانت؟ ويجوز أن يكون التقدير (أأصحاب النار خير أم من هو قانت) ويدل على الجملة المحذوفة المعادلة لـ(أم) ما جاء بعد من قوله: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ ﴾ وفيه وجه آخر ذكره الزجاج قال: من قرأ (أمن) بالتشديد فمعناه: (بل أمن هو قانت كغيره؟) أي: أم من هو مطيع كمن هو عاص؟ ويكون – على هذا – الخبر محذوفا

(١) سورة الزمر / الآية ٩ .

(٢) سورة الزمر / الآية ٨ .

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ٤٠٢/٧، مع التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٥/٢٦. بتصرف .

لدلالة الكلام عليه كقوله: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ (١)، ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (٢) ومن قرأ (أمن) بالتخفيف فإن معناه: (يا من هو قانت) والعرب تنادي بالألف كما تنادي بياء فتقول يا زيد أقبل وأزيد أقبل.

وفيه وجه آخر يجوز أن تكون الألف في (أمن) ألف استفهام، المعنى: أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما كغيره؟ فكف عن الجواب. وقال الزجاج: (أمن) بالتخفيف تأويله: أمن هو قانت كهذا الذي ذكرنا ممن جعل الله أندادًا؟" (٣).

يقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور: "(أمن) بتشديد ميم (من) لفظ مركب من كلمتين (أم) و (من) فأدغمت ميم (أم) في ميم (من) وفي معناه وجهان:

أحدهما: أن تكون (أم) معادلة لهمزة استفهام محذوفة مع جملتها دلت عليها (أم) لاقتضائها معادلًا ودل عليها تعقيبه بـ ﴿ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لأن التسوية لا تكون إلا بين شيئين. فالتقدير: أهذا الجاعل لله أنداداَ خير أمن هو قانت.

والوجه الثاني: أن تكون (أم) منقطعة لمجرد الإضراب الانتقالي. و (أم) تقتضي استفهامًا مقدرًا بعدها. ومعنى الكلام: دع تهديدهم بعذاب النار و انتقل بهم إلى هذا السؤال: الذي هو قانت، وقائم، ويحذر الله ويرجو رحمته. والمعنى: أذلك الإنسان الذي جعل لله أندادًا هو قانت" (٤).

ومعنى القانت: المطيع، وقيل: الخاشع في صلاته، وقيل: القائم قي صلاته، وقيل الداعي لربه، القول الأول يجمع ذلك لأن أصل القنوت الطاعة وكل ما قيل بعده داخل في الطاعة.

وآناء الليل: ساعاته، أوله وأوسطه وآخره وقيل: جوفه، والأول أعم (٥).

وقوله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ أي: يحذر عذاب الآخرة ويرجو الجنة. والحذر: الخوف، والخوف والرجاء من مقامات السالكين، ولا يجتمعان في قلب امرئ إلا فاز. فعن

(١) سورة الرعد / الآية ٣٣ .
(٢) سورة الزمر / الآية ٢٤ .
(٣) حجة القراءات للإمام أبي زرعة صـ٦٢٠، ٦٢١ بتصرف تحقيق وتعليق: سعيد الأفغاني .
(٤) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٣٤٥/٢٣، ٣٤٦ بتصرف .
(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٣٩/١٥ بتصرف .

أنس أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال:« **كيف تجدك**»؟ قال: والله يا رسول الله إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن، إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف**» (١).

ثم يختم الحق تبارك وتعالى الآية بقوله: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ أي: قل لهم يا أيها الرسول الكريم وأعلمهم أنه كما لا يستوي العالم وغيره، فكذلك لا يستوي المطيع والعاصي. فالمؤمن العالم بربه المطيع له لا يستوي أبدًا مع الكافر الجاهل بربه العاصي له.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ واقع موقع العلة لنفي الاستواء بين العالم وغيره، فكل من له عقل يعلم أنه لا استواء بين العلم والجهل، ولا بين العالم والجاهل، والمعنى: إنما يتعظ بذلك، ويتدبر، ويتفكر أصحاب العقول الصحيحة.

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو "لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون". وعدم المساواة تعني تفضيل الذين يعلمون على الذين لا يعلمون، وهذه الآية الكريمة تنبيه عظيم على فضيلة العلم وأهله.

وهذا المبدأ العظيم قرره القرآن الكريم، وقررته السنة النبوية المطهرة ففي القرآن الكريم قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ ﴾ (٢) ، وقال أيضًا ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ ﴾ (٣)

---

(١) سنن الترمذي كتاب الجنائز باب ما جاء أن المؤمن يموت بعرق الجبين ٣٠٢/٣ حديث رقم ٩٨٣ وقال: هذا حديث حسن غريب، ونحوه في سنن ابن ماجة. كتاب الزهد. باب ذكر الموت والاستعداد له. ١٤٢٣/٢ حديث رقم ٤٢٦١ .

(٢) سورة فاطر / الآية ٢٨ .

(٣) سورة المجادلة / الآية ١١ .

وفي السنة المطهرة: عن أبي أمامة الباهلي قال: ذكر لرسول الله ﷺ رجلان: أحدهما عابد والآخر عالم، فقال رسول الله ﷺ: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**إن الله وملائكته وأهل السموات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت يصلون على معلم الناس الخير**» (١).

والعلم المراد هنا هو العلم الذي تحصل به السعادة في الدنيا والآخرة، العلم الذي يعود بالنفع على الإنسان وعلى العالم أجمع.

وأول ما يجب على الإنسان أن يتعلمه هو علم الإيمان والتوحيد لذلك قال الله تعالى في كتابه الكريم مخاطبًا نبيه عليه الصلاة والسلام ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (٢)، ثم يأتي بعد ذلك علم شرائع الإسلام والحلال والحرام وأحكام المعاملات، وما سبق يعتبر تعلمه من باب فرض العين، أما العلوم الدنيوية المختلفة النافعة التي تحقق المصلحة العامة للفرد والجماعة كعلوم الطب والهندسة والحساب والفلك بالإضافة إلى أصول الصناعات المختلفة فيعتبر تعلمها من باب فرض الكفاية.

فالعلم الحق هو المعرفة. هو إدراك الحق. هو تفتح البصيرة. هو الاتصال بالحقائق الثابتة في هذا الوجود. وليس العلم هو المعلومات المفردة المنقطعة التي تزحم الذهن، ولا تؤدي إلى حقائق الكون الكبرى، ولا تمتد وراء الظاهر المحسوس، وهذا هو الطريق إلى العلم الحقيقي والمعرفة المستنيرة.. هذا هو القنوت لله. وحساسية القلب، واستشعار الحذر من الآخرة، والتطلع إلى رحمة الله وفضله، ومراقبة الله هذه المراقبة الواجفة الخاشعة.. هذا هو الطريق، ومن ثم يدرك اللب ويعرف، وينتفع بما يرى ويسمع يجرب؛ وينتهي إلى الحقائق الكبرى الثابتة من وراء المشاهدات والتجارب الصغيرة. فأما الذين يقفون عند حدود التجارب المفردة، والمشاهدات الظاهرة، فهم جامعو معلومات وليسوا بالعلماء.. (٣).

---

(١) سنن الترمذي كتاب العلم باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة ٥/٥. حديث رقم ٢٦٨٥ وقال: هذا حديث غريب.

(٢) سورة محمد / الآية ١٩.

(٣) في ظلال القرآن ٥/٣٠٤٢.

يقول الأستاذ محمد عزه دروزة معلقًا على هذه الآية الكريمة: " وواضح أن الشطر الثاني من الآية ينطوي على التقرير بأفضلية المؤمن الصالح على المشرك المنحرف الضال بقطع النظر عن المركز الاجتماعي لكل منهما. واستنكار التسوية بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون وفي هذا تلقين جليل مستمر المدى "[١].

وهذا التلقين الجليل هو المبدأ القرآني العام الذي أشير إليه.

***

(١) التفسير الحديث ٤/٣٠٥ بتصرف .

المبدأ الثامن والعشرون: لا تستوي الحسنة ولا السيئة

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (١).

المعنى الإجمالي:

بعدما ذكر الحق جل وعلا في الآية السابقة فضل الدعاة إلى الله فقال: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٢)، أرشد في هذه الآية إلى ما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين الداعي والمدعوين خاصة وبين المسلم وغيره عامة، فقال: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ﴾ أي: ولا تستوي الخصلة الحسنة ولا الخصلة القبيحة، وإذا كان الأمر كذلك، فعليك - أيها المسلم - أن تدفع السيئة إذا جاءتك من المسيء، بأحسن ما يمكن دفعها به، فتكون النتيجة المترتبة على دفع السيئة بالحسنة أن يتحول الذي بينك وبينه عداوة إلى صديق مخلص بحق.

التفسير:

هذه الآية الكريمة بيان للفرق بين محاسن الأعمال ومساويها، وقد سبقها قوله سبحانه تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

فلما ذكر سبحانه وتعالى أنه لا أحد أحسن ممن دعا إلى الله ذكر ما يترتب على ذلك من حسن الأخلاق، وأن الداعي إلى الله قد يجافيه المدعو فينبغي أن يرفق به، ويتلطف في إيصال الخير إليه (٣).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ﴾ جملة مستأنفة سيقت لبيان محاسن الأعمال الجارية بين العباد إثر بيان محاسن الأعمال الجارية بين العبد والرب عز وجل ترغيبًا لرسول الله ﷺ في الصبر على أذية المشركين ومقابلة إساءتهم بالإحسان، والحكم عام أي لا تستوي الخصلة الحسنة والسيئة في الآثار والأحكام (٤).

---

(١) سورة فصلت / الآية ٣٤ .

(٢) سورة فصلت / الآية ٣٣ .

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ٤٧٦/٧ .

(٤) روح المعاني للألوسي ١٢٣/٢٤ .

وقد ذكر المفسرون [١] أقوالًا في معنى الحسنة والسيئة منها: أن الحسنة التوحيد والسيئة الشرك، وقيل: الحسنة العفو والسيئة الانتصار، وقيل: الحسنة العلم والسيئة الفحش، وقيل: الحسنة حب الرسول ﷺ وآله والسيئة بغضهم ... إلى غير ذلك من الأقوال التي هي مجرد أمثلة للحسنة والسيئة وليست للحصر إذ أن اللفظ عام.

يقول الإمام الشوكاني: "معنى قوله تعالى ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾ أي لا تستوي الحسنة التي يرضى الله بها ويثيب عليها، ولا السيئة التي يكرهها الله ويعاقب عليها، ولا وجه لتخصيص الحسنة بنوع من أنواع الطاعات، وتخصيص السيئة بنوع من أنواع المعاصي، فإن اللفظ أوسع من ذلك" [٢].

وتكرار "لا" في قوله ﴿ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾ صلة لتأكيد النفي، إذ المعنى: ولا تستوي الحسنة والسيئة.

ثم يرشد الله تعالى المسلمين بما يجب عليهم أن يفعلوه، فيقول: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ؛ لأنه لما تفاوتت الحسنة والسيئة، فإذا جاءتك إساءة من مسيء فادفع هذه الإساءة بما هو أحسن منها فإن الإحسان إلى من أساء أحسن من العفو، والعفو أحسن من الصبر، والصبر أحسن من رد الإساءة بمثلها.

وقوله سبحانه ﴿ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ مبالغة، ولم يقل ادفع بالحسنة السيئة لأن من هان عليه الدفع بالأحسن هان عليه الدفع بالحسن، وعن ابن عباس ﴿ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ الصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة [٣].

ثم يبين الحق تبارك وتعالى النتيجة والفائدة الحاصلة من مقابلة السيئة بالتي هي أحسن بقوله: ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ والمعنى: أنك إذا قابلت الإساءة بالإحسان، والأفعال القبيحة بالأفعال الحسنة، انقلبت العداوة إلى محبة، والبغضاء إلى مودة، فيصير العدو صديقًا، والبعيد قريبًا.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٦١/١٥، فتح القدير للشوكاني ٥١٦/٤، تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٤٧٦/٧ .

(٢) فتح القدير ٥١٦/٤ .

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ٤٧٦/٧ بتصرف .

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو مبدأ "لا تستوي الحسنة ولا السيئة".

وإن جاء المبدأ في سياق آيات معينة إلا أن الأولى أن نقول بعموم اللفظ، فالحسنة تعم جميع أفراد جنسها، وكذلك السيئة، فالحسنة والسيئة متفاوتتان، ولا يمكن التسوية بينهما بحال من الأحوال.

ونفي التسوية بين الحسنة والسيئة يشتمل على مرتبتين. أولاهما: أنهما لا تستويان، وثانيتهما: تفضيل الحسنة على السيئة. فيترتب على ذلك مدح الحسنة والأمر بها والإثابة على فعلها، وذم السيئة والنهي عنها والعقاب على فعلها.

***

المبدأ التاسع والعشرون: الشورى

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[١].

المعنى الإجمالي:

ومِنْ أوصاف مَنْ وُعِدَ بما عند الله تعالى من العطاء الإلهي الذي هو خير وأبقى، أنهم يسارعون إلى إجابة ربهم فيما أمرهم به ونهاهم عنه، ويحافظون على الصلاة المفروضة عليهم، ويتشاورن فيما بينهم، ويتصدقون مما أنعم الله به عليهم.

التفسير:

جاءت هذه الآية الكريمة في سياق الآيات التي تتحدث عن مجموعة من صفات وأعمال المؤمنين التي يدعوهم إليها إيمانهم [٢]، وقد سبقها قوله تعالى: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[٣]، والمعنى: أن مطالب الدنيا خسيسة منقرضة، ونبه على خساستها بتسميتها بالمتاع، ونبه على انقراضها بأن جعلها من الدنيا، وأما الآخرة فإنها خير وأبقى، وصريح العقل يقتضي ترجيح الخير الباقي على الخسيس الفاني، ثم بين أن هذه الخيرية إنما تحصل لمن كان موصوفًا بصفات مثل الإيمان، والتوكل على الله، واجتناب كبائر الإثم والفواحش، والاستجابة التامة له وإقامة الصلاة الواجبة، والتشاور فيما بينهم، والإنفاق، إلى غير ذلك من الصفات المذكورة في سياق الآيات[٤].

وقد ضمت الآية التي معنا مجموعة من هذه الصفات:

أولها: الاستجابة التامة لله تعالى في قوله ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ ﴾

---

(١) سورة الشورى / الآية ٣٨.

(٢) التحرير والتنوير ١١١/٢٥ بتصرف.

(٣) سورة الشورى / الآيتان ٣٦، ٣٧.

(٤) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٧٧/٢٧، ١٧٨ بتصرف.

والاستجابة له سبحانه وتعالى تكون في جميع ما أمر ونهى، ثم إن الاستجابة هنا استجابة للرسول ﷺ "لأن الاستجابة له ﷺ استجابة لربهم" (١) ، والمعنى: أنهم أجابوه إلى من دعاهم إليه من طاعته، والسين والتاء في قوله ﴿ ٱسۡتَجَابُواْ ﴾ للمبالغة في المسارعة إلى الإجابة، فكأنها إجابة بلا تثاقل أو تردد أو كراهية، وهذا فيه ما فيه من إظهار كمال الانقياد وتمامه.

وثاني هذه الصفات: ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾

أي أن من صفاتهم إقامة الصلاة الواجبة المفروضة عليهم، بدون تقصير أو تهاون في إقامتها.

وثالث هذه الصفات: ﴿ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ ﴾

والمعنى: أنهم يتشاورن فيما بينهم، ولا ينفردون برأي ، لذلك استحقوا ثناء الله تعالى عليهم.

والإخبار عن الأمر بأنه شورى من قبيل الإخبار بالمصدر للمبالغة (٢).

يقول الأستاذ محمد عزة دروزة: "وهذه الجملة تعني أنه ليس بينهم مستبد طاغية، وأنهم جميعًا متساوون لا يبغي أحد على أحد، ينظرون في أمورهم العامة نظرًا مشتركًا، ويحلون مشكلاتهم بما يتفقون عليه من التشاور فيما بينهم، وهي من أرقى صور ما نسميه اليوم بالديمقراطية" (٣).

ورابع هذه الصفات: ﴿ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٨ ﴾

أي يتصدقون مما أعطيناهم من غير حول منهم ولا قوة في سبيل الخير.

وهذا إدماج للامتنان من خلال المدح، وإلا فليس الإنفاق من غير ما يرزق المنفق (٤).

يقول الشيخ محمد محمود حجازي معلقًا على سياق هذه الآيات والتي ضمت مجموعة من الصفات: "تلك هي صفات المؤمنين في كتاب الله لم يلفت نظرنا إلى ترك الكبائر والفواحش وإقامة الصلاة والزكاة فقط. بل يبين لنا أن الشورى من مبادئ الإسلام وصفات المؤمنين التي يستحقون بها الفلاح في الدنيا والآخرة" (٥).

---

(١) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٧/٤٢٥ .

(٢) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٢٥/١١٢ .

(٣) التفسير الحديث ٤/ ٧٣ بتصرف .

(٤) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٢٥/١١٣ .

(٥) التفسير الواضح ٢٥/٢٤ .

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو مبدأ الشورى، فقد شرع الإسلام الشورى، ورغب فيها، وأمر الحاكم بالأخذ بها كمبدأ عام لاستخراج أوجه الآراء وأقربها إلى نصوص الشرع وروحه، ويتعين على الحاكم أن يأخذ بها، وذلك لأن في مشروعيتها تحقيق للمصلحة.

يقول ابن عطية (١): "الشورى من قواعد الشريعة، وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب" (٢).

ويقول أبو بكر بن العربي (٣): "الشورى ألفة للجماعة، ومسبار للعقول، وسبب إلى الصواب، وما تشاور قوم قط إلا هدوا (٤) .

وقد كانت الشورى بين النبي ﷺ وأصحابه فيما يتعلق بمصالح الحروب، وكذا بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم بعده عليه الصلاة والسلام، وكانت بينهم أيضًا في الأحكام كقتال أهل الردة، وميراث الجد، وعدد حد الخمر، وغير ذلك، والمراد بالأحكام ما لم يكن لهم فيه نص شرعي وإلا فالشورى لا معنى لها، وكيف يليق بالمسلم العدول عن حكم الله عز وجل إلى آراء الرجال، والله سبحانه وتعالى هو الحكيم الخبير (٥).

---

(١) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي، الغرناطي، أبومحمد: مفسر، فقيه، أندلسي، من أهل غرناطة. عارف بالأحكام والحديث، توفي بلورقة سنة ٥٤٢هـ له: "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز". الأعلام للزركلي ٣/٢٨٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/٢٨٠ .

(٣) هو محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي، أبو بكر ابن العربي: قاض، من حفاظ الحديث. ولد في إشبيلية ورحل إلى المشرق، وبرع في الأدب، وبلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين. وصنف كتبًا في الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ. وولي قضاء إشبيلية ومات بقرب فاس، ودفن بها سنة ٥٤٣هـ من كتبه: "أحكام القرآن"، و"العواصم من القواصم"، و"عارضة الأحوذي في شرح الترمذي". الأعلام للزركلي ٦/٢٣٠.

(٤) أحكام القرآن ٤/١٦٦٨، والسبر: امتحان غور الجرح. والمسبار: مايسبر به الجرح. القاموس المحيط للفيروزابادي ٢/٤٣.

(٥) روح المعاني للآلوسي ٢٥/٤٦ .

والشورى على الوجه الذي سبق ذكره تعد من جملة أسباب صلاح الأرض، فقد جاء في السنة النبوية المطهرة عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم سمحاءكم، وأموركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها**» (١).

وعن كون الشورى مبدأ أساسيًا من مبادئ القرآن يقول الأستاذ سيد قطب: "وبهذا النص الجازم ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ (٢)يقرر الإسلام هذا المبدأ في نظام الحكم حتى ورسول الله ﷺ هو الذي يتولاه. وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكًا في أن الشورى مبدأ أساسي، لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه.. أما شكل الشورى، والوسيلة التي تتحقق بها، فهذه أمور قابلة للتحوير والتطوير وفق أوضاع الأمة وملابسات حياتها" (٣).

ويقول الأستاذ محمد عزة دروزة: "إن القرآن المكي قد نوه بالشورى وجعلها من خصائص المسلمين الصالحين كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (٤) فلما صار للإسلام سلطان نافذ في شخص النبي ﷺ أكد هذا القرآن هذا المبدأ بأسلوب الإيجاب والتنفيذ حين اقتضت حكمة التنزيل والمناسبة فقال تعالى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ ولعل من الحق أن يقال إن تشريع إيجاب استشارة أهل الرأي والمكانة والعلم من مختلف الجماعات على الرؤساء والزعماء والحكام بالأسلوب الذي جاء به القرآن من خصائص ما انفردت به الشريعة الإسلامية ومن جملة مرشحاتها للخلود والعموم" (٥).

ومما سبق كله يتضح لنا أن مبدأ الشورى من المبادئ العظيمة التي أقرها القرآن الكريم.

***

---

(١) رواه الترمذي كتاب الفتن باب منه ٤/ ٥٢٩ حديث رقم ٢٢٦٦ قال أبو عيسى: هذا حديث غريب .

(٢) سورة آل عمران / الآية ١٥٩ .

(٣) في ظلال القرآن ١/ ٥٠١ بتصرف .

(٤) الشورى/ الأية٣٨.

(٥) التفسير الحديث ٨/ ١٧٤ بتصرف. ط: دار إحياء الكتب العربية .

المبدأ الثلاثون: العفو

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ ﴾ (١).

المعنى الإجمالي:

هذه الآية الكريمة بيان من الله تعالى بوجوب عدو مجاوزة الحد عند رد الظلم، وحض على العفو، فجزاء المسيء سيئة مماثلة لإساءته من غير تجاوز أو إفراط، فمن عفا عمن ظلمه، وأصلح فيما بينه وبين خصمه، فثوابه على الله، وسوف يعطيه الله تعالى من الثواب ما لا يعلمه إلا هو سبحانه، أن الله لا يحب الظالمين المعتدين.

التفسير:

جاءت هذه الآية الكريمة في سياق الآيات التي ذكرت جملة مِنْ أوصاف مَنْ وُعِدَوا بها عند الله تعالى من العطاء الإلهي الذي هو خير وأبقى، فالآية السابقة بينت أنهم إذا أصابهم البغي ينتصرون، ولكن هذا الانتصار مشروط بالاقتصار على ما جعله الله لهم من غير مجاوزة؛ لذلك عقَّب الحق تبارك وتعالى بعد هذا بقوله: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾، فبيّن سبحانه أن العدل في الانتصار هو: الاقتصار على المساواة، وقد بينا هذا عند مبدأ العقاب بالمثل، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ ﴾ (٢) كما مر.

وهذه الآية الكريمة مكونة من جمل ثلاث، وهي مُعترضة الواحدة تلو الأخرى بين جملة ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ ﴾ (٣)، وجملة ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ ﴾ (٤)، وفائدة هذا الاعتراض تحديد الانتصار والترغيب في العفو ثم ذم الظلم والاعتداء، وهذا انتقال من الإذن في الانتصار من أعداء الدين إلى تحديد إجرائه بين الأمة بقرينة تفريع ﴿ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ ﴾ على جملة ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾ إذ سمى ترك الانتصار عفوًا وإصلاحًا ولا عفو ولا إصلاح مع أهل الشرك.

---

(١) سورة الشورى / الآية ٤٠.

(٢) سورة النحل/ الآية ١٢٦.

(٣) سورة الشورى / الآية ٣٩.

(٤) سورة الشورى / الآية ٤١.

وبقرينة الوعد بأجر من الله على ذلك العفو ولا يكون على الإصلاح مع أهل الشرك أجر [١] .

وسميت الفعلة الثانية سيئة مع أنها جزاء : إما لأنها تسوء من تنزل به كما قال الزمخشري [٢]، أو على سبيل المشاكلة .

ثم لما بيَّن سبحانه وتعالى أن جزاء السيئة بمثلها حق جائز ومباح، بيَّن فضيلة العفو ، فقال: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ وهذا يدل على أن العفو أفضل من الانتصار؛ لأن فيه الأجر. والمعنى: فمن عفا عمن ظلمه وتسامح في حق نفسه، وأصلح بالعفو بينه، وبين ظالمه، فإن الله سبحانه سوف يعطيه من الأجر والثواب على ذلك ما لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى؛ لذلك جاء الأجر مبهمًا في الآية.

قال العلامة الآلوسي: "وإبهام الأجر وجعله حقًا على العظيم الكريم جل شأنه الدال على عظمه زيادة في الترغيب" [٣].

ومعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ أي: إن الله تعالى لا يحب المعتدين البادئين بالظلم، ولا المجاوزين للحد المباح في الانتقام.

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت مبدأ عاما من مبادئ القرآن الكريم، ألا وهو مبدأ "العفو".

فالعفو صفة عظيمة، لله فيها الكمال ، فهو سبحانه وتعالى يحب العفو ، ويحب أن يرى عبده يعفو عن الناس، وقد ربَّى رسوله على ذلك الخلق العظيم الرفيع، فقال تعالى مخاطبًا رسوله الكريم ﷺ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [٤] .

والمعنى: اقْبَلْ يا أيها الرسول الكريم السهل الممكن من أخلاق الناس ، ولا تطلب منهم ما يشق

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/١١٤ .

(٢) الكشاف ٣/٤٧٣ ،وهو: محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري أبو القاسم جار الله، مفسر محدث متكلم نحوي لغوي بياني أديب ناظم ناثر مشارك في عدة علوم، من تصانيفه: "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"في التفسير، توفي سنة ٥٣٨ هـ . معجم المؤلفين ١٢/١٨٦

(٣) روح المعاني ٢٥/٤٧ .

(٤) سورة الأعراف / الآية ١٩٩ .

عليهم، واعفُ عن أخطائم وضعفهم، وأْمر بكل ما هو مستحسن ترتضيه العقول، وأعرض عن منازعة السفهاء والجاهلين.

وكذلك يجب على المسلم أن يمتثل لما أمر الله تعالى به نبيه ﷺ ، فالمسلم لابد وأن يكون سمحًا سهلًا عفوًا قريبًا إلى الناس، متوددًا إليهم، ملتمسًا لهم الأعذار في جميع تصرفاتهم نحوه، طالبًا الثواب من الله على ذلك.

يقول الإمام ابن القيم: "اعلم أن لك ذنوبا بينك وبين الله تخاف عواقبها، وترجوه أن يعفو عنها ويغفرها لك ويهبها لك، ومع هذا لا يقتصر على مجرد العفو والمسامحة حتى ينعم عليك ويكرمك ويجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله، فإذا كنت ترجو هذا من ربك أن يقابل به إساءتك، فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه وتقابل به إساءتهم؛ ليعاملك الله هذه المعاملة فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تعمل مع الناس في إساءتهم في حقك، يفعل الله معك في ذنوبك وإساءتك، جزاء وفاقا، فانتقم بعد ذلك أو اعف وأحسن أو اترك، فكما تدين تدان، وكما تفعل مع عباده يفعل معك، فمن تصور هذا المعنى وشغل به فكره، هان عليه الإحسان إلى ما أساء إليه، هذا مع ما يحصل له بذلك من نصر الله ومعيته الخاصة" (١).

ويقول الأستاذ سيد قطب مبينًا أهمية العفو عند المقدرة، ودوره في الإصلاح بين أفراد الأمة: "والعفو لا يكون إلا مع المقدرة على جزاء السيئة بالسيئة. فهنا يكون للعفو وزنه ووقعه في إصلاح المعتدي والمسامح سواء. فالمعتدي حين يشعر بأن العفو جاء سماحة ولم يجئ ضعفًا يخجل ويستحيي، ويحس بأن خصمه الذي عفا هو الأعلى. والقوي الذي يعفو تصفو نفسه وتعلو. فالعفو عندئذ خير لهذا وهذا. ولا كذلك عند الضعف والعجز . وما يجوز أن يذكر العفو عند العجز. فليس له ثمة وجود. وهو شر يطمع المعتدي، ويذل المعتدى عليه، وينشر في الأرض الفساد!" (٢).

ومما سبق يتبين لنا أن العفو مبدأ من المبادئ التى ذكرها القرآن الكريم، ونبه عليها.

***

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٤٦٨، ٤٦٩ .

(٢) في ظلال القرآن ٣١٦٧/٥ .

المبدأ الحادي والثلاثون: من يبخل فإنما يبخل عن نفسه

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ (١).

المعنى الإجمالي:

ها أنتم – أيها المؤمنون – تدعون لتنفقوا في سبيل الله، فمنكم مَنْ يبخلُ، ومَنْ يبخلْ فإن عاقبة بخله على نفسه، والله تعالى هو الغني، لا تضره طاعة من أطاع ولا معصية من عصى، وأنتم الفقراء المحتاجون إليه في جميع أحوالكم، وإن تعرضوا عن طاعة الله تعالى وامتثال أمره يذهبكم ويأت بقوم آخرين لا يكونوا أمثالكم في التولي والإعراض عن الخير.

التفسير:

جاءت هذه الآية الكريمة في سياق الآيات التي ختمت بها السورة الكريمة، وهذه الآيات جاء فيها الحث على الجهاد والإنفاق، والجهاد بذل النفس والإنفاق بذل المال.

والحث على الجهاد في قوله تعالى ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾﴾ (٢) وقوله ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾﴾ (٣).

والحث على الإنفاق في قوله ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ ﴿٣٧﴾﴾ (٤).

بالإضافة إلى هذه الآية الكريمة يقول الله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ﴾ (٥).

---

(١) سورة محمد / الآية ٣٨.

(٢) سورة محمد / الآية ٣١.

(٣) سورة محمد / الآية ٣٥.

(٤) سورة محمد / الآيتان ٣٦، ٣٧.

(٥) سورة محمد/ الآية ٣٨.

والمعنى ها أنتم هؤلاء أيها المؤمنون تدعون لتنفقوا في سبيل الله كالجهاد خاصة، وطريق الخير عامة.

ومعنى قوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قيل: للغزو، و قيل: للزكاة واللفظ أعم [١]، وقوله تعالى ﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ﴾ أي: فمنكم من يبخل بما طلب منه، ووجب عليه من الزكاة والصدقة.

وقد يرد هنا إشكال كيف يجمع بين الدعوة إلى الإنفاق، وبين عدم سؤال الأموال في قوله ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ٣٦﴾ ؟ والجواب: أن معنى قوله تعالى ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ٣٦﴾ أي: جميع أموالكم، فهو إنما يسألكم ما لا يجحف بكم، فالمنفي سؤال إنفاق جميع الأموال.

ويجوز أن يكون المعنى: أنه لا يطالبكم بإعطاء مال لذاته، فإنه غني عنكم ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾ وإنما يأمركم بإنفاق المال لصالحكم كدفع أعدائكم، وحصول المنافع في العاجل والآجل [٢].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ أي: ومن يبخل فإن بخله نابع من شح نفسه، أو أن من يبخل لا يتعدى ضرر بخله في هذا المقام إلى غيره، بل بخله ليس عائدًا إلا على نفسه، وذلك بحرمانها من أجر وثواب الإنفاق. وهذا تنبيه على خطأ البخل ببذل المال وخطره.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾ أي: والله الغني مطلقًا، فهو غير محتاج إلى أموالكم، إذ يستحيل عليه الحاجات، وأنتم الفقراء مطلقًا، الكاملون في الفقر، لافتقاركم إليه في الدنيا، وإلى الثواب في الآخرة، فما يأمركم به سبحانه فهو لاحتياجكم إلى ما فيه المنافع التي لا تحصل إلا بامتثالكم لأمره [٣].

ثم يختم الحق تبارك وتعالى الآية بقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾ وهو عطف على الشرطية المتقدمة، وهي: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ﴾.

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٨/٨٥.

(٢) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٢٦/١٣٤ وما بعدها بتصرف.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ٨/٨٦، وروح المعاني للآلوسي ٢٦/٨٢ بتصرف.

والمعنى: وإن تتولوا وتعرضوا عن الإيمان والتقوى يستبدل قومًا آخرين مكانكم لا يرتدون ولا يتولون. ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾ أي في التولي عن الإيمان والتقوى، أو في البخل بالإنفاق في سبيل الله. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٦﴾ (١) .

وفي تعيين المراد بهؤلاء القوم أقوال ذكرها العلامة أبو حيان فقال: "وتعيين أولئك القوم وأنهم الأنصار أو التابعون أو أهل اليمن أو العجم أو فارس والروم أو الملائكة أقوال" (٢)، وقال مجاهد: هم من شاء الله من سائر الناس (٣).

وقد روى الإمام الترمذي حديثًا يرجح أنهم أهل فارس فعن أبي هريرة ﷺ قال: تلا رسول الله ﷺ يومًا هذه الآية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾ قالوا: ومن يستبدل بنا ؟ قال: **فضرب رسول الله** ﷺ على منكب سلمان ثم قال «**هذا وقومه. هذا وقومه**» (٤).

ولهذا الحديث ما يعضده في صحيح الإمام مسلم حيث مدح رسول الله ﷺ أهل فارس فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو كان الإيمان عند الثريا لذهب به رجل من فارس – أو قال – من أبناء فارس. حتى يتناوله** » (٥).

فإن صح الحديث الذي رواه الإمام الترمذي كان حاسمًا في تعيين هؤلاء القوم، وإلا فإن القول بأنهم من شاء الله تعالى من سائر الناس هو الأرجح والأصح، والذي أميل إليه.

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو "ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه".

---

(١) سورة إبراهيم / الآية ١٩ ، وسورة فاطر / الآية ١٦ .

(٢) البحر المحيط ٨٦/٨ .

(٣) فتح القدير للشوكاني ٤٢/٥ .

(٤) سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة محمد ﷺ ٣٨٣/٥، ٣٨٤ حديث رقم ٣٢٦. وقال: هذا حديث غريب، وفي إسناده مقال .

(٥)صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضل فارس ١٩٧٢/٤ حديث رقم ٢٥٤٦ ونحوه في صحيح البخاري كتاب التفسير باب قوله تعالى "وآخرين منهم لما يلحقوا بهم" ١٥١/٦ .

وهذا علاج قرآني لداء البخل فقد بين الحق سبحانه وتعالى أن البخل في هذا المقام إنما يعود ضرره على صاحبه ولا يتعداه إلى غيره.

يقول الأستاذ سيد قطب معلقًا على هذه الآية الكريمة كخاتمة للسورة الكريمة: "وفي النهاية يوجههم القرآن الكريم بواقع حالهم تجاه دعوتهم إلى البذل في سبيل الله؛ ويعالج شح النفوس بالمال بالوسائل القرآنية، كما عالج شحها في ذات النفس عند الجهاد.

والقرآن يعالج هذا الشح في هذه الآية بقوله: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ فما يبذله الناس إن هو إلا رصيد لهم مذخور، يجدونه يوم يحتاجون إلى رصيد، يوم يحشرون مجردين من كل ما يملكون. فلا يجدون إلى ذلك الرصيد المذخور. فإذا بخلوا بالبذل، فإنما يبخلون على أنفسهم؛ وإنما يقللون من رصيدهم؛ وإنما يستخسرون المال في ذواتهم وأشخاصهم؛ وإنما يحرمونها بأيديهم" (١).

ويقول الأستاذ محمد عزة دروزة معلقًا على هذه الآية الكريمة والآيات التي قبلها: "وأسلوب الآيات قوي رصين موجه إلى العقول والقلوب معًا. ومتسق مع أسلوب القرآن في معالجة مثل الأغراض التي استهدفتها معالجة حكيمة متمشية مع طبائع الأشياء.

وما جاء فيها في صدد البخل في الإنفاق في سبيل الله وإنذار الباخلين بسوء العاقبة وغضب الله المتمثل في التهديد باستبدالهم بغيرهم، جدير بالتنويه من حيث انطوائه على التنبيه على تعظيم أمر الإنفاق في سبيل الله وشدة ضرورته وخطر التقصير فيه ودلالته على ضعف إيمان وعقول المقصرين، وفي كل ذلك تلقينات مستمرة المدى كما هو المتبادر "(٢).

ومن النقلين السابقين يتضح لنا أسلوب القرآن الكريم في معالجة البخل، وذلك من خلال المبدأ القرآني، حيث إنه بين لهم أن عاقبة ذلك إنما تعود على صاحبها فحسب فمن يبخل فإنما يبخل عن نفسه.

ونجد أن القرآن الكريم قد نفر من الشح في مواطن أخرى، وجعل الوقاية منه سببًا للفلاح، فقال تعالى ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ (٣).

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٣٠٢، ٣٣٠٣ بتصرف .

(٢) التفسير الحديث للأستاذ محمد عزة دروزة ٩/٢٣٩ ط: دار إحياء الكتب العربية.

(٣) سورة الحشر / الآية ٩، وسورة التغابن / الآية ١٦ .

ودائمًا عاقبة الخير تعود على صاحبها، وعاقبة الشر تعود على صاحبها أيضًا. هذا ما قرره القرآن الكـــــريم ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [١] ، ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [٢].

***

(١) سورة الإسراء / الآية ٧ .

(٢)سورة فصلت / الآية ٤٦ .

المبدأ الثاني الثلاثون: المؤمنون إخوة

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١).

المعنى الإجمالي:

إنما المؤمنون إخوة، تجمعهم أخوة واحدة هي الأخوة في الإيمان، فأصلحوا بين أخويكم إذا وقع الخصام الاقتتال فيما بينهما، والزموا تقوى الله تعالى وخشيته في جميع أموركم؛ رجاء أن تُرحموا بسبب تقواكم لله، وهذه الآية أمر من الله عز وجل لعباده المؤمنين بأن يحققوا معنى الأخوة فيما بينهم؛ لأن هذا يجلب لهم الخير ويدفع عنهم الشر .

التفسير:

جاءت هذه الآية الكريمة في سياق الآيات التي أمرت بالصلح بين المؤمنين، فقد سبقها قوله تعالى ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (٢) .

وموقع هذه الآية من التي قبلها موقع العلة، أي: إن اقتتلت طائفتان من المؤمنين فأصلحوا بينهما لأن المؤمنين إخوة، بالإضافة إلى ذلك فإن قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ مقرر لما قبله من الأمر بالإصلاح.

يقول الإمام الشوكاني: "وجملة ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر بالإصلاح " (٣)، ومعنى (إخوة): أي إخوة في الدين، فهم راجعون إلى أصل واحد وهو الإيمان.

والفاء في قوله تعالى ﴿ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ للإيذان بأن الأخوة الدينية موجبة للإصلاح، ووضع الظاهر موضع الضمير مضافًا للمأمورين للمبالغة في تأكيد وجوب الإصلاح والتحضيض عليه، وتخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بطريق الأولوية لتضاعف الفتنة والفساد فيه (٤).

---

(١) سورة الحجرات / الآية ١٠ .

(٢) سورة الحجرات / الآية ٩ .

(٣) فتح القدير ٥/٦٣ .

(٤) روح المعاني للآلوسي ٢٦/١٥١، ١٥٢ .

ثم يختم الحق تبارك وتعالى الآية بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠﴾

هذا خطاب عام لجميع المؤمنين فيشمل المتخاصمين وغيرهم ممن أمروا بالإصلاح بينهم، والأمر بالتقوى هنا عام أيضًا في جميع الأمور، ويدخل فيه دخولًا أوليًا تقوى المتخاصمين وغيرهم من القائمين على أمر الإصلاح بينهم، وتقوى كل واحد تكون بالوقوف عند أمر الله فيما يخصه. وجملة ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤﴾ أي رجاء أن ترحموا بسبب تقواكم لله.

يقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور: "وإنما اختيرت الرحمة لأن الأمر بالتقوى واقع إثر تقرير حقيقة الأخوة بين المؤمنين. وشأن تعامل الإخوة الرحمة فيكون الجزاء عليها من جنسها" [(١)].

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو "المؤمنون إخوة".

وهو المبدأ يوضح العلاقة بين المؤمنين، وهي كونهم جميعًا إخوة، وقد جاء المبدأ بصيغة القصر المفيدة لحصر حال المؤمنين في كونهم إخوة للمبالغة في تقرير هذا المبدأ العام بينهم.

وقد قررت السنة النبوية المطهرة هذا المبدأ العام وبينته في أحاديث كثيرة، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبيع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانًا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره. التقوى ها هنا – ويشير إلى صدره ثلاث مرات– بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**» [(٢)]، ففي هذا الحديث بين النبي ﷺ أن الأخوة بين المسلمين تكون بعدم التحاسد والتباغض والتناجش والتدابر، وبأن المسلم لا يظلم أخاه المسلم ولا يخذله ولا يحقره، وهذه هي قواعد الأخوة الحقة، ومن كمال الأخوة بين المسلمين أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه، فقد قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» [(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٤٥ .

(٢) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله ٤/١٩٨٦ حديث رقم ٢٥٦٤ .

(٣) صحيح البخاري كتاب الإيمان باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ١/٨، ونحوه صحيح مسلم كتاب الإيمان باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير ١/٦٧ حديث رقم ٤٥ .

وقد ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلًا للمؤمنين في توادهم و تراحمهم، فعن النعمان بن بشير ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم و تراحمهم و تعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**» (١)، وعن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال: "**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا وشبك بين أصابعه**" (٢).

يقول الأستاذ سيد قطب معلقًا على هذه الآية الكريمة والتي قبلها: "وهذه قاعدة تشريعية عامة محكمة عملية لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك والتفرق، ولإقرار الحق والعدل والصلاح.

ويترتب على هذه الأخوة أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هي الأصل في الجماعة المسلمة، وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذي يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه" (٣).

ومن نقل الأستاذ السابق يتضح لنا أن "المؤمنون إخوة" قاعدة تشريعية محكمة، ومبدأ عام من مبادئ القرآن الكريم.

***

(١) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ١٩٩٩/٤، ٢٠٠٠ . حديث رقم ٢٥٨٦، ونحوه صحيح البخاري كتاب الأدب باب رحمة الناس والبهائم ١٠/٨ .

(٢) صحيح البخاري كتاب المظالم والغصب باب نصر المظلوم ١٢٩/٣، ونحوه صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ١٩٩٩/٤ حديث رقم ٢٥٨٥ .

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب ٣٣٤٣/٦ بتصرف .

المبدأ الثالث والثلاثون: كل امرئ بما كسب رهين

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴾ (١).

المعنى الإجمالي:

هذه الآية الكريمة تقرر أمرين: -

أوَّلهما: تفضل الله عز وجل وسعة عطائه لعباده المؤمنين، فمن كان صالحًا وله ذرية صالحة، لكنها لم تبلغ درجة صلاحه، فإن الله يتفضل عليه ويلحق به هذه الذرية في درجته العالية في الجنة، من غير أن ينقص من ثواب الآباء شيئًا بإلحاق ذريتهم بهم.

والثاني: أنَّ كل إنسان مرهون بعمله، لا يحمل ذنب غيره، ولا يحمل غيره ذنبه، فكل إنسان مسئول عن عمله، فإن كان حسنًا فك نفسه وإلا فلا.

التفسير:

جاءت هذه الآية الكريمة في سياق الآيات التي تتحدث عن المتقين وجزائهم، فلما بين سبحانه حال المتقين بقوله ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ١٧﴾ (٢)، شرع في بيان حال طائفة أخرى من المؤمنين فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ ﴾ (٣) . أي: والمؤمنون الذين لهم ذرية مؤمنة ألحقنا بهم ذريتهم.

ومعنى الآية: أن الله سبحانه يرفع ذرية المؤمن إليه وإن كانوا دونه في العمل لتقر عينه وتطيب نفسه بشرط أن يكونوا مؤمنين، فقد روي عن ابن عباس أنه قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه، وتلا هذه الآية (٤).

---

(١) سورة الطور / الآية ٢١ .

(٢) سورة الطور / الآية ١٧ .

(٣) سورة الطور / الآية ٢١ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦٦/١٧، وروح المعاني للآلوسي ٣٢/٢٧ .

يقول العلامة الزمخشري: "فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم وبمزواجة الحور العين وبمؤانسة الإخوان المؤمنين وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم" (١).

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ أي: وما نقصنا الآباء من ثواب أعمالهم شيئًا بإلحاق ذريتهم بهم، بل رفعنا ذريتهم إلى درجتهم تفضلًا وإحسانًا.

وجيء بهذه الجملة احتراسًا من أن يحسبوا أن إلحاق ذريتهم بهم بإعطاء نصيب من حسناتهم لذريتهم ليدخلوا به الجنة فتنقص حسناتهم وتنحط درجتهم، فبين سبحانه أنه فعل هذا بمحض التفضل والإحسان (٢).

أي أنه سبحانه وتعالى يلحق المقصر بالمحسن ولا ينقص المحسن من أجره شيئًا.

ثم يختم الحق تبارك وتعالى الآية بقوله: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١﴾ والمعنى: كل امرئ مرتهن بكسبه عند الله، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو "كل امرئ بما كسب رهين"، و مع مجيئه كتذييل لها، إلا أنه عام.

يقول الإمام الشوكاني: "رهين بمعنى مرهون، والظاهر أنه عام، وإن كل إنسان مرتهن بعمله فإن قام به على الوجه الذي أمره الله به فكه وإلا أهلكه" (٣).

ويقول الإمام القرطبي: "وقيل: هو عام لكل إنسان مرتهن بعمله فلا ينقص أحد من ثواب عمله، فأما الزيادة على ثواب العمل فهي تفضل من الله" (٤).

ويقول الإمام الرازي: "والذي يظهر منه أنه عام في حق كل أحد"(٥).

وهذه النقول السابقة تؤيد كون اللفظ عامًا، وكل إنسان مرتهن بكسبه وعمله، فالعمل بمنزلة

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٤ .

(٢) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٢٧/ ٥٠، وروح المعاني للآلوسي ٢٧/ ٣٢ بتصرف .

(٣) فتح القدير ٥/ ٩٨ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ٦٨ .

(٥) التفسير الكبير للفخر ٢٨/ ٥٢٥ .

الدين، ونفس العبد بمنزلة الرهن، فإن كان العمل مقبولًا عند الله فكأن صاحبه أدى دينه وفك رهنه، وإن لم يكن كذلك فهو مرهون.

لذا فإن قوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ [١] المراد منه كل نفس رهن بكسبها عند الله تعالى غير مفكوك إلا أصحاب اليمين، فإنهم فكوا رقابهم بما أطابوه من كسبهم [٢].

يقول الأستاذ محمد عزة دروزة: "وجملة ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ تتضمن كما هو المتبادر معنى تعقيبيًا بالنسبة لما ذكر من مصير الفريقين الكفار والمتقين. فكل منهم ينال وفاقًا لعمله وكسبه. وفي هذا توكيد للمبدأ القرآني المحكم المتكرر من مسئولية الإنسان عن عمله وكسبه ونيله ما يستحق من الثواب والعقاب حسب ذلك" [٣].

ومن النقل السابق يتأكد لنا أن الآية الكريمة قد تضمنت مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم، وهو مبدأ يندرج تحت عنوان مسؤولية الإنسان عن عمله.

***

(١) سورة المدثر / الآيتان ٣٨، ٣٩ .

(٢) روح المعاني للآلوسي ٢٧/٣٣ بتصرف .

(٣) التفسير الحديث ٥/٣٦٣ .

المبدأ الرابع والثلاثون: ليس للإنسان إلا ما سعى

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾[١].

المعنى الإجمالي:

جاءت هذه الآية الكريمة في سياق الآيات التي تتحدث عن بعض ما جاء في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام، فقد سبقها قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾[٢]أي: لا تعاقب نفس بذنب غيرها، فلما بيَّن سبحانه وتعالى عدم مؤاخذة أحد بذنب غيره؛ بيَّن عدم إثابة الإنسان بعمل غيره فقال تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ والمعنى: ليس للإنسان إلا أجر سعيه وجزاء عمله، فلا تحصل له فائدة عمل إلا ما عمله بنفسه فلا يكون له عمل غيره.

التفسير:

هذه الآية الكريمة محكمة عامة على الأصح والأرجح.

فأما كونها محكمة فهذا ما نقله الإمام القرطبي عن أكثر أهل التأويل [٣]، وقد تعقب العلامة أبو حيان في البحر رواية النسخ وقال عنها: إنها لا تصح [٤].

وأما كونها عامة فهذا ما اختاره الإمام الرازي وقال عنه: إنه الحق [٥].

وما ورد مما يشكل على ذلك فهو مخصوص من هذا العموم.

يقول العلامة المحقق الإمام الشوكاني: "وهذا العموم مخصوص بمثل قوله سبحانه: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾[٦]، وبمثل ما ورد في شفاعة الأنبياء والملائكة للعباد ومشروعية دعاء الأحياء للأموات

---

(١) سورة النجم / الآية ٣٩ .
(٢) سورة النجم / الآيات ٣٦، ٣٧، ٣٨ .
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١١٤ .
(٤) انظر تفسير البحر المحيط ٨/ ١٦٤ .
(٥) انظر التفسير الكبير ٢٩/ ١٦ .
(٦) سورة الطور /الآية ٢١ .

ونحو ذلك، ولم يصب من قال: إن هذه الآية منسوخة بمثل هذه الأمور، فإن الخاص لا ينسخ العام، بل يخصصه، فكل ما قام الدليل على أن الإنسان ينتفع به وهو من غير سعيه كان مخصصًا لها في هذه الآية من العموم "[١].

ومن أمثلة ما يشكل على العموم في هذه الآية إضافة إلى ما سبق ذكره حديث رسول الله ﷺ: **"إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له"**[٢].

والجواب: أن هذه الأمور مخصوصة من عموم الآية.

فأما الأمور الثلاثة المذكورة في الحديث فهي في حقيقتها من كسب الإنسان وعمله، وذلك ظاهر في الصدقة الجارية وفي العلم الذي بثه، أما دعاء الولد لأحد والديه، فلأن الولد كذلك من كسب والده، ففي الحديث الشريف: **"ولد الرجل من كسبه"** [٣]

أما ما ورد في مضاعفة الحسنات، فجوابه: ما ذكره بعض المفسرين [٤] أن والي خراسان عبد الله بن طاهر سأل الحسين بن الفضل عن هذه الآية [٥] مع قوله ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ﴾ [٦]، وقوله ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ﴾ [٧]، فقال الحسين: معناه أن ليس للإنسان إلا ما سعى عدلًا، ولي أن أجزيه بواحدة ألفًا فضلًا.

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو "ليس للإنسان إلا ما سعى".

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٥/١١٤ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الوصية باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ٣/١٢٥٥ حديث رقم ١٦٣١، ونحوه سنن الترمذي كتاب الأحكام. باب في الوقف ٣/٦٥١ حديث رقم ١٣٧٦، وقال: هذا حديث حسن صحيح، ونحوه سنن أبي داود كتاب الوصايا باب ما جاء في الصدقة عن الميت ٣/٣٠٠ حديث رقم ٢٨٨٠ .

(٣) سنن أبي داود كتاب البيوع والإيجارات باب في الرجل يأكل من مال ولده ٣/٨٠٠، ٨٠١ حديث رقم ٣٥٢٩ .

(٤) روح المعاني للآلوسي ٢٧/٦٦، والتحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٢٧/١٣٨ .

(٥) هي الآية التي معنا: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ سورة النجم / الآية ٣٩ .

(٦) سورة البقرة / الآية ٢٦١ .

(٧) سورة البقرة / الآية ٢٤٥ .

وهذا المبدأ هو فردية التبعة، فلا يحصل للإنسان من الثواب إلا ما جاء نتيجة عمله وسعيه وكسبه، لذلك يعد هذا المبدأ دعوة صريحة للعمل الصالح في هذه الحياة لأنها هي الفرصة المتاحة للعمل والسعي.

ويعلق الأستاذ محمد عزة دروزة على هذه الآية الكريمة وسياق الآيات التي قبلها والتي بعدها بقوله: "وفي الآيات توكيد قوي وحاسم للمبدأ القرآني الذي قررته بعض آيات هذه السورة والسور التي قبلها. وهو قابلية الإنسان للكسب والاختيار والسعي ومسئوليته عن كسبه واختياره، واستحقاقه الجزاء على ذلك وفاقًا لما يكون فيه من خير وشر ونفع وضر وهدى وضلال.

وفي هذا ما فيه من تقوية الوازع الذاتي فيما يباشره الإنسان من عمل وفي عواقبه.

وفي الآيات زيادة مهمة ذات خطورة تلقينية عظمى في تقوية هذا الوازع وهي تقرير أثر سعي الإنسان في عاقبته وجزائه على طريق الحصر بحيث يوفر في نفسه عدم الجدوى في الاعتماد على شيء آخر غير العمل الصالح على سعة شموله لنيل ما وعد الله عباده الصالحين من سعادة في الدنيا والآخرة" (١).

ومما سبق يتضح لنا أن "ليس للإنسان إلا ما سعى" من المبادئ العامة التي تضمنها القرآن الكريم.

***

(١) التفسير الحديث ٢/١١٣ بتصرف.

المبدأ الخامس والثلاثون: جزاء الإحسان إحسان

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾[١].

المعنى الإجمالي والتفسير:

جاءت هذه الآية الكريمة كتذييل للآيات التي بينت جزاء من خاف مقام ربه، فبلغ مرتبة الإحسان، فجازاه ربه بالإحسان فقال ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ ، والاستفهام هنا مستعمل بمعنى النفي، والمعنى: ما جزاء الإحسان في العمل إلا الإحسان في الجزاء والثواب.

وجاءت الآية بصيغة القصر والحصر بالنفي بأداة الاستفهام، وهذا الحصر إخبار عن كون الجزاء الحق ومقتضى الحكمة والعدل[٢].

التعليق على المبدأ القرآني:

والآية مبدأ عام من مبادئ القرآن الكريم، هو: "جزاء الإحسان إحسان".

يقول الإمام الرازي بعد ذكره لبعض الأقوال في الآية: "وأما الأقرب فإنه عام، فجزاء كل من أحسن إلى غيره أن يحسن هو إليه أيضًا"[٣].

وقال محمد بن الحنفية: "هي مسجلة للبر والفاجر، أي مرسلة يعني: أن كل من أحسن أحسن إليه، وكل من أساء أسيئ إليه"[٤].

وهذا هو مبدأ الجزاء من جنس العمل فكما أنه (جزاء السيئة بمثلها) فكذلك (جزاء الإحسان إحسان) وهذا هو ميزان العدل الرباني الذي يعامل الله سبحانه وتعالى به عباده في الدنيا والآخرة، فيجازي المحسن على إحسانه عاجلًا وآجلًا ويجازي المسيء على إساءته كذلك، لذلك يجب على العباد أن يتعاملوا به فيما بينهم. فمن يعمل عملًا فيه خير وإحسان يجازى بمثله والعكس صحيح.

***

(١) سورة الرحمن / الآية ٦٠ .

(٢) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٢٧١/٢٧ بتصرف .

(٣) التفسير الكبير ١٣٢/٢٩ .

(٤) الكشاف للزمخشري ٩٤/٤ .

المبدأ السادس والثلاثون: الصدق مع النفس

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [(١)] .

المعنى الإجمالي والتفسير:

جاءت هذه الآية الكريمة كبيان للعتاب واللوم الموجه للمؤمنين في الآية التي قبلها، وهي قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [(٢)]، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، والمعنى: لأي سبب أو لأي علة تقولون ما لا تفعلون؟.

فلما أنكر الله تعالى عليهم فعلهم، بيَّن لهم غاية قبح ما فعلوه فقال: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ ، والمعنى: كبر وعظم بغضًا، وكره الله كرهًا شديدًا أن تقولوا بأفواهكم ما لا تفعلون.

واختير لفظ المقت لأنه أشد البغض، ولم يقتصر على أن جُعل البغض كبيرًا بل جُعل أشده وأفحشه، وكونه عند الله أبلغ من ذلك؛ لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله تعالى الذي يحقر دونه سبحانه كل عظيم، فقد تم كبره وشدته وانزاحت عنه الشكوك، وعن بعض السلف أن قيل له: حدثنا فسكت فقيل له: حدثنا فقال: وما تأمرونني أن أقول ما لا أفعل فأستعجل مقت الله عز وجل [(٣)].

التعليق على المبدأ القرآني:

والآية مبدأ عام من مبادئ القرآن الكريم، معناه: مبدأ الصدق مع النفس، فلا بد للإنسان أن يكون صادقًا مع نفسه قبل أن يكون صادقًا مع غيره، وقد عاب القرآن الكريم ذلك على بني إسرائيل، فقال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[(٤)]، فعاب القرآن الكريم عليهم عدم ائتمارهم بالبر الذي يأمرون الناس به.

---

(١) سورة الصف / الآية ٣ .

(٢) سورة الصف / الآية ٢ ، وقد ذكر في سبب نزولها: عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملنا، فأنزل الله: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ فقرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها. لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي صـ٢٧٣، وأسباب النزول للواحدي صـ٢٤٢ ، والآيتان رقم ١، ٢ من سورة الصف .

(٣) روح المعاني للآلوسي ٢٨/ ٨٤ بتصرف .

(٤) سورة البقرة / الآية ٤٤ .

المبدأ السابع والثلاثون: الإيمان هداية للقلوب

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾(١).

المعنى الإجمالي:

ما أصاب أحدًا من مصيبة سواء كانت في النفس أو في المال أو غير ذلك من مكروه وبلاء إلا بتقدير الله تعالى وعلمه وإرادته وإذنه، ومن يؤمن بالله يهد قلبه لليقين والرضا بقضائه تعالى، والله تعالى عليم بكل شيء، لا يخفى عليه سبحانه شيء.

التفسير:

إن قيل: بم يتصل قوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ ﴾ ؟ أجيب: بأنه يتعلق بقوله تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ ﴾ (٢).

أي: آمنوا بالله ورسوله، لأن في الإيمان هداية القلوب، وحمل لها على الرضا بقضاء الله تعالى وقدره.

والمصيبة: ما يسوء العبد في نفس أو مال أو ولد أو قول أو فعل (٣)، وتستعمل في اللغة فيما يلحق الإنسان من شر وضر وإن كان أصل فعلها يقال لما يصيب الإنسان مطلقًا، ولكن غلب إطلاق فعل أصاب على السوء، وقد قيل في قوله تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ﴾ (٤) إن إسناد الإصابة إلى الحسنة من قبيل المشاكلة (٥).

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ ﴾ أي: إلا بإرادة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره، وفي هذا تسلية لقلوب المؤمنين، وتعليم الصبر لهم لما ينزل بهم من المصائب والحوادث، حتى لا يهنو، ولا يلههم الحزن عن تدبير ما يهمهم من أمور.

---

(١) سورة التغابن / الآية ١١.

(٢) السراج المنير للخطيب الشربيني ٣٠٥/٤، والآية رقم ٨ من سورة التغابن.

(٣) روح المعاني للآلوسي ١٢٤/٢٨.

(٤) سورة النساء / الآية ٧٩.

(٥) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٢٧٩/٢٨.

ثم أعقب الحق تبارك وتعالى ذلك بقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ أي: يوفقه لليقين حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيسلم لقضاء الله تعالى وقدره، وقيل: يهد قلبه للشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء [١] .

والمعنى: أن المؤمن الصادق في إيمانه عندما تنزل به نازلة في نفسه أو أهله أو ماله، فإن عنده الدواء لذلك ألا وهو الإيمان بالله تعالى وبقضائه وقدره، فيعلم أنها من عند الله تعالى فيسلم أمره لربه ويسترجع، فتسكن نفسه، ويهدأ قلبه، ويشعر براحة البال.

يقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور: "إن المؤمن مرتاض بالأخلاق الإسلامية متبع لوصايا الله تعالى فهو مجاف مفاسد الأخلاق من الجزع والهلع يتلقى ما يصيبه من مصيبة بالصبر والتفكر في أن الحياة لا تخلو من عوارض مؤلمة أو مكدرة. قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [٢] ، ومعنى المهتدون أي: أصحاب الهدى الكامل لأنه هدى متلقى من التعاليم الإلهية الحقة المعصومة من الخطأ والفساد كقوله تعالى هنا ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ " [٣] .

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ أي: أنه سبحانه وتعالى عليم بمن كان صادقًا في إيمانه فسلم أمره لقضاء الله تعالى وقدره، فالله سبحانه تعالى عليم لا يخفى عليه تسليم من انقاد وسلم لأمره ولا كراهة من كره.

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت مبدأ عامًا من مبادئ القرآن الكريم ألا وهو الإيمان هداية للقلوب، والإيمان بالله من أهم مقومات الصحة النفسية لدى الأفراد. وهو خير معين للمرء على تقلبات الأيام ومشكلات الحياة، فالمؤمن الصادق الإيمان تجده دائمًا يسلم أمره لخالقه ويرضى بقضائه تعالى وقدره، ولا يحزن على شيء قد فاته، فيشعر بالسعادة والتوازن النفسي والروحي.

"وأسلوب هذه الآية للتهوين والتثبيت والعظة العامة للمؤمنين، وقد انطوت على علاج نفساني

(١) تفسير الخازن ٧/١٠٥ .

(٢) سورة البقرة / الآيات ١٥٥ : ١٥٧ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٨/٢٨. بتصرف .

قوي يستمد منه المؤمن قوة وصبرًا وسكينة وطمأنينة واستسلامًا لله واتكالًا عليه في الأزمات والملمات الطارئة أو المتوقعة التي لا تخلو حياة الناس منها في كل وقت ومكان" (١) .

يقول الأستاذ سيد قطب: "ويقرر الحق سبحانه وتعالى قاعدة من قواعد التصور الإيماني في القدر، وفي أثر الإيمان في هداية القلب فيقول: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ ولعل مناسبة ذكرها هنا هي مجرد بيانها في صدد عرض حقيقة الإيمان الذي دعاهم إليه، إنه الإيمان الذي يرد كل شيء إلى الله، فالمؤمن يعتقد أن كل ما يصيبه من خير وشر فهو بإذن الله، وهذه القاعدة لا يكون إيمان بغيرها. فهي أساس جميع المشاعر الإيمانية عند مواجهة الحياة بأحداثها خيرها وشرها ..... ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ هداية مطلقة بقدر الله، والتسليم له عند المصيبة فيطمئن ويستريح" (٢) .

ومما سبق يتضح لنا أن الإيمان هداية للقلوب من مبادئ القرآن الكريم الروحية.

***

(١) التفسير الحديث للأستاذ محمد عزة دروزة ٨/ ٥٥٠ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٨٨ بتصرف .

المبدآن الثامن والثلاثون، والتاسع والثلاثون: التقوى، والتوكل

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ (١).

المعنى الإجمالي:

فإذا قاربن – أي المطلقات – من انقضاء عدتهن، فراجعوهن مع حُسن معاشرتهن، أو فارقوهن من غير إضرار، وأشهدوا – وهو للندب – على الرجعة والمفارقة صاحبي عدالة منكم؛ وذلك بعدًا عن الشك والنزاع، وأدّوا أيها الشهود الشهادة على وجهها خالصة لله تعالى، وذلك الذي أُمرتم به في الطلاق أو الرجعة والإشهاد، يُوعظ به مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، ومَن يتق الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، يجعل له مخرجًا من كل ضيق، ويسهل له أموره، وييسر له أسباب الرزق من حيث لا يخطر له ببال، ومَن يُفوض أمره إلى الله تعالى، فهو كافيه كل ما أهمَّه، إن الله منفذ مشيئته وقضاءه، لا يعجزه شيء، قد جعل الله لكل شيء تقديرًا معلومًا، وقتًا محددًا، وأجلا ينتهي إليه لا يجاوزه.

التفسير:

جاءت هاتان الآيتان الكريمتان في سياق الحديث أحكام الطلاق والعدة، فقد بين الحق تبارك وتعالى في الآية الأولى (٢) من السورة الكريمة – وهي التي تسبقهما – جزءًا من هذه الأحكام، وفي هاتين الآيتين استكمال لما شرع الله تعالى في بيانه.

فقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ تفريع على جميع ما تقدم من أحكام العدة، معطوف على جملة ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ (٣)؛ لأن إحصاءها بحفظ مدتها واستيعاب

---

(١) سورة الطلاق / الآيتان ٢، ٣.

(٢) هي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ سورة الطلاق / الآية ١.

(٣) سورة الطلاق / الآية ١.

أيامها، فإذا انتهت المدة، فقد أعذر الله لها، والزيادة عليها إضرار بأحدهما أو بكليهما وفائدة الآجال الوقوف عند انتهائها .

وبلوغ الأجل أصله انتهاء المُدة المقدرة له، كما يؤذن به معنى البلوغ الذي هو الوصول إلى المطلوب على تشبيه الأجل المعين بالمكان المسير إليه، وشاع ذلك في الاستعمال، فالمجاز في لفظ الأجل، وتبعه المجاز في البلوغ، وقد استعمل البلوغ في هذه الآية في مقاربة ذلك الإنتهاء، مبالغة في عدم التسامح فيه، وهذا الاستعمال مجاز آخر لمشابهة مقاربة الشيء بالحصول فيه والتلبس به .

وقرينة المجاز هنا هو لفظ الأجل؛ لأنه لا تتصور المراجعة بعد بلوغ الأجل؛ لأن في ذلك رفع معنى التأجيل (١) .

ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ أي: وأشهدوا عند الرجعة والفرقة جميعًا، وفائدة هذا الإشهاد ألا يقع بينهما التجاحد، وألا يتهم في إمساكها، ولئلا يموت أحدهما فيدعي الباقي ثبوت الزوجية ليرث، والإشهاد على الرجعة مندب عند أكثر العلماء (٢) .

وخص الله تعالى المؤمن بالله واليوم الآخر في قوله ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ ؛ لأنه هو المنتفع بذلك دون غيره.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ أي: من يتق عذاب الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والوقوف على حدوده التي حدها لعباده، وعدم مجاوزتها، يجعل له مخرجًا مما وقع فيه من الشدائد والمحن، ويرزقه من وجه لا يخطر بباله، ولا يكون في حسابه. وقيل: هذا في الطلاق خاصة، أي: من طلق كما أمره الله، يكن له مخرج في الرجعة في العدة (٣).

والأولى أن الأمر بالتقوى هنا بصفة عامة، لا في الطلاق بعينه، قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور: "لما اعتبرت تلك الأحكام – أي السابقة من أول السورة – موعظة بقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ أعقب ذلك بقضيّة عامة، وهي أن تلك من تقوى الله

(١) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٣٠٧/٢٨ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥٧/١٨، ١٥٨ بتصرف .
(٣) فتح القدير للشوكاني ٢٤١/٥، ٢٤٢ بتصرف .

تعالى، وبما لتقوى الله من خير في الدنيا والآخرة، على عادة القرآن من تعقيب الموعظة والترهيب بالبشارة والترغيب" [١] .

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي: ومن يفوض أمره إلى الله تعالى، ويتوكل عليه وحده حق توكله، فهو سبحانه وتعالى كافيه فى جميع أموره.

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ أي: أن الله تعالى قاض أمره، يبلغ ما يريد، لا يفوته مراد، ولا يعجزه مطلوب، ولا يحول دون أمره حائل.

ومعنى قوله: ﴿قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ تقديرًا، والمراد تقديره قبل وجوده، أو مقدارًا من الزمان، وهذا بيان لوجوب التوكل عليه تعالى، وتفويض الأمر إليه عز وجل؛ لأنه إذا علم أن كل شيء من الرزق وغيره لا يكون إلا بتقديره تعالى، لا يبقى إلا التسليم للقدر، وفيه على ما قيل : تقرير لما تقدم من تأقيت الطلاق والأمر بإحصاء العدة، وتمهيد لما سيأتي من مقاديرها [٢] .

التعليق على المبدأ القرآني:

وهاتان الآيتان قد تضمنتا مبدأين من مبادئ القرآن الكريم، ألا وهما مبدأي "التقوى"، و"التوكل"، وقد جاء استنباط مبدأيتهما من كونهما يشكلان جزءًا مهمًا من عقلية المسلم، ومن النموذج المعرفي الإسلامي المبتغى إنشاؤه على ما سيأتي ذكره وبيانه لاحقًا.

وهذا الجزء المهم يتمثل في العلاقة بين المخلوق وخالقه عز وجل، فلابد للمخلوق أن يتخلق بما يتضمناه هذان المبدآن من معان في علاقته بربه سبحانه وتعالى.

وقد اختلفت عبارات الأكابر في بيان منزلة التقوى، فقيل: التقوى أن لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك، وقيل: هي التبري عن الحول والقوة، وقيل: التنزه عن كل ما يشغل السر عن الحق [٣] ، أما التوكل فقيل في تعريفه أنه: هو الثقة بالله، قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وقال بعضهم: هو تفويض الأمر إلى الله ثقة بحسن تدبيره [٤] .

والكلام عن التقوى والتوكل طويل؛ وذلك لأهميتهما وقيمتهما، إلا أني آثرت أن اقتصر في ذلك

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٣١١ .

(٢) روح المعاني للآلوسي ٢٨/١٣٦ بتصرف .

(٣) المرجع السابق ١/١٠٨ بتصرف، وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الآية رقم ٢ من سورة البقرة .

(٤) زاد المسير لابن الجوزي ١/٤٥٠ بتصرف .

على نقلين للشيخ الفقيه ابن جزي [١] في كتابه التسهيل، حيث قال: "والكلام عن التقوى في ثلاثة فصول، الأول: في فضائلها المستنبطة من القرآن وهي خمس عشرة: الهدى، كقوله: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[٢]، والنصرة؛ لقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ﴾[٣]، والولاية؛ لقوله: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٤]، والمحبة؛ لقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٥]، والمغفرة؛ لقوله: ﴿ إِن تَتَّقُوا ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾[٦]، والمخرج من الغم والرزق من حيث لا يحتسب؛ لقوله: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[٧]، وتيسير الأمور؛ لقوله: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾[٨]، وغفران الذنوب وإعظام الأجور؛ لقوله: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾[٩]، وتقبل الأعمال؛ لقوله: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[١٠]، والفلاح؛ لقوله: ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[١١]، والبشرى؛ لقوله: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾[١٢]، ودخول الجنة؛ لقوله: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[١٣]، والنجاة من النار؛ لقوله: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ﴾[١٤].

(١) هو: محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي، أبو القاسم: فقيه من العلماء بالأصول واللغة من أهل غرناطة (٦٩٣ - ٧٤١ هـ = ١٢٩٤ - ١٣٤٠ م) من كتبه: "القوانين الفقهية" في تلخيص مذهب المالكية، و"تقريب الوصول إلى علم الأصول"، و"التسهيل لعلوم التنزيل"، و"وسيلة المسلم" في تهذيب صحيح مسلم، وغير ذلك.أهـ الأعلام للزركلي ٥/ ٣٢٥.

(٢) سورة البقرة / الآية ٢.

(٣) سورة النحل / الآية ١٢٨.

(٤) سورة الجاثية / الآية ١٩.

(٥) سورة التوبة / الآيتان ٤، ٧.

(٦) سورة الأنفال/ ٢٩.

(٧) سورة الطلاق / الآيتان ٢، ٣.

(٨)سورة الطلاق/ الآية ٤.

(٩) سورة الطلاق / الآية ٥.

(١٠) سورة المائدة / الآية ٢٧.

(١١) سورة البقرة / الآية ١٨٩، وسورة آل عمران / الآيتان ١٣٠، ٢٠٠.

(١٢) سورة يونس / الآية ٦٤.

(١٣) سورة القلم / الآية ٣٤.

(١٤) سورة مريم / الآية ٧٢.

الفصل الثاني: البواعث على التقوى عشرة: خوف العقاب الأخروي، وخوف الدنيوي، ورجاء الثواب الدنيوي، ورجاء الثواب الأخروي، وخوف الحساب، والحياء من نظر الله وهو مقام المراقبة، والشكر على نعمه بطاعته، والعلم؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ (١)، وتعظيم جلال الله وهو مقام الهيبة وصدق المحبة.

الفصل الثالث: درجات التقوى خمس: أن يتقي العبد الكفر وذلك مقام الإسلام، وأن يتقي المعاصي والحرمات وهو مقام التوبة، وأن يتقي الشبهات وهو مقام الورع، وأن يتقي المباحات وهو مقام الزهد، وأن يتقي حضور غير الله على قلبه وهو مقام المشاهدة" (٢).

وقال أيضًا في الكلام عن التوكل: "التوكل هو الاعتماد على الله في تحصيل المنافع أو حفظها بعد حصولها، وفي دفع المضرات ورفعها بعد وقوعها، وهو من أعلى المقامات لوجهين: أحدهما: قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ (٣)، والآخر الضمان الذي في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾(٤)، وقد يكون واجبًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (٥)، فجعله شرطًا في الإيمان، والظاهر قوله جل جلاله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (٦)، فإن الأمر محمول على الوجوب.

واعلم أن الناس في التوكل على ثلاثة مراتب: الأولى: أن يعتمد العبد على ربه كاعتماد الإنسان على وكيله المأمون عنده الذي لا يشك في نصيحته له وقيامه بمصالحه، والثانية: أن يكون العبد مع ربه كالطفل مع أمه فإنه لا يعرف سواها، ولا يلجأ إلا إليها، والثالثة: أن يكون العبد مع ربه كالميت بين يدي الغاسل، قد أسلم نفسه إليه بالكلية، فصاحب الدرجة الأولى له حظ من النظر لنفسه بخلاف صاحب الثانية، وصاحب الثانية له حظ من المراد والاختيار بخلاف صاحب الثالثة، وهذه الدرجات مبنية على التوحيد الخاص الذي تكلمنا عليه في قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ (٧)، فهي

---

(١) سورة فاطر / الآية ٢٨ .

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٣٥، ٣٦ . عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ سورة البقرة / الآية ٢ .

(٣) سورة آل عمران / الآية ١٥٩ .

(٤) سورة الطلاق / الآية ٣ .

(٥) سورة المائدة / الآية ٢٣ .

(٦) سورة آل عمران / الآيتان ١٢٢، ١٦٠ ، وسورة المائدة / الآية ١١ ، وسورة التوبة / الآية ٥١ ، وسورة إبراهيم / الآية ١١ ، وسورة المجادلة / الآية ١٠ ، وسورة التغابن / الآية ١٣ .

(٧) سورة البقرة / الآية ١٦٣ .

تقوى بقوته وتضعف بضعفه، فإن قيل: هل يشترط في التوكل ترك الأسباب أم لا؟ فالجواب: أن الأسباب على ثلاثة أقسام: أحدهما: سبب معلوم قطعًا قد أجراه الله تعالى، فهذا لا يجوز تركه، كالأكل لدفع الجوع واللباس لدفع البرد، والثاني: سبب مظنون كالتجارة وطلب المعاش وشبه ذلك، فهذا لا يقدم فعله في التوكل؛ لأن التوكل من أعمال القلب لا من أعمال البدن، ويجوز تركه لمن قوي عليه، والثالث: سبب موهوم بعيد ،فهذا يقدم فعله في التوكل، ثم إن فوق التوكل التفويض، وهو الاستسلام لأمر الله تعالى بالكلية، فإن المتوكل له مراد واختيار، وهو يطلب مراده باعتماده على ربه، وأما المفوض فليس له مراد ولا اختيار، بل أسند المراد والاختيار إلى الله تعالى فهو أكمل أدبًا مع الله تعالى " (١) .

مما سبق يتضح لنا أن التقوى، والتوكل من المبادئ التي ذكرها القرآن الكريم.

***

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١٢٢ . عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ سورة آل عمران / الآية ١٥٩.

المبدأ الأربعون: لكم دينكم ولي دين

النص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾ [١] .

المعنى الإجمالي:

جاءت هذه الآية الكريمة كخاتمة وتذييل لسورة الكافرون التي جاء فيها قطع لأماني الكفار، وبيان للفرق بين عبادتهم وبين عبادة النبي ﷺ وأن هذا الفرق واسع جدًا.

والمعنى: لكم دينكم الذي هو الشرك، وأنتم مسئولون عنه، ولي دين الذي هو التوحيد والإسلام أسأل عنه، وعلى ذلك يكون الجزاء .

التفسير:

قال ابن عباس رضي الله عنهما عن هذه السورة الكريمة: ليس في القرآن اشد غيظًا لإبليس منها، لأنها توحيد وبراءة من الشرك [٢] .

وسبب نزول هذه السورة الكريمة: ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن قريشًا دعت رسول الله ﷺ إلي أن يعطوه مالًا فيكون أغني رجل بمكة، ويزوجوه ما أراد من النساء، فقالوا هذا لك يا محمد وتكف عن شتم آلهتنا ولا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة ولك منها صلاح، قال: ما هي ؟ قالوا: تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، قال: حتى أنظر ما يأتيني من ربي، فجاء الوحي من عند الله ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ ﴾... إلى آخر السورة [٣] .

وجملة ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ تقرير لقوله تعالى: ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ ﴾ [٤] ، وقوله تعالى: ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ ﴾ [٥] .

---

(١) سورة الكافرون / الآية ٦ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٢٥/٢٠ .

(٣) فتح القدير للشوكاني ٥٠٨/٥ . راجع معه: جامع البيان للطبري٢١٤/٣٠، لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي صـ٣٠٧ باختلاف يسير في الروايات وكلها عن جابر ، والآيتان رقم ١، ٢ من سورة الكافرون .

(٤) سورة الكافرون / الآية ٢ .

(٥) سورة الكافرون / الآية ٤ .

وجملة ﴿ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ تقرير لقوله تعالى: ﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴿٥﴾ ﴾ [1] في الموضعين. وقدم المسند على المسند إليه في كلتا الجملتين ليفيد القصر.

والمعنى: أن دينكم الذي هو الإشراك مقصور على الحصول لكم لا يتجاوزه إلى الحصول لي كما تطمعون، وأن ديني الذي هو التوحيد مقصور على الحصول لي لا يتجاوزه إلى الحصول لكم [2].

وإذا كان دينكم لكم فعليكم وحدكم وزره، وإذا كان ديني الذي أدعوا إليه لي فعلى وحدي تبعاته.

وقد يسأل سائل فيقول: وما فائدة قوله تعالى ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ ؟ وهل أفاد معنى زائدًا على ما تقدم ؟

وقد أجاب عن هذا الإمام ابن القيم [3] فقال: "إن النفي الأول أفاد البراءة وأنه لا يتصور منه، ولا ينبغي له أن يعبد معبوديهم، وهم أيضًا لا يكونون عابدين لمعبوده، وأفاد آخر السورة إثبات ما تضمنه النفي من جهتهم من الشرك والكفر الذي هو حظهم وقسمهم ونصيبهم، فجرى ذلك مجرى من اقتسم هو وغيره أرضًا فقال له: لا تدخل في حدي، ولا أدخل في حدك، لك أرضك ولي أرضي، فتضمنت الآية أن هذه البراءة اقتضت أنا اقتسمنا خطتنا بيننا، فأصبنا التوحيد والإيمان، فهو نصيبنا وقسمنا الذي نختص به لا تشركونا فيه، وأصابكم الشرك بالله والكفر به، فهو نصيبكم وقسمكم الذي تختصون به لا نشرككم فيه، فتبارك من أحيا قلوب من شاء من عباده بفهم كلامه" [4].

التعليق على المبدأ القرآني:

وهذه الآية مبدأ عام من مبادئ القرآن الكريم، وهو مبدأ يتعلق بالاعتقاد.

فيرى الأستاذ محمد عزة دروزة أن هذا هو مبدأ حرية التدين، فيقول عند تفسيره لهذه السورة الكريمة تحت عنوان (مبدأ حرية التدين في النظام الإسلامي): "ومع خصوصية الخطاب وزمنيته

---

(١) سورة الكافرون / الآيتان ٣، ٥ .

(٢) روح المعاني للآلوسي ٣٠/٢٥٤ بتصرف .

(٣) هو محمد ابن أبي بكر بن أيوب سعد الزرعي الدمشقي، أبو عبد الله، شمس الدين: من أركان الإصلاح الإسلامي، وأحد كبار العلماء. مولده ووفاته في دمشق تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، بل ينتصر له في جميع ما يصدر عنه. وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه، وسجن معه في قلعة دمشق توفي سنة ٧٥١هـ له تصانيف كثيرة من أهمها: "إعلام الموقعين"، و"الطرق الحكمية في السياسة الشرعية"، و"التفسير القيم" إلى غير ذلك. الأعلام للزركلي ٦/ ٥٦ .

(٤) التفسير القيم للإمام ابن القيم صـ٥٣٢. ط: دار الكتب العلمية. تحقيق: محمد حامد الفقي.

فالمتبادر أن السورة تضمنت مبدأ قرآنيًا جليلًا منذ عهد مبكر من الدعوة، في تقرير حرية التدين والعبادة والدعوة إلى احترامها واستشعار الناس بشعور الإنصاف والعدل فيما بينهم في صددها، باعتبار هذه المسألة مسألة وجدان ويقين وطمأنينة قلب وانشراح صدر، لا يجوز أن تكون لأي تأثير أو تابعة لأي اعتبار " (١) .

ويرى الأستاذ سيد قطب أن هذه الآية إجمال لحقيقة الافتراق الذي لا التقاء فيه، والاختلاف الذي لا تشابه فيه، والانفصال الذي لا اتصال فيه، والتمييز الذي لا اختلاط فيه.. فالتوحيد منهج، والشرك منهج آخر.. لا يلتقيان (٢) .

ومعنى هذا أن هذا المبدأ هو مبدأ الافتراق والمفاصلة في الاعتقاد.

أقول: وكلام الأستاذ سيد قطب لا يعارض كلام الأستاذ محمد عزة دروزة، فالأصل أن الإيمان والكفر طريقان مختلفان منفصلان لا يلتقيان أبدًا فهذه حقيقة واضحة لا مراء فيها. أما حرية الاعتقاد والتدين فقد نادى بها الإسلام وجعلها حقًا لكل إنسان، فكل إنسان له الحرية الكاملة في اعتقاده دون حجر من أحد عليه، وقد نص القرآن الكريم على ذلك فقال: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ (٣) فتكون الآية الكريمة قد بينت حقيقة الانفصال بين الإيمان والكفر، وأقرت المبدأ القرآني العام المتعلق بحرية الاعتقاد والتدين، بل إنها أفادت معنى جديدًا إضافة إلى ذلك وهو التعددية الدينية واحترامها.

فلكل دينه الذي ارتضاه وعليه تحمل تبعاته كما قال تعالى: ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ .

***

(١) التفسير الحديث ٢/ ٢٧ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٩٢ بتصرف .

(٣) سورة البقرة / الآية ٢٥٦.

الفصل الثالث
المبادئ القرآنية والنموذج المعرفي

* هذا الفصل عبارة عن محاولة لبناء ما يمكن أن نطلق عليه "**النموذج المعرفي**" (١)عند المسلمين، وعلاقة المبادئ القرآنية العامة بهذا النموذج المعرفي كمكون أساسي من مكوناته.

* ونقصد **بالنموذج المعرفي** ما يتكون ويتشكل منه العقل، فعندما نقول النموذج المعرفي الإسلامي نعني به الأمور والأشياء التي يتشكل منها عقل المسلم.

* **والنموذج المعرفي** يمثل الصورة الكلية للإنسان والكون والحياة وما قبل ذلك وما بعده، ويجيب إجابات تفصيلية على الأسئلة الكلية عن الماضي والحاضر والمستقبل التي اهتم بها الإنسان وشغلت بال الفلاسفة.. مثل: من أين نحن ؟ وماذا نفعل هنا في هذا العالم ؟ وماذا سيكون غدًا وبعد الموت ؟

* **ويعد النموذج المعرفي** من أهم الخصائص التي تميز فكرًا عن آخر، وعقيدة عن أخرى، ورؤية معينة عما سواها، وعليه فإن النموذج المعرفي الإسلامي المبتغى إنشاؤه سوف يجيب عن أسئلة

---

(١) تكلم عن النموذج المعرفي فيما أتيح لي من بحث واطلاع: فضيلة الأستاذ الدكتور/ علي جمعة – مفتي الديار المصرية – من خلال ثلاث مقالات نشرت في جريدة الأهرام تحت عنوان: "**النموذج المعرفي الإسلامي وتجديد الخطاب الديني**" بتواريخ/ ١٠ أبريل ٢٠٠٤م – و٢٤ أبريل ٢٠٠٤م – ٨ مايو ٢٠٠٤م، وأيضًا من خلال كتابه: "**الطريق إلى التراث – مقدمات معرفية ومداخل منهجية**" صـ٢٢: ٣٠ نشر: نهضة مصر. طبعة: أولي أكتوبر ٢٠٠٤م.

وهناك بحث آخر للأستاذ الدكتور/ نصر محمد عارف – أستاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة وأستاذ زائر بجامعة العلوم الإسلامية والإجتماعية بفرجينيا – بعنوان: "**مفهوم النظام المعرفي الإسلامي**" وقد حصلت عليه من شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) من موقع بلاغ دوت كوم www.balagh.com .

وهناك أيضًا بحث آخر مهم جدًا للأستاذ الدكتور/ أحمد داود أغلو – أستاذ ورئيس قسم العلاقات الدولية بجامعة بيكنت في استانبول / تركيا. دكتوراة في العلوم السياسية والعلاقات الدولية من جامعة البوسفور في استانبول سنة ١٩٩٠م ومدير مؤسسة العلوم والفنون في استانبول – بعنوان: "**تحليل مقارن للنماذج المعرفية الإسلامية والغربية**" وقد قدم هذا البحث باللغة الإنجليزية للمشاركة في الحلقة الدراسية عن النظام المعرفي التي عقدت في الأردن في يونيو سنة ١٩٩٨م، وقامت مجلة "إسلامية المعرفة" التي يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي بترجمته ونشره في عددها الثاني والعشرين خريف عام ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

نحو.. من المسلم ؟ وبماذا يختلف عمن سواه ؟ ومع من يشترك في قدر من الآراء والتوجهات ؟ ومع من يختلف ؟ وما معيار التحسين والتقبيح عنده ؟ وما الإطار الكلي المرجعي لمفاهيمه وسلوكياته ؟ ونحو ذلك.

* والمبادئ القرآنية العامة التي حاولت أن أستخلص بعضها هي رافد من روافد ذلك النموذج المعرفي الذي يمكنني القول إنه مكون من:

١ – العقيدة الإسلامية.

٢ – المقاصد الكلية العليا للشريعة.

٣– السنن الإلهية.

٤ – القيم الإسلامية.

٥ – الأحكام الشرعية المرعية.

٦ – المبادئ القرآنية العامة.

* وسوف أقوم بشرح وبيان مختصر لكل مكون من مكونات هذا النموذج المعرفي حتي يتضح الأمر، ويظهر جليًا العلاقة بين مكونات هذا النموذج المعرفي.

* * *

١- العقيدة الإسلامية

تعد العقيدة التى يعتقدها المسلم، والتي تميزه عن غيره من أهم مكونات النموذج المعرفي المبتغى إنشاؤه، ومن أهم مايتشكل منه عقل المسلم، وهناك مجموعة من الأمور تتكون منها عقيدة المسلم، فهو يؤمن:

* أنه مخلوق لخالق، وأن هذا الخالق واحد في ذاته، واحد في صفاته، واحد في أفعاله، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (١) ، وأن هذا الخالق سبحانه وتعالى قدير مريد عالم قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ (٢) ، وقال: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾ (٣)، وأن هذا الخالق سبحانه وتعالى متصف بصفات الجلال والجمال والكمال ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٤) .

* وأن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب بالوحي قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ ﴾ (٥) ، وجعل لكل أمة رسولًا وقال:

* ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٦) ، وجعل لكل أمة شرعة ومنهاجًا وقال: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ ﴾ (٧) ، حتى ختمهم بسيدنا محمد ﷺ

(١) سورة الأنعام / الآية ١٠٢.
(٢) سورة فاطر / الآية ٤٤.
(٣) سورة البروج الآية ١٦.
(٤) سورة الحشر / الآيات ٢٢: ٢٤.
(٥) سورة الحديد / الآية ٢٥.
(٦) سورة يونس / الآية ٤٧.
(٧) سورة المائدة / الآية ٤٨.

فهو خاتم الأنبياء والمرسلين كما أخبر الصادق ﷺ بذلك فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: "**إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلاَّ وضعت هذه اللبنة. قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين**" (١) ، فأنزل الله عليه (القرآن الكريم) وهو آخر الكتب السماوية، كما أنه سبحانه وتعالى أنزل (التوارة) على موسى، وأنزل (الإنجيل) على عيسى.

* وبذلك تم مفهوم التوحيد على تمامه حيث يعبد المسلمون ربًا واحدًا، ويتبعون نبيًا واحدًا لا نبي بعده، ويصلون إلى قبلة واحدة، ويصومون شهرًا واحداً ويحجون إلى بيت واحد، ويؤمنون بكتاب واحد حفظ على مستوى الأداء الصوتي بحفظ الله له كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩ ﴾ (٢) ، ومفهوم التوحيد أوسع من توحيد الإله بل هي أمة واحدة في حاضرها ومستقبلها وفي إيمانها بمجموعة الرسل من بدء الخليقة مع آدم إلى آخرهم سيدنا محمد ﷺ قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ۝٩٢ ﴾ (٣) ، وقال سبحانه أيضًا: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ۝٥٢ ﴾ (٤).

* وبذلك أيضًا يؤمن المسلم بنظرية التكليف فالله سبحانه وتعالى هو الحاكم على الحقيقة وحده ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ (٥) ، وهو يأمر وينهي والعبد يطيع فالأمر لله وحده لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ (٦) ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٧) ، والأوامر والنواهي محددة معدودة ومساحة المباح هي الأوسع، ودائرته هي الأعظم.

* ويضبط التكليف في المفهوم الإسلامي قضية الشمول حيث يشمل جميع أفعال العباد، وقضية

---

(١) صحيح البخاري كتاب المناقب باب خاتم النبيين ﷺ ٤/ ١٨٦، ونحوه صحيح مسلم كتاب الفضائل باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين ٤/ ١٧٩٠، ١٧٩١ حديث رقم ٢٢٨٦ .

(٢) سورة الحجر / الآية ٩ .

(٣) سورة الأنبياء / الآية ٩٢.

(٤) سورة المؤمنون / الآية ٥٢ .

(٥) سورة الرعد / الآية ٤١.

(٦) سورة الروم / الآية ٤.

(٧) سورة الأعراف / الآية ٥٤ .

التيسير لأنه مبني على رفع الحرج قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (١)، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (٢) ، وقضية تحصيل المصلحة لأن أحكام الله سبحانه وتعالى جميعها يتوخى تحصيل المنفعة ودرء المفسدة، فالله سبحانه وتعالى لا يأمر بشيء إلا وفيه مصلحة ومنفعة للبشرية، ولا ينهي عن شيء إلا وفيه فساد وهلاك للبشرية سواء أدركنا الحكمة أو لم ندركها ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ (٣) ،وفي جميع أحوالنا نقول رضينا بالله تعالى ربًا وبالإسلام دينًا وبسيدنا محمد ﷺ نبيًا ورسولًا.

* ويبنى التكليف أيضًا على التخفيف وعلى أن الأمور بمقاصدها، وأن اليقين لا يزال بالشك، وأن الضرر يزال، وأن العادة محكمة بالإضافة إلى أن المشقة تجلب التيسير.

* ومن ذلك أيضًا يؤمن المسلم بأن الله سبحانه وتعالى مطلق عن الزمان والمكان والأشخاص والأحوال، وكذلك بأن منظومة القيم الأخلاقية متصفة بالإطلاق والسبق على الواقع الذي يجب أن يحتكم إليها ولا تحتكم هي إليه، وذلك بخلاف القول بالنسبية المطلقة وأن الكون كما يراه الناظر كما هو شأن العلمانية الشاملة.

* ويؤمن المسلم بالقداسة والحرمة في عالم الأشياء و الأشخاص وله اعتقاد في الزمان والمكان والأشخاص للأفضلية والتميز، فهناك من الأشياء والأشخاص مالها منزلة خاصة عنده، وذلك كالمصحف، والنبي ﷺ، والكعبة، وليله القدر، ويوم عرفه لما لها من أفضلية.

* ولذلك تراه يعتقد أن الكون يسبح ويسجد ويبكى ويتأثر ويقبل ويرفض في اتجاه واحد وتيار واحد لعبادة الإله الواحد خالق الأكوان، فعنده ما يمكن أن نسميه بحقوق الأكوان التي هي اشمل في مجموعها ونظرتها الكلية من حقوق الإنسان ومن مقتضيات البيئة ومن أمثال ذلك التوجه في النماذج المعرفية الأخرى سوى الإسلام التي تنطلق من الرؤية الكميه للأشياء ومن التجزئة المقصودة المتسقة مع أطرهم المرجعية.

---

(١) سورة البقرة / الآية ١٨٥.

(٢) سورة الحج / الآية ٧٨.

(٣) سورة البقرة / الآية ٢١٦ .

* وكذلك يرى المسلم في عقيدته إن هناك يوما آخر للحساب (الثواب والعقاب) وهو أمر يمثل جزءا مهما من مكونات عقليته ومن ضوابط سلوكه إقدامًا وإحجامًا حيث تراه يقدم على ما يوصل إلى الجنة ويحجم عما يوصل إلى النار قال تعالى: ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (١) ، وقال: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ (٧٦) ﴾ (٢) .

* ويرى المسلم أنه مخلوق مكرم في هذا الكون خلقه ربه سبحانه وتعالى وكرمه وأسجد له ملائكته واعتبر الامتناع عن ذلك السجود اعتراضًا على مراد الله يستوجب الطرد من رحمته مشيرًا بذلك إلى أن الإنسان يجب احترامه باعتباره محلًا لنفخ الروح فيه من عند الله وأهلًا لحمل الأمانة ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) ﴾ (٣).

* ويرى المسلم أنه ليس جزءًا من الكون وأنه سيد فيه وليس سيدًا له .

* ويرى أن الأصل في هذا الكون وجود التكامل بين ثنائياته وليس الصراع وأن الاختلاف الحادث فيه اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد كالليل والنهار، والصيف والشتاء، والنور والظلمة، والذكر والأنثى، والحاكم والمحكوم، والغنى والفقير، والعالم والجاهل، والمؤمن والكافر، وأن كل ذلك إنما هو لتحصيل مراد الله من خلقه.

(١) سورة يونس / الآية ٤.
(٢) سورة طه / الآيات ٧٤: ٧٦ .
(٣) سورة الحجر / الآيات من ٢٨: ٣٥

* وأن مراد الله من خلقه يتمثل في عبادة الله سبحانه وتعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ (١) ، وفي عمارة الأرض ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (٢) ، وفي تزكية النفس ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ (٣) .

* وهذه النقاط السابقة تمثل النقاط الأساسية التي تتشكل منها عقيد المسلم التي يعتقدها، وهي تمثل المكون الأول من مكونات النموذج المعرفي الإسلامي المبتغى إنشاؤه .

* * *

(١) سورة الذاريات / الآية ٥٦.

(٢) سورة هود / الآية ٦١.

(٣) سورة الشمس / الآيات من ٧: ١٠.

٢- المقاصد الكلية العليا للشريعة

تعد معرفة هذه المقاصد [1] المكون الثاني من مكونات النموذج المعرفي الإسلامي، وهذه المقاصد هي حفظ الضروريات التي يترتب على فقدها اختلال نظام الحياة وشيوع الفوضى والفساد بين الناس.

لذلك نجد أن الإمام الشاطبي [2] قد بين حقيقة هذه الضروريات بقوله: "فمعناها أنها لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة. وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين" [3].

ومجموع هذه الضروريات خمسة أشياء:

١- حفظ النفس.

٢- حفظ العقل.

٣- حفظ الدين.

٤- حفظ النسل.

٥- حفظ المال.

وهذا هو الترتيب الطبعي الذي يلائم الفطرة، والذي يتفق مع جميع العقائد، وإلا كيف أحفظ على المرء دينه قبل أن أحفظ عليه حياته وعقله ؟!

فيحفظ للإنسان نفسه وعقله أولًا فيكون صالحًا للتكليف، فيحفظ له دينه، وكرامته (عرضه)، وملكيته (ماله).

---

(١) استفدت كثيرًا من: الموافقات للشاطبي ٢/٨ وما بعدها، وقواعد المقاصد عند الإمام الشاطبي "عرضًا ودراسة وتحليلًا" د/ عبد الرحمن إبراهيم الكيلاني صـ١٦٤ وما بعدها، ونظرية المقاصد عن الإمام الشاطبي لأحمد الريسوني صـ١٥١ وما بعدها، وأصول الفقه الإسلامي د/ عبد المجيد مطلوب صـ٤٥٩ وما بعدها. وللاستزادة انظر: تشنيف المسامع بجمع الجوامع للزركشي ٣/٢٩١.

(٢) هو إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي: أصولي حافظ. من أهل غرناطة. كان من أئمة المالكية توفي سنة ٧٩٠هـ من كتبه: "الموافقات" في أصول الفقه، و"الاعتصام". الأعلام للزركلي ١/ ٧٥.

(٣) الموافقات ٢/٨.

ووسائل الحفاظ على هذه الضروريات الخمس يكون بأمرين:

أحدهما: ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها. وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود.

والثاني: ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها. وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم [١].

ومعنى ذلك أن لهذه الضروريات وسائل للحفاظ عليها من جانب الوجود، ومن جانب العدم، ويجب مراعاة كل منهما.

وأول هذه الضروريات التي يجب حفظها (النفس):

وقد شرع الله تعالى للمحافظة على النفس من جانب الوجود النكاح لأجل التوالد والتناسل فقال رسول الله ﷺ: "**تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم**" [٢]، ولرفع الاختلال عنها وحمايتها من أي اعتداء نجد أنه تعالى نهى عن قتل النفس التي حرم إلا بالحق فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [٣]، وشرع أيضًا القصاص وقال: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [٤]، ورخص في تناول المحظور عند الضرورة فقال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [٥].

وثاني هذه الضروريات التي يجب حفظها (العقل):

وقد شرع الله تعالى للمحافظة عليه مايقتضي وقايته من الشرور وذلك بتحريم المسكرات فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [٦]، ثم من تمام المحافظة عليه كانت شرعية حد شارب الخمر، والشريعة الإسلامية وضعت هذه العقوبة الزاجرة على تناول الخمر وما شابهها ليبتعد الناس عنها ويفروا منها وبذلك يظل العقل

---

(١) الموافقات للشاطبي ٢/٨.

(٢) سنن أبي داوود كتاب النكاح باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء ٢/ ٥٤٢ حديث رقم ٢٠٥٠. ونحوه سنن النسائي كتاب النكاح باب كراهية تزويج العقيم ٦/ ٦٥، ٦٦.

(٣) سورة الأنعام / الآية ١٥١، وسورة الإسراء / الآية ٣٣.

(٤) سورة البقرة / الآية ١٧٩.

(٥) سورة المائدة / الآية ٣.

(٦) سورة المائدة / الآية ٩٠.

سليمًا نشيطًا منتجًا. واهتمام الشريعة بالعقل ما كان إلا لأنه مناط التكليف، وأنه من أعظم النعم التي أنعم الله تعالى بها على بني آدم.

وثالث هذه الضروريات التي يجب حفظها (الدين):

وهو عبارة عن مجموعة من العقائد والعبادات والأحكام والقوانين التي شرعها الله تعالى لتنظيم علاقة الخلق بخالقهم، وعلاقات الناس بعضهم ببعض، وقد شرع الله تعالى لحفظه من جانب الوجود إيجاب الإيمان، والنطق بالشهادتين، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وما شابه ذلك من أصول العبادات التي أراد الشارع بتشريعها إقامة الدين وتركيزه في القلوب.

كما شرع للمحافظة عليه وحمايته من العدوان قتال من يقف عقبة في سبيل الدعوة إليه، والجهاد في سبيل الله بالسنان واللسان.

وشرع أيضًا إقامة الحد على المرتد حفاظًا للدين. وحذر من الإكراه في الدين فقال: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ (١). واعتبر الفتنة في الدين أشد من القتل فقال: وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ (٢) .

ورابع هذه الضروريات التي يجب حفظها (النسل):

وقد شرع الله تعالى للمحافظة عليه من جانب الوجود الزواج وقال ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣).

فالزواج هو ذلك الميثاق الغليظ والرباط الوثيق الذي يجمع بين الرجل والمرأة خاصة وبين الناس عامة، والزواج هو الطريق الشرعي الوحيد الذي به يكون التوالد والتناسل

وللمحافظة على النسل من جانب العدم حرم الله تعالى الزنا وعاقب فاعله بإيجاب الحد عليه، فالرجم للمحصن والجلد لغير المحصن وذلك ترهيبًا منه ليبتعد الناس عنه.

كما حرم أيضًا القذف وعاقب عليه فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤ ﴾ (٤) .

وكل ما سبق إنما كان رغبة من الشارع في المحافظة على النسل والعمل على كثرته وقوته.

(١) سورة البقرة / الآية ٢٥٦.

(٢) سورة البقرة / الآية ١٩١.

(٣) سورة الروم / الآية ٢١.

(٤) سورة النور / الآية ٤.

وخامس هذه الضروريات التي يجب حفظها (المال):

وقد شرع الله تعالى تشريعات كثيرة للمحافظة عليه، فمن جانب الوجود نجد شرعية البيع ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ ﴾ (١)، والإجارة، والهبة، والعارية إلى غير ذلك من العقود المختلفة، كذلك نجد الأمر بالسعي في الأرض لطلب الرزق قال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (٢) .

وللمحافظة عليه من جانب العدم نجد تحريم السرقة والمعاقبة عليها بقطع يد السارق حدًا ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٣)، ونجد تحريم الربا ﴿ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾(٤)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾(٥) ، ونجد تحريم أكل أموال الناس بالباطل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ ﴾ (٦) ، وقال رسول الله ﷺ: **"لا يحل مال امرئ إلا بطيب نفس منه"** (٧)ونجد تحريم الغش والخيانة، والبغي والفساد في الأرض و نقص المكيال والميزان، و التبذير والإسراف في الإنفاق، ونجد أيضًا إيجاب الضمان على المتلفات، وغير ذلك من الصور التي يلحظ فيها الحفاظ علي المال من جانب العدم.

هذه هي الضروريات التي يجب حفظها، و بحصرها في خمس، و ترتيبها الترتيب المذكور تعد أحد مكونات النموذج المعرفي الإسلامي المبتغي إنشاؤه.

***

---

(١) سورة البقرة / الآية ٢٧٥.

(٢) سورة الملك / الآية ١٥.

(٣) سورة المائدة الايه ٣٨.

(٤) سورة البقر ة / الآية ٢٧٥ .

(٥) سورة البقرة / الآيتان ٢٧٨، ٢٧٩.

(٦) سورة النساء / الآية ٢٩.

(٧) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣٤/ ٢٩٩ حديث رقم ٢٠٩٦٥. تحقيق: شعيب الأرنؤوط .

٣- السنن الإلهية (١)

* إن ما يقع في هذا الكون من حوادث سواء أكانت كونية كنزول المطر، وهبوب الريح، وتعاقب الليل والنهار. أم بشرية مثل ما يحصل للإنسان من أطوار خلقه وتكوينه في بطن أمه وما يحدث له وللأمة من شقاء وسعادة ورفعة وسقوط وعلو وانحطاط وقوة وضعف وبقاء وفناء ونحو ذلك لا يقع صدفة، ولا خبط عشواء وإنما يقع ويحدث وفق قانون عام دقيق صارم لا يخرج عن أحكامه شيء، وهذا القانون العام الذي يخضع له العالم له وجهان.

* (الوجه الأول): وهو الذي تخضع له جميع الكائنات الحية في وجودها المادي وجميع الحوادث المادية، ويخضع له كيان الإنسان المادي وما يطرأ عليه مثل نموه وحركة أعضائه ومرضه وهرمه ولوازم بقائه حيًا ونحو ذلك. وهذا الوجه من هذا القانون لا يختلف في وجوده أهل العلم، بل هو من أكبر الأدلة على وجود الله تعالى الخالق العظيم، وقد دلل القرآن الكريم على هذا الوجه من هذا القانون في مواطن كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٢) وفي خلق الإنسان يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾(٣)

* ومما يتسم به هذا الوجه من هذا القانون الثبات والاستمرار، بدليل اطراد أحكامه وسريانها على الحوادث والظواهر التي يحكمها هذا القانون، فالأرض تحيا بالمطر ويخرج منها النبات قال

---

(١) استفدت كثيرًا من كتاب: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد للدكتور: عبد الكريم زيدان، وكتاب: سنن الله في المجتمع من خلال القرآن للشيخ: محمد الصادق عرجون، ورسالة بعنوان: السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم أصول وضوابط للباحث: مجدي محمد محمد عاشور بقسم اللغة العربية. بكلية الآداب – جامعة عين شمس بتاريخ ٢٠٠٣م تحت أشراف الأستاذ الدكتور: مصطفي محمد الشكعة (رسالة دكتوراه منشورة).

(٢) سورة يس / الآيات ٣٨: ٤٠ .

(٣) سورة المؤمنون / الآيات ١٢: ١٤.

تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾(١) ، وسبيل المعرفة بهذا الوجه من هذا القانون العام يكون بالنظر والتأمل والمشاهدة والاستقراء والتجارب واستخلاص النتائج وذلك عن طريق الحواس التي أوجدها الله في الإنسان [السمع، والأبصار، والأفئدة]، والقرآن الكريم أمر بالنظر والتفكير فيما خلق الله في السموات والأرض ليزداد الناس يقينًا بأن الله هو الخالق العظيم قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾(٢) ، ومعرفة هذا القانون في وجهه الأول مباحة للجميع ويمكن أن تحصل للمسلم والكافر، وتعتمد على الجدية والنشاط فأكثرهما جدية ونشاطًا أكثرهما وقوفًا عليه وإحاطة بجوانبه وجزئياته.

* (الوجه الثاني) من هذا القانون العام: وهو الذي يتعلق بخضوع البشر له باعتبارهم أفرادًا وأممًا وجماعات. وأعني بخضوعهم له خضوع تصرفاتهم وأفعالهم وسلوكهم في الحياة وما يكونون عليه من أحوال وما يترتب على ذلك من نتائج كالرفاهية أو الضيق في العيش، والسعادة والشقاء، والعز والذل، والرقي والتأخر، والقوة والضعف ونحو ذلك من الأمور الاجتماعية في الدنيا وما يصيبهم في الآخرة من عذاب أو نعيم وفقًا لأحكام هذا القانون بوجهه الثاني، وهذا هو ما يطلق عليه أو يسمى بالسنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد.

* **التعريف المختار لسنة الله:** يلاحظ أن كلمة (السنة) يدور معناها علي معني "الطريقة المتبعة" أو "العادة" وعلى ذلك فالتعريف المختار لمعني (سنة الله): هي ما اطرد من فعل الله تعالي في معاملة البشر أممًا وأفرادًا بناءً علي أفعالهم وسلوكهم وموقفهم من شرع الله تعالي .

الخصائص و الصفات التي تتسم بها (سنة الله) :

١. **الثبات:** فإنها ثابتة لا تتغير، يقول تعالي: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾(٣) وقال أيضًا: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ۝٤٣﴾(٤) .

(١) سورة الحج / الآية ٥ .
(٢) سورة يونس / الآية ١٠١.
(٣) سور الأحزاب / الآية ٦٢.
(٤) سورة فاطر / الآية ٤٣.

٢. **الاطـراد:** فهي مطردة لا تختلف، ويدل علي ذلك أن الله تعالي قص علينا قصص الأمم السابقة وما حل بها لنتعظ و نعتبر، و لا نفعل فعلهم لئلا يصيبنا ما أصابهم، و لولا اطراد ها لما أمسكت الاتعاظ والاعتبار بها، قال الله تعالي: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (١) .

٣. **العموم:** فإنها عامة يسري حكمها علي الجميع دون محاباة ولا تمييز، وهي غير مقتصرة على فرد دون فرد ولا علي قوم دون قوم. قال الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ (٢) ، ومعني الآية: أن كل من يعمل سوءًا يلق جزاءه وفاقًا لعلمه، ولأن الجزاء بحسب سنة الله تعالي أثر طبعي للعمل لا يتخلف عنه.

* والسبيل لمعرفة سنة الله تعالي هو الرجوع إلي كتاب الله الكريم وسنة نبيه الكريم ﷺ فإن فيهما القول الفصل، و ما بيناه من أنه هو (سنة الله) أي قانونه العام الذي تجري بموجبه أحداث ووقائع البشر، فهذا هو البيان الحق المبين.

* **أهمية دراسة السنن الالهيه:** تكمن أهمية دراسة السنن الالهيه فيما تتضمنه من الاعتبار والاتعاظ بأحوال الأمم السابقة، فمعرفة سنن الله ذات أهمية عظمي للمسلمين إذ إنها تبصرهم و تدعوهم إلي فحص نفوسهم و صفاتهم وأحوالهم وما هم عليه أفرادًا وأممًا ودولًا و جماعات في ضوء سنن الله التي بينها لنا، ليعلموا يقينًا أن ما هم عليه مما يحزن الصديق و يسر العدو، وما أصابهم وما حل في ديارهم لم يحدث صدفة أو خبط عشواء و لكنه نتيجة حتمية لما فعلوه أو قصروا في فعله، وليعلموا أيضًا على وجه اليقين أن الخلاص من هذه الحالة لن يكون أبدًا إلا بالرجوع إلى منهج الله و اتباع ما تقتضى به سنن الله تعالى، و ليس باتباع غيرها، فيتحصل مما سبق أن معرفة سنن الله تعالى جزء من معرفة الدين أو معرفة لجزء من الدين لذلك تعد مكونًا أساسيًا من مكونات النموذج المعرفي الآسلامى.

* وسنن الله تعالى كثيرة بلغت أكثر من عشرين سنة عند من عدها، ومن هذه السنن:-

١. سنة الله في الأسباب و المسببات (قانون السببية).

---

(١) سورة آل عمران / الآيتان ١٣٧، ١٣٨ .

(٢) سور النساء / الآية ١٢٣ .

٢. سنة الله في الترف و المترفين (قانون الترف).

٣. سنة الله في التدافع بين الحق و الباطل (قانون التدافع).

٤. سنة الله في الاستدراج (قانون الاستدراج).

٥. سنة الله في المكر و الماكرين (قانون المكر).

٦. سنة الله في الفتنة و الابتلاء (قانون الابتلاء).

٧. سنة الله في الطغيان و الطغاة (قانون الطغيان و الطغاة).

٨. سنة الله في الجزاء بجنس العمل (قانون الجزاء).

٩. سنة الله في بطر النعمة وتغييرها (قانون بطر النعمة وتغييرها).

١٠. سنة الله في التوازن بين المخلوقات (قانون التوازن).

١١. سنة الله في تداول الأيام (قانون التداول).

وسوف أقوم بشرح وبيان السنن الثلاث الأولى فقط بالترتيب وذلك من باب ضرب الأمثلة للتوضيح.

(١) سنة الله في الأسباب والمسببات [قانون السببية]

* إن الذي يقرأ القرآن الكريم يجد في آياته ما يدل على أن كل شيء يحدث بسبب، فقانون السببية أي ربط المسببات بأسبابها والنتائج بمقدماتها. هذا القانون عام شامل لكل ما في العالم ولكل ما يحصل للإنسان في الدنيا والآخرة، ولكننا كثيرًا ما نسمع من يقول إن هذا الشيء قد حدث صدفة، ولكن في الواقع أن هذا الأمر غير صحيح، فليس في الكون مكان للصدفة وإنما هنالك أسباب ومسببات ونتائج تسبقها مقدمات.

* وهذا القانون الإلهي العام غاية في الدقة والاطراد يخضع له الكون كله بما في ذلك الإنسان في جميع أحواله، وهذا أمر واضح جلي، لذلك فإن عدم الاعتبار بالأسباب يعد نقصًا في العقل وطعنًا في الشرع.

* والله سبحانه وتعالى هو خالق الأسباب والمسببات، فكون الشيء سببًا لغيره أو كونه مسببًا عن غيره هو من فعل الله تعالى، ومعنى ذلك أن السبب إنما يعمل ويستدعي مسببه بموجب سنة الله ونفاذها.

* والسبب إنما يستوجب مسببه إذا توفرت وتحققت شروط عمل هذا السبب وفاعليته واستدعاؤه لمسببه، كما لابد من انتفاء الموانع التي تمنع عمل هذا السبب أو تسلبه فاعليته بحيث يصبح غير قادر على استدعاء مسببه، فمثلًا: الزرع سببه حرث الأرض وإلقاء البذر، وشرطه صلاحية الأرض للإنبات وصلاحية هذا البذر للنبات وتوفير الماء الكافي وانتفاء الموانع من خروج النبات والثمر كانتفاء الآفات التي تهلك الزرع والثمر أو تمنع نموه ونحو ذلك.

* والأخذ بالأسباب لا ينافي الإيمان بالقضاء والقدر، بل إنه لا يجوز إسقاط الأسباب وعدم مباشرتها بحجة الإيمان بالقضاء والقدر، كأن يترك الإنسان العمل وغيره من أسباب الرزق بحجة أنه إذا كان الله قدر له رزقًا فلابد أن يأتيه ويحصل عليه سواء عمل أو لم يعمل، وكأن يترك الإنسان الدعاء والاستغفار اعتمادًا على الخطأ ومن فعل ذلك كان مخطئًا، لأن الله تعالى جعل الدعاء ونحوه من العبادات أسبابًا تنال بها مغفرته ورحمته وهداه ورضوانه، فإذا قدر الله للعبد خيرًا يناله بالدعاء أو بغيره من الأسباب لم يحصل ما قدره الله له بغير هذه الأسباب، وما قدره تعالى وقضاه وعلمه من أحوال العباد وعواقبهم فإنما قدره بأسباب تقع فيقع ما ارتبط بها من مسببات، فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب والله خالق الأسباب والمسببات جميعًا.

* والأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل بل أن التوكل نفسه من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب ويندفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل، لأن التوكل الشرعي الصحيح هو الاعتماد الكامل على الله والثقة بكفايته بعبده مع مباشرة العبد للأسباب المشروعة التي جعلها الله مفضية إلى مسبباتها، فالإنسان يأخذ بالأسباب ويباشرها ببدنه إلا أن اعتماده القلبي يكون على الله لا عليها كالفلاح يحرث الأرض ويلقي البذور واعتماده على الله في إنزال المطر وإخراج الزرع.

* هناك علاقة وثيقة الصلة بين سنة الله في الأسباب وبين السنن الأخرى، لذلك فمن غير البعيد أن يقال أن السنن الأخرى تقوم على سنته تعالى في الأسباب بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

(٢) سنة الله في الترف والمترفين [قانون الترف]

* للترف والمترف ثلاث صفات هي:

١. الترف: بطر النعمة، والمترف هو الذي أبطرته النعمة وسعة العيش.

٢. الترف: الطغيان بسبب النعمة، والمترف هو الذي أطغته النعمة.

٣. الترف: التنعم والتوسع في ملاذ الدنيا، والمترف هو المتنعم المتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها [١].

* ومن عادة المترفين الذين أثر فيهم الترف فبطروا النعمة وانغمسوا في الشهوات أن يسارعوا دون غيرهم في تكذيب الرسل ورد الحق محتجين بكثرة الأموال والأولاد قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [٢]، فرد الله عليهم هذه الحجة بقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [٣]، أي أن الله تعالى يبسط الرزق لمن يشاء أن يبسط له الرزق، ويضيق على من يشاء، فربما يوسع الله سبحانه على العاصي ويضيق على المطيع وربما يعكس الأمر وربما يوسع عليهما معًا وقد يضيق عليهما معًا، فهو سبحانه يفعل ذلك حسبما تقتضيه مشيئته تعالى وحكمته ولكن أكثر الناس لا يعلمون حكمة ما يفعله الله من البسط والتضييق في الرزق على عباده.

* وقد جرت سنة الله في المترفين الذين أبطرتهم النعمة فكذبوا الرسل ورفضوا دعوة الله أن يهلكهم ويذيقهم العذاب في الدنيا كما يذيقهم العذاب في الآخرة، فإذا أراد الله تعالى استئصالهم سلط عليهم شهواتهم فتقودهم إلى مزالق الخبائث وعندئذ تحق عليهم كلمة الله ويحل بهم الهلاك والفناء.

* وهذا الهلاك والفناء لا يحل بهم فحسب بل يحل بمجتمعهم أيضًا. فهلاك الأمم يكون بفسق مترفيها. قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [٤]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [٥] فهاتان الآيتان الكريمتان بينتا أن سنة الله التي تخضع لها المجتمعات في مراحل الانحدار والفساد تكون بأن يبدأ هذا الانحدار والفساد من القمة، وفساد

---

(١) السنن الإلهية في الأمم والمجمعات والأفراد للدكتور / عبد الكريم زيدان صـ ١٨٣ بتصرف.

(٢) سورة سبأ الآيتان / ٣٤، ٣٥.

(٣) سورة سبأ / الآية ٣٦.

(٤) سورة الأنعام / الآية ١٢٣.

(٥) سورة الإسراء / الآية ١٦.

القمة نذير بإفساد المجتمع، وهذا الفساد لا يخص طائفة بعينها، فالسيئة تعم، وتزيد هذه الآية الثانية معنى جديدًا فتبين أن الترف عامل من أقوى وأسرع عوامل الانحلال الاجتماعي لأن الانغماس في الشهوات والرذائل يجعلها أمرًا مألوفًا في الحياة بل يجعله ميدانًا للتنافس الفاجر، فلا يهتم أحد برفع رأسه إنكارًا لها بل يجد المجتمع في كبرائه المترفين من ينكر على من ينكر هذه الرذائل وتصبح الفضائل الأخلاقية أمرًا غريبًا في نظر هذا المجتمع وهذا هو منهج المترفين في الحياة، فمنهجهم هو الانغماس في الشهوات والاهتمام بالترف فلا تقلقهم المنكرات التي تقع ويترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعندئذ يحل الفناء بالمجتمع كله.

يقول الشيخ محمد الصادق عرجون [(١)]: "وهذه الآية [(٢)] يلوح من إشراقها أن الله تعالى جعل من سنته أن يأخذ بالإفساد الاجتماعي وإشاعة الفواحش والشرور أسرع مما يأخذ بالكفر والإشراك به، كما أنها تبين أن أهل الخير والصلاح لو قاموا بواجب النهي عن الفساد في الأرض بصدق وإخلاص وشجاعة في الحق وللحق لنجا المجتمع وسلم من انتقام الله وبطشه، لأن سنته تعالى ألا يهلك الناس هلاك استئصال بكفرهم ما داموا صالحين للحياة المستقيمة وجزاء الكفر يقبل التأجيل إلى الدار الآخرة، ولكن جزاء البغي والفجور والفساد في الأرض معجل في هذه الحياة موفور في الآخرة"[(٣)].

(٣) سنة الله في التدافع بين الحق والباطل [قانون التدافع]

* الحق في اللغة نقيض الباطل، وحق الأمر يحِق يحُق حقًا وحقوقًا: صار حقًا وثبت[(٤)]، إذن فالحق هو الثابت الصحيح الواجب فعله أو بقائه من اعتقاد أو قول أو فعل بحكم الشرع، والباطل

---

(١) هو محمد الصادق بن إبراهيم عرجون: عالم ناقد من أهالي مصر. تخرج في الأزهر ونال منه العالمية ثم شهادة التخصص، فعين بمعاهده ثم نقل إلى كلياته، تقلد عددًا من المناصب الأزهرية، فعمل على نشر مدارس تحفيظ القرآن الكريم في مصر والعالم الإسلامي. رحل إلى عددًا من البلدان العربية أستاذًا في جامعاتها. ولما تقاعد تفرغ للتأليف حتى توفي سنة ١٩٨٠م. له: و"الموسوعة في سماحة الإسلام"، و"سنن الله في المجتمع من خلال القرآن" وغير ذلك. إتمام الأعلام ذيل لكتاب الأعلام للزركلي تأليف: د/ نزار أباظة، ومحمد رياض المالح صـ٢٤٢، ط: دار صادر بيروت.

(٢) يقصد بها الآية الثانية من الآيتين السابقتين، وهي الآية رقم ١٦ من سورة الإسراء.

(٣) سنن الله في المجتمع من خلال القرآن صـ٣٩، ٤٠.

(٤) لسان العرب لابن منظور مادة (حقق) ٣/٢٥٥، ٢٥٦.

نقيضه أي ما لا ثبات له ولا اعتبار ولا يوصف بالصحة ويستوجب الترك ولا يستحق البقاء بل يستوجب لمحو والإزالة في نظر الشرع [١].

* والتدافع يكون بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل فيحاول كل منهما تنحية الآخر أو إزالته ومحوه بالقوة عند اقتضاء ذلك.

* والتدافع – بهذا المعنى – أمر حتمي لابد منه لأنهما نقيضان والنقيضان لا يجتمعان، لأن تطبيق أحدهما يستلزم مزاحمة الآخر له وطرده ودفعه وإزالته أو في الأقل إضعافه ومنعه من أن يكون له تأثير في واقع الحياة.

* والصراع بين الحق والباطل والتدافع بين أهل الخير والإصلاح وأهل الشر والفساد سنة من سنن الله تعالى إذ أنه لولا أذن الله تعالى للمظلومين في قتال الظالمين ومدافعتهم بالقوة لاستشرى الفساد في الأرض، وانتهكت الحرمات وضاعت معالم الخير والهداية بضراوة أهل الظلم والضلال قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [٢]، فتخريب مواضع العبادة وانتهاك الحرمات المقدسة في سنة الله تعالى هو ذروة الفساد والإفساد لذلك كان دفع هذا الظلم والطغيان بالقوة هو أرفع صور الإصلاح والعدل.

* وقد أكد القرآن الكريم سنة الله تعالى في وقوف الحق وأهله أمام الباطل وحزبه في آية أخرى تتفق تمام الاتفاق مع نص هذه الآية السابقة لكن بإجمال النتيجة المترتبة على ترك المفسدين في الأرض دون مقاومة تمنعهم من الظلم والطغيان يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [٣].

* يقول الشيخ محمد الصادق عرجون: "والآيتان [٤] متفقتان منهجًا وأسلوبًا وسببًا وغاية. فآية تهديم أماكن العبادة جاءت عقيب إذن الله تعالى للمؤمنين في قتال الظالمين. فهي مبينة لشرعة الجهاد الحربي لدفع ظلم الظالمين، وتأمين الحياة من شرورهم وطغيانهم. وآية الفساد في الأرض بشيوع

(١) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد للدكتور / عبد الكريم زيدان صـ٤٥ بتصرف .
(٢) سورة الحج / الآية ٤٠.
(٣) سورة البقرة / الآية ٢٥١ .
(٤) يقصد بهما الآيتين السالف ذكرهما.

الفتن والفزع والرعب والاضطراب في حياة الناس جاءت عقيب قصة دفع جالوت وجنوده من نماذج الطغيان والظلم والإفساد في الأرض بجند طالوت من المؤمنين أهل الخير والإصلاح. وهذا صريح في أن سنة الله في المجتمع أن يدفع بعضهم ببعض فيسلط أهل الإيمان والإصلاح على أهل الإلحاد والفجور ليقوم بين الناس ميزان الحق والعدل، ويأمن أهل الأديان على قداسة متعبداتهم وحرياتهم الدينية، وهي من أقدس الحريات في سنن الله تعالى" (١) .

* ومن الأدلة على أن سنة الله في التدافع بين الحق والباطل أن الغلبة دائمًا للحق وأهله وأن المحق للباطل وأهله قوله تعالى: ﴿ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ﴾ (٢)، وقوله: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ (٣) ، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا ﴾ (٤)، وهذه الآية الأخيرة تعد قاعدة عامة مبينة لسنة الله في تنازع الحق والباطل وذلك بعدم جعل عمل المفسدين صالحًا، فتكون النتيجة الحتمية المترتبة على ذلك أن الغلبة دائمًا للحق وأهله.

* وسنة الله في نصر المؤمنين لا تتخلف وهناك أدلة على ذلك منها قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (٥)، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٦) إلى غير ذلك من الأدلة.

* وسنة الله في نصره للمؤمنين مرتبطة بنصر المؤمنين لله واعتصامهم بدينه، وتمسكهم بأحكامه والعمل بشرائعه، وإقامة حدوده قال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ (٧)، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ (٨) .

---

(١) سنن الله في المجتمع من خلال القرآن عرجون ص٧٠.
(٢) سورة الشورى / الآية ٢٤ .
(٣) سورة الأنبياء / الآية ١٨ .
(٤) سورة يونس / الآية ٨١ .
(٥) سورة الصافات / الآيات من ١٧١ : ١٧٣ .
(٦) سورة الروم / الآية ٤٧ .
(٧) سورة الحج / الآية ٤٠ .
(٨) سورة محمد / الآية ٧ .

* لذلك فإن واقع المسلمين لا ينقض سنة الله في نصر المؤمنين لأن المراد بالمؤمنين المؤمنون المتصفون بأوصاف الإيمان التي بينها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم، وبينتها سنة رسوله ﷺ، وليس المراد بالمؤمنين المؤمنين بأمانيهم الذين لا يتحقق فيهم وصف الإيمان الذي يستلزم نصر الله وتأييده لهم، لذلك فعلى المسلمين في هذه الحالة أن يراجعوا أنفسهم وأن يعرضوها ويعرضوا أحوالهم وأفعالهم وما هم عليه على معاني الإيمان ومقتضياته ويزنوها بميزانه ليعرفوا الخلل الذي هم فيه ويقوموا بتصحيح وتدارك أخطائهم حتى يدخلوا في مضمون سنة الله تعالى في نصر المؤمنين.

* هناك أسباب وعوامل للنصر معنوية ومادية يجب الأخذ بها، وتتلخص هذه الأسباب في الإيمان بالله والتوكل عليه، وتقواه، ونصرة دينه، وتوحيد كلمة الأمة، واتقاء التنازع والاختلاف فيما بينها وإعداد القوة عتادًا ورجالًا. وترك هذه الأسباب والعوامل يعد من معوقات النصر التي تستدعي تأخره.

* وما سبق كان مجرد نبذة سريعة عن السنن الإلهية وبيان تعريفها ونماذج منها وما كان ذلك إلا لأنها تعد مكونًا أساسيًا من مكونات النموذج المعرفي المبتغى إنشاؤه.

* * *

٤- القيم الإسلامية

* تعد معرفة هذه القيم الإسلامية مكونًا أساسيًا من مكونات النموذج المعرفي الإسلامي.

* تعريف القيم: هي مجموعة من الأخلاق التي تصنع نسيج الشخصية الإسلامية وتجعلها متكاملة قادرة على التفاعل مع المجتمع (١).

* مصدرها: كلمات الله تعالى وحده، غير محرفة ولا مبدلة، ولا مخلوطة بأوهام البشر وأخلاطهم وانحرافاتهم، وهي التي بينها واستمسك بها رسول الله ﷺ والسلف الصالح من بعده، لذلك فإن القيم الإسلامية تقوم عليها الحياة فهي تساهم في تحديد علاقة الإنسان بنفسه ومحيطه وخالقه.

* والقيم الإسلامية كثيرة، ومتعددة، ومتنوعة كالعدل، والمساواة، والحرية، والإخاء، والجمال، والإخلاص، والتواضع، والتعاون، والتكافل، والشورى... إلى غير ذلك من القيم الإسلامية، وسوف أقوم بشرح وبيان القيم الثلاثة الأولى فقط بالترتيب وذلك من باب ضرب الأمثلة للتوضيح.

(١) العدل

* العدل قيمة ضرورية في الإسلام، عمل الإسلام على وإرسائها بين الناس، بل إننا نجد أن الله تعالى قد بعث رسله وأنزل كتبه؛ لنشر العدل بين البشر، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (٢) ، والقسط: العدل، وهو قوام الدنيا والدين، وسبب صلاح البلاد والعباد، وما من شيء قام عليه إلا استقام وأمن الانعدام.

* والعدل روح الإسلام حيث نادى به قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٣) ، والمعنى: إن الله يأمركم أن تؤدى الحقوق إلى أصحابها، وأن تحكموا بالعدل المطلق إذا حكمتم بين الناس. ونعم الشيء الذي يعظكم به الله، ويأمركم به وهو أداء الأمانة، والحكم بالعدل. إن الله كان سميعًا لما يقال، بصيرًا بما يفعل.

---

(١) مدخل إلى القيم الإسلامية للدكتور / جابر قميحة صـ٤١ بتصرف .

(٢) سورة الحديد / الآية ٢٥ .

(٣) سورة النساء / الآية ٥٨ .

* والإسلام يأمر بالعدل وينهى عن الظلم، وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تبين ذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ (١) ، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ (٢) ، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ (٣) ، والمعنى: يا أيها الذين أمنوا كونوا قائمين بالعدل، شهداء بالحق، ولو كانت الشهادة على أنفسكم، فقرروا الحق ولا تكتموه. فلا تتبعوا الهوى فى شهادتكم بأن تحابوا الغني لرضاه، أو الفقير رحمة به، ولا تميلوا عن الحق. وإن تلووا وتحرفوا الشهادة وتعرضوا عن أدائها فإن الله خبير بما تعملون فيجازيكم به.

* ومفهوم العدل في الإسلام واسع شامل، يجري في أمور كثيرة، مرجعه إلى عدل الإنسان مع ربه، ثم عدله مع نفسه، ثم عدله مع غيره.

* وقد أعطى ابن العربي في تفسيره للعدل معنى واسعًا عامًا حيث يقول: "فالعدل بين العبد وربه إيثار حق الله تعالى على حظ نفسه، وتقديم رضاه على هواه، والاجتناب للزواجر، والامتثال للأوامر، وأما العدل بينه وبين نفسه فمنعها مما فيه هلاكها، وعزوب الأطماع عن الإتباع، ولزوم القناعة في كل حال ومعنى، وأما العدل بينه وبين الخلق ففي بذل النصيحة، وترك الخيانة فيما قل وكثر، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه، ولا يكون منك إلى أحد مساءة بقول ولا فعل، لا في سر ولا في علن، والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى، وأقل من ذلك الإنصاف وترك الأذى"(٤).

* بناءً على المفهوم السابق للعدل فإن مجالاته في الإسلام كثيرة ومتعددة ومختلفة. فالعدل مطلوب في مجال الحكم والقضاء، ومطلوب في إنفاق المال بالاقتصاد بلا إسراف ولا تقتير،

(١) سورة النحل / الآية ٩٠.
(٢) سورة المائدة / الآية ٨ .
(٣) سورة النساء / الآية ١٣٥ .
(٤) أحكام القرآن ١١٧٢/٣ بتصرف.

ومطلوب في العبادة بالتوسط بلا إفراط ولا تفريط، وفي العلاقة بين الرجل والمرأة، وفي العلاقة بين المسلمين بعضهم ببعض، وكذلك في علاقتهم مع غيرهم، وفي علاقة الدولة الإسلامية مع غيرها.

* ومما سبق يتضح لنا أن العدل بابه واسع، فلا يكاد نظام في الإسلام إلا وللعدل فيه مطلب.

* وللعدل ثمرات عظيمة ومنافع كثيرة، منها: نماء العمران واتساعه، بخلاف الظلم، فإنه مؤذن بخراب العمران.

* وقد طبق المسلمون الأوائل العدل في أعلى صوره حتى صاروا مثالًا رائعًا، ونموذجًا يحتذى به في إقامة العدل.

(٢) المساواة

* لقد كان الناس قبل الإسلام يتفاضلون في الخلق والنشأة، ويتميزون في الأحساب والأنساب، فلما جاء الإسلام حرص كل الحرص على تقرير مبدأ المساواة بين الناس في القيمة البشرية، فقد قرر أن الناس سواسية كأسنان المشط في أصل نشأتهم وتكوينهم، وأنه لا فرق في ذلك بين عربي وأعجمي، ولا بين أبيض وأسود، ولا بين غني وفقير، لأنهم جميعًا ينحدرون من أصل واحد وهو آدم عليه السلام، وآدم من تراب، فإذا كان الأمر كذلك فلا معنى للتعالى ولا مجال للتسامي، وهذا النوع من المساواة نوه عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ (١)، فالتكريم هنا شامل للجنس كله، فجنس الإنسان مكرم عند الله بلا تفرقة بين مجموعة وأخرى، فالإسلام ينظر إلى الجميع بمنظار واحد هو الإنسانية، لذلك نجد أن الإسلام لا يسمح بقيام نظام طبقي تسيطر فيه طبقة على أخرى أو على باقي الطبقات، كما لا يسمح بتحكم فئة تدعي لنفسها الاستعلاء على الفئات الأخرى.

* والمساواة في القيمة الإنسانية لا ينافي التفاضل بين الناس؛ وذلك لأن التفاضل لا يقع في أصل الخلق والنشأة لأنها أمور لا يملكها الإنسان، وإنما يقع فيما يملكه ويندرج تحت طاقته كالإيمان بالله والصلاة والزكاة والصوم والحج، وكفعل الخيرات وترك المنكرات عامة ونحو ذلك من الأعمال الصالحة، وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ

---

(١) سورة الإسراء / الآية ٧٠.

شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ (١)، ففي هذه الآية الكريمة ينادي الله سبحانه وتعالى الناس كافة، فلا ينادي أمة دون أخرى، يناديهم ليبين لهم أنهم مخلوقون من أصل واحد وهو آدم وحواء، فإذا كان الحال كذلك فلا مجال لأن يدعي بعضهم السمو على البعض الآخر من ناحية الجنس، وأنه تعالى إنما جعلهم شعوبًا وقبائل متفرقة في الأرض مختلفة في الأجناس واللغات ليتعارفوا والتعارف يدعو إلى التآلف والتعاون على تذليل عقبات الحياة، وأنه لا تفاضل بين الناس إلا على أساس أعمالهم، لذلك فقد فضل المسلم على الكافر بالإيمان، والصالح على الفاجر والتقي على الفاسق بالأعمال الصالحة من أجل ذلك لا يستوي الفريقان قال تعالى: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ ﴾ (٢)، وقال سبحانه: ﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾(٣).

* والمساواة التي قررها الإسلام مساواة عامة في جميع الحقوق والواجبات. مساواة أمام الشريعة، مساواة أمام القانون والقضاء، مساواة في الحقوق السياسية العامة وغير ذلك.

* إن الإسلام دين العدل والمساواة، ولن يتحقق الوئام بين الناس إلا إذا أحسوا جميعًا أنهم كلهم لآدم وآدم من تراب، فإن هذا يزيد من إقبال الفقير على الغني، وتعاون الضعيف مع القوي، فتزول العداوة والبغضاء، ويحل السلام والوئام محل النزاع والخصام، وتطهر النفوس، وتطمئن القلوب بفضل شريعة الإسلام.

(٣) الحرية

* لقد خلق الله سبحانه وتعالى بفضله الناس أحرارًا، ولا ريب أن الإسلام قد كفل للإنسان حقه في الحرية والاختيار، وجعلها حقًا من حقوقه الطبعية، فلا قيمة لحياة الإنسان بدون الحرية، بل إنه لا يستطيع أن يعيش بدونها.

* والحرية التي أقرها الإسلام لا تعني الإطلاق عن كل قيد، لأن الحرية بهذا الشكل سوف تحول الحياة إلى فوضى، ولكن وضع لها ضوابط وقيود تضمن الحرية للفرد والجماعة، وذلك كألا

(١) سورة الحجرات / الآية ١٣ .

(٢) سورة ص / الآية ٢٨ .

(٣) سورة الجاثية / الآية ٢١ .

تؤدي الحرية إلى تهديد أمن وسلامة النظام العام، وأيضًا ألا تؤدي حرية الفرد إلى الإضرار بحرية الآخرين، إلى غير ذلك من القيود والضوابط.

❋ وقد منح الإسلام الإنسان الحرية بأنواعها المختلفة، سواء الحرية المتعلقة بحقوق الفرد المادية كحرية الفرد الذاتية، وحرية التنقل، وحرية المسكن، وحرية التملك، وحرية العمل. أو الحرية المتعلقة بحقوق الفرد المعنوية كحرية الاعتقاد، وحرية الرأي والفكر، وحرية التعليم، والحرية السياسية.

❋ إن دين الإسلام هو دين الحرية الصحيحة، قد سبق غيره بأزمنة طويلة في تقرير هذا المبدأ الإنساني، ونشره في العالم كله.

❋ وما سبق كان عبارة عن نماذج من القيم الإسلامية، دعت الحاجة إلى ذكرها؛ لكونها مكونًا أساسيًا من مكونات النموذج المعرفي الإسلامي المبتغى إنشاؤه.

❋❋❋

٥- الأحكام الشرعية المرعية

* تعد معرفة الأحكام الشرعية المرعية مكونًا أساسيًا من مكونات النموذج المعرفي الإسلامي.

* والأحكام الشرعية المرعية هي التي تراعى في شريعة الإسلام، وأجمع المسلمون كافة واتفقوا عليها في كل زمان ومكان، وحفظت للإسلام هويته، وتعد من أهم خصائصه.

* وهذه الأحكام الشرعية المرعية مثل:

١. إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت.

٢. حرمة الربا، والزنا، والسرقة، والقتل، والكذب، والفساد، والظلم، والشرك، وغير ذلك.

٣. حل البيع والتصرفات المالية المختلفة النافعة، والزواج والطلاق، ونحو ذلك من الأحكام.

٤. ذكر الله تعالى كطريق للتربية.

* * *

إذا نظرنا إلى مكونات هذا النموذج المعرفي لإيجاد علاقات بينها، وجدنا على سبيل المثال مايلي:

* أن "القصاص حياة" مبدأ عام من مبادئ القرآن الكريم، ومن وسائل المحافظة على النفس (أول مقصد من مقاصد الشريعة) إقامة القصاص.

* أن "الفتنة أشد من القتل" مبدأ عام من مبادئ القرآن الكريم، وقد حذر القرآن الكريم من الفتنة في الدين كوسيلة من وسائل المحافظة على الدين (ثالث مقصد من مقاصد الشريعة).

* أن "من يعمل سوءًا يجز به" مبدأ عام من مبادئ القرآن الكريم، ومن سنن الله تعالى: (سنة الله تعالى في الجزاء بجنس العمل).

* أن "العدل أساس الملك" مبدأ عام من مبادئ القرآن الكريم، والعدل قيمة إسلامية عظيمة.

* أن "لا إكراه في الدين"، و"لكم دينكم ولي دين" مبدأين من مبادئ القرآن الكريم معناهما: حرية الاعتقاد واحترامها، والحرية قيمة إسلامية عظيمة.

إلى غير ذلك من العلاقات البينية التي تربط بين مكونات هذا النموذج المعرفي، والتي تحتاج في استخراجها إلى نظر وتأمل.

* * *

الباب الثاني
تطبيق بعض المبادئ القرآنية في المجالات المختلفة

ويضم خمسة فصول:

الفصل الأول : تطبيق بعض المبادئ القرآنية في الاقتصاد

الفصل الثاني : تطبيق بعض المبادئ القرآنية في السياسة

الفصل الثالث : تطبيق بعض المبادئ القرآنية في القانون

الفصل الرابع : تطبيق بعض المبادئ القرآنية في علم النفس

الفصل الخامس : تطبيق بعض المبادئ القرآنية في التربية

الفصل الأول
تطبيق بعض المبادئ القرآنية في الاقتصاد

تطبيق مبدأ التوسط في الإنفاق في مجال الاستهلاك

ينظر الإسلام إلى الاستهلاك على أنه أمر فطري للإنسان، ومن ثم فهو ضروري له، وبالتالي لا يمنع الإسلام الاستهلاك، بل يرغب فيه، ويحث عليه في إطار القيود والشروط والمبادئ التي وضعها لذلك. يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [١] ، ويقول سبحانه أيضًا: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [٢] .

ويعرف الاستهلاك بأنه: استخدام السلع والخدمات استخدامًا مباشرًا ونهائيًا في إشباع حاجات الأفراد [٣] .

ومن المبادئ التي وضعها الإسلام كأساس للاستهلاك مبدأ التوسط في الإنفاق، أو مبدأ الرشد الاستهلاكي.

"فقد دعا الإسلام إلى الرشد في الاستهلاك في جميع حالات الإنسان يسرها وعسرها، يقول رسول الله ﷺ: "**ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه من الخيلاء. وثلاث منجيات: العدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفاقة، وخشية الله في السر والعلانية**" [٤]، وهذا الحديث الشريف نص صريح في الدعوة إلى الرشد الاستهلاكي، إذ أن (القصد) الذي يدعو إليه الحديث هو بعينه الرشد الاستهلاكي " [٥].

(١) سورة البقرة / الآية ١٧٢ .

(٢) سورة الأعراف / الآية ٣١ .

(٣) مقدمة الإحصاء التطبيقي لعبادة سرحان وآخرين ص٤٠٣ – دار الجيل للطباعة ١٩٧٢م .

(٤) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ٦/ ٢١٤ حديث رقم ٥٤٤٨ .

(٥) مبادئ التربية الاقتصادية للمستهلك في الإسلام د/ منى على السالوس بحث ضمن ندوة التربية الاقتصادية والإنمائية في الإسلام. مركز الاقتصاد الإسلامي. جامعة الأزهر ٢٠٠٢م ص١٧ بتصرف .

وعندما وصف الله تعالى في كتابه الكريم عباده المتقين في إنفاقهم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧ ﴾ (١)، والقوام بين الإسراف والتقتير هو الرشد الاستهلاكي، وهو وضع الشيء في نصابه، وإنفاق المال في موضعه، فلا يمنعه من واجب، ولا يضعه في حرام.

يقول ابن عطية في تفسيره للآية الكريمة: "اختلف المفسرون في هذه الآية فعبارة أكثرهم أن الذي لا يسرف هو المنفق في الطاعة وإن أسرف، والمسرف هو المنفق في المعصية وإن قل إنفاقه، وأن المقتر هو الذي يمنع حقًا عليه، وقيل: الإسراف أن تنفق مال غيرك، ونحو هذه الأقوال التي هي غير مرتبطة بلفظ الآية. وخلط الطاعة والمعصية بالإسراف والتقتير فيه نظر، والوجه أن يقال أن النفقة في المعصية أمر قد حظرت الشريعة قليلة وكثيره وكذلك التعدي على مال الغير وهؤلاء الموصوفون منزهون عن ذلك، وإنما التأديب بهذه الآية هو في نفقة الطاعات، وفي المباحات فأدب الشرع فيها أن لا يفرط الإنسان حتى يضيع حقًا آخر أو عيلًا ونحو هذا، وأن لا يضيق أيضًا ويقتر حتى يجيع العيال ويفرط في الشح، والحسن في ذلك هو القوام أي المعتدل" (٢) .

ويقول أبو بكر بن العربي: "التبذير هو منع المال من حقه ووضعه في غير حقه. فإن قيل فمن أنفق في الشهوات، هل هو مبذر أو لا؟ قلنا: من أنفق ماله في شهواته زائدًا على الحاجات فهو مبذر، ومن أنفق درهمًا في حرام فهو مبذر" (٣) .

إن الإسلام يحث المسلم على أن يكون سلوكه رشيدًا في استهلاكه، سواء في المأكل، أو في المشرب، أو في الملبس، أو في المسكن، أو في أي جانب من جوانب الحياة، فلا يسرف ولا يقتر، بل يكون في استهلاكه وسطًا بين ذلك. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩ ﴾ (٤) .

"إن الإسلام يأبى البخل والشح، كما يرفض الإسراف و الترف الزائدين، فلا ينسى الإنسان نصيبه مما أباح الله له في الدنيا، في حدود المتاح له من ثروة ودخل. أما ما زاد عن إمكانات الفرد

---

(١) سورة الفرقان/ الآية ٦٧ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/١٢.

(٣) أحكام القرآن ١٢٠٣/٣ بتصرف .

(٤) سورة الإسراء/ الآية ٢٩ .

وموارده ولم يناسب ظروف المجتمع، ولم يسمح بتحقيق التوازن بين الاستهلاك الحاضر والمستقبل، والقيام بالواجبات تجاه النفس والأسرة والمجتمع، فإنه يعد إسرافًا وترفًا محرمين " (١) .

ويعرف العز بن عبد السلام (٢) الاقتصاد بأنه: رتبة بين رتبتين، ومنزلة بين منزلتين، والمنازل ثلاثة: التقصير في جلب المصالح، والإسراف في جلبها، والاقتصاد بينهما، فالتقصير سيئة، والإسراف سيئة، والحسنة ما توسط بين الإسراف والتقصير (٣) .

وتطبيق هذا المبدأ في مجال الاقتصاد يشمل جميع جوانب الحياة سواء في المأكل، أو في المشرب، أو في الملبس، أو في المسكن، فمثلًا المياه لها أهمية عظمى في حياتنا عامة، ولها قيمة كبرى في عصرنا الحاضر الذي نعيشه بصفة خاصة، والناس يكثرون من استهلاكها لضرورة أو لغير ضرورة، وهناك حديث شريف لرسول الله ﷺ يبين لنا معنى الاقتصاد في المياه، فعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ مر بسعد، وهو يتوضأ فقال: "**ما هذا السرف؟**" فقال: أفي الوضوء إسراف؟ قال: "**نعم وإن كنت على نهر جار**" (٤) ، أي لا تسرف في الماء وأنت تتوضأ، ولو كنت على نهر جار.

"فإذا نظرنا إلى لفظ (نهر جار) وجدنا معناه أن الموارد وفيرة وبلا حدود، ولا تدري أين مصدر أو مصب ذلك النهر، ومع ذلك ينهى النبي ﷺ عن الإسراف ولو كانت الحالة هذه، فمحور اهتمام هذا الحديث الشريف هو سلوك الإنسان (عدم الإسراف) في حد ذاته، أكثر من اهتمامه بالمورد ذاته (الماء)، و على هذا فإن أي مسلم لديه أدنى درجات الوعي بحقيقة الإسلام لابد وأن يكون مطهرًا

---

(١) السياسة الاقتصادية في إطار مقاصد الشريعة الإسلامية لمحمد عبد المنعم عفر. مركز بحوث الدراسات الإسلامية بمعهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي- مكة المكرمة ١٤١٥هـ صـ١٤٥: ١٤٧ بتصرف .

(٢) هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، عز الدين الملقب بسلطان العلماء: فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد. ولد ونشأ في دمشق. تولى الخطابة والتدريس بزاوية الغزالي بدمشق ثم الخطابة بالجامع الأموي. خرج إلى مصر فولاه الصالح نجم الدين أيوب القضاء والخطابة ومكنه من الأمر والنهي، ثم اعتزل ولزم بيته وتوفي بالقاهرة سنة ٦٦٠هـ من كتبه: "قواعد الأحكام في مصالح الأنام"، و"قواعد الشريعة "، و"الفتاوى". الأعلام للزركلي ٤/٢١ .

(٣) قواعد الأحكام في مصالح الأنام ٢/٢٠٥ بتصرف .

(٤) سنن ابن ماجة كتاب الطهارة وسننها باب ما جاء في القصد في الوضوء وكراهة التعدي فيه ١/١٤٧ حديث رقم ٤٢٥ .

من درن الإسراف بمختلف أشكاله، وفي كافة المجالات" (١).

وفي مجال المأكل نجد من التوجيهات النبوية التربوية ما يؤكد هذا المبدأ، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ **كان إذا أكل طعاما لعق أصابعه الثلاث** قال وقال: "**إذا سقطت لقمة أحدكم فليمط عنها الأذى وليأكلها ولا يدعها للشيطان**" وأمرنا أن نسلت القصعة قال: "**فإنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة**" (٢).

وهذا تطبيق عملي لمبدأ التوسط في النفاق في مجال الاستهلاك، وتوجيه نبوي لأدب من آداب الطعام ربما يستنكف عنه المترفون والمتكبرون، ومقتضاه ألا يستحقر الإنسان نعمة ما مهما قَلَّت حتى ولو كانت لقمة سقطت خطأ منه، كما يأمرنا الحديث أن يتتبع الفرد طعامه بحيث لا يبقي أي طعام في طبقه الذي يأكل منه.

وهناك مظاهر أخرى للإسراف في مجال المأكل منها: "أن نضع على المائدة من ألوان الطعام فوق ما يحتاج إليه للأكل"، "وأن يأكل وسط الخبز ويدع حواشيه، أو يأكل ما انتفخ من الخبز، كما يفعله بعض الجهال، يزعمون أن ذلك ألذ"، "والتمسح بالخبز عند الفراغ من الطعام من غير أن يأكل ما يتمسح به، لأن غيره يستقذر ذلك، فلا يأكله" (٣).

وهذه المظاهر السابقة لا تتفق مع ما أمرنا به القرآن، ولا هكذا كان يفعل النبي ﷺ، ولا هكذا عَلَّم أصحابه الكرام رضوان الله تعالى عليهم، ولكننا إذا قوَّمنا السلوك الاقتصادي للأفراد بالمبادئ القرآنية، والتوجيهات النبوية، فإن هذا سيعود بالنفع على المجتمع بأسره.

وأمر الملبس والمسكن نظير المشرب والمأكل في جميع ما سبق ذكره، وحالات الإسراف ومظاهره كثيرة يتعذر حصرها، ينفق فيها من المال الكثير والكثير، بينما في الوقت نفسه يعيش غالبية المسلمين في مختلف بقاع الأرض أسوأ حالات الفقر والذل والمهانة.

"وترجع حكمة الله سبحانه وتعالى في تحريم الإسراف إلى ما ينطوي عليه من غبن للفقراء والمساكين، فالمسرف يترك إخوة له في الإسلام يعانون الفاقة وينفق ماله في غير ضرورة، كذلك ففي

---

(١) التربية الاقتصادية الإسلامية بين الشكل والجوهر د/ الغريب محمد بيومي بحث ضمن ندوة التربية الاقتصادية والإنمائية في الإسلام ٢٠٠٢م مركز الاقتصاد الإسلامي. جامعة الأزهر ص١٨ بتصرف.

(٢) صحيح مسلم كتاب الأشربة باب استحباب لعق الأصابع والقصعة، وأكل اللقمةالساقطة بعد مسح ما يصيبها من أذى، وكراهة مسح اليد قبل لعقها ١٦٠٧/٣ حديث رقم ٢٠٣٤، ومعنى نَسْلُت: أي نمسحها ونتتبع ما بقي فيها من الطعام.

(٣) الاكتساب في الرزق المستطاب للشيباني ص٧٩: ٨٣ بتصرف. طبعة دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٠٦هـ.

الإسراف تبديد للموارد الاقتصادية للمجتمع بالإقلال من الادخار، وبالتالي خفض الاستثمار. كما أنه يؤدي في النهاية إلى توجيه الطاقات الإنتاجية للإنتاج الرفاهي على حساب الضرورات اللازمة للمحتاجين، وهذا يحد من قدرة المجتمع المسلم على توفير حد الكفاية لهم "[١].

وهناك أساليب ووسائل تعين المسلم على أن يكون رشيدًا في استهلاكه أذكر منها:

* ألا يعيش المسلم حياته متمنيًا لمثل ما لدى غيره، أي لا يسعى للتقليد في الاستهلاك والتطلع إلى مَنْ ليس متساويًا معهم في ظروفهم الاقتصادية. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[٢]، وقال تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[٣]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: "**انظروا إلى من أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله**"[٤].

وفي هذا الحديث يدعونا النبي ﷺ إلى النظر إلى من هم أقل منا نعمة حتى نشعر بقيمة ما عندنا، وذلك بعكس تطلعنا إلى من هم أكثر منا لأنه يجعلنا نشعر بازدراء واحتقار ما بأيدينا، وهكذا يربي الإسلام الفرد على القناعة بما عنده، وعدم النظر إلى استهلاك غيره أو التطلع إليه، وهو ما يحدث للأسف في مجتمعاتنا المعاصرة، حيث أصبح كل منا يتكالب على الاستهلاك مثل غيره، وهذا قد يولد الحسد والطمع والشره وعدم القناعة، فلا يستطيع الإنسان أن يسد كل حاجاته، لذلك على المسلم أن يكون مستقلًا في استهلاكه، ولا ينظر إلى غيره حتى يكون على وعي اقتصادي يحميه من التمادي في الاستهلاك.

* أن يوازن في استهلاكه بين إيراداته ونفقاته، وأن يعيش في حدود ظروفه وإمكاناته، حتى ولو اضطر إلى التقشف والحرمان من بعض الكماليات والترفيات والزهد فيها، فإن ذلك خير له أولًا

(١) فرضية المنفعة الذاتية وأثرها على السلوك الاقتصادي د/ أمين منتصر بحث ضمن ندوة التربية الإقتصادية والإنمائية في الإسلام ٢٠٠٢م مركز الاقتصاد الإسلامي- جامعة الأزهر صـ٢.

(٢) سورة النساء / الآية ٣٢ .

(٣) سورة طه / الآية ١٣١ .

(٤) صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق ٤/ ٢٢٧٥ حديث رقم ٢٩٦٣، ومعنى تزدروا: تحتقروا .

ولمجتمعه ثانيًا، وأفضل له من الاستدانة، فإن الإسلام قد نفر من الدين بأساليب شتى حتى قال رسول الله ﷺ: "**يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين**" (١)، فمراعاة الأولويات عند الاستهلاك أمر ضروري، ويكون ذلك تبعًا للمقاصد الكلية العليا للشريعة، فتأتي الضروريات أولًا، ثم الحاجيات ثانيًا، ثم التحسينيات ثالثًا، وعندما يفعل المسلم ذلك يكون رشيدًا في استهلاكه.

* أن يراعي في استهلاكه تحقيق المنفعة المادية والروحية معًا، وهذا يتطلب منه مراعاة مصالح الآخرين بجانب مصالح نفسه وأسرته. فقد قال رسول الله ﷺ: "**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**" (٢) .

"فالإسلام يجعل المستهلك الرشيد يحاول في توزيع نفقاته وفي حدود دخله المتاح، أن يحقق أكبر قدر من الرضا أو المنفعة المباحة في دنياه وأخراه، ويشمل ذلك منافع الآخرين التي تحصل لهم بسببه، لأنها توزن في ميزان حسناته في الآخرة، لذلك فإن علاقة السلوك الاستهلاكي للفرد بالآخرين قائمة على الكرم والجود والسخاء والإيثار" (٣) .

وكذلك يتطلب منه أن يقصد باستهلاكه هذا وجه الله تعالى، ليشعر بالسعادة والطمأنينة والرضا النفسي، لأن كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل.

* ألا يتوسع في إنفاقه بحيث يحتاج إلى بيع أرضه أو عقاره أو مصنعه من أجل مطالبه الاستهلاكية، بما يعنى المحافظة على ما يسمى في عصرنا الحاضر [الأصول الثابتة]، فلا ينبغي له التفريط فيها من غير ضرورة موجبة، وتوجهنا السنة النبوية إلى أنه في حالة اللجوء إلى بيع أصل ثابت ألا نضيع ثمنه في المستهلكات، بل ينبغي أن نجعله في شراء أصول أخرى، فعن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: "**من باع دارًا ولم يجعل ثمنها في مثلها لم يبارك له فيها**" (٤).

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإمارة باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين ١٥,٢/٣ حديث رقم ١٨٨٦ .

(٢) صحيح البخاري كتاب الإيمان باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ٨/١ ، ونحوه صحيح مسلم كتاب الإيمان باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير ٦٧/١ حديث رقم ٤٥ .

(٣) مبادئ التربية الاقتصادية للمستهلك في الإسلام د/ منى علي السالوسي بحث ضمن ندوة التربية الإقتصادية والإنمائية في الإسلام ٢..٢م مركز الاقتصاد الإسلامي. جامعة الأزهر صـ١٢١بتصرف .

(٤) سنن ابن ماجة كتاب الرهون باب من باع عقارًا ولم يجعل ثمنه في مثله ٨٣٢/٢ حديث رقم ٢٤٩١ .

إن الإسلام دين وسط يرفض التطرف في جميع صوره حتى في الإنفاق، فمن ناحية يرفض الترف والإسراف والتبذير كما أنه يرفض الشح والبخل والتقتير من ناحية أخرى، فالاقتصاد والتوسط والاعتدال في إنفاق الإنسان على نفسه وعلى من يعول وعلى الآخرين أمر مطلوب، حتى ينفع الإنسان نفسه ومجتمعه، ويعيش عيشة طيبة في دنياه، ويعمر الأرض ويفتح للآخرين بابًا للعمل والكسب، ويعطي كل ذي حق حقه، فتكون دنياه مزرعة طيبة لأخراه.

❊ ❊ ❊

تطبيق مبدأ "لا يستوي الخبيث والطيب" في مجال الإيرادات والنفقات

لقد أعطى الإسلام للفرد الحق في اكتساب المال وإنفاقه، ولكنه وضع لذلك المبادئ والضوابط والقيود التي تحكم سلوك الأفراد والدول، ومن هذه المبادئ مبدأ لا يستوي الخبيث والطيب.

ومعنى هذا المبدأ أن الخبيث والطيب لا يستويان، ومن ثم فإن الطيب أفضل من الخبيث، فيترتب على ذلك مدح الطيب والترغيب فيه والإثابة عليه، وأيضًا ذم الخبيث والترهيب منه والعقاب عليه.

لذلك فعلى الأفراد والدول تطبيق هذا المبدأ في الكسب والإنفاق، أما بالنسبة للفرد فيتمثل ذلك في:

١- أن يكون اكتسابه للمال وحصوله عليه بحق:

وقد حث القرآن الكريم المسلم على ألا يأكل إلا حلالًا طيبًا يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ (١)، وقد أثنى النبي ﷺ على المال الحلال الطيب إذ قال: " **نعمًا بالمال الصالح للرجل الصالح** " (٢)، ويقصد بالمال الصالح في الحديث الشريف المال المكتسب بحق، وعلى ذلك ينبغي للمسلم أن يسعى لكسب قوته وقوت من يعول بحق، وأن يلتزم في كسبه لماله طريقًا شريفًا يرضي الله سبحانه وتعالى.

وقد حدد الإسلام لكسب الرزق الطيب عدة طرق أهمها العمل، وقد حث الإسلام على العمل وجعله الطريق المؤدي إلى المال والثروة، وقيد العمل بأن يكون عملًا مشروعًا، وترك المجالات مفتوحة سواء في الزراعة، أو في التجارة، أو في الصناعة، أو في غيرها من الحرف والأعمال الشريفة.

وهناك أيضًا طرق أخرى للكسب الطيب منها العقود الناقلة للملكية كالبيع والهبة، وكذلك عن طريق الإرث والوصية.

وإذا كان الإسلام قد أكد على طرق الرزق المشروعة لكسب المال الطيب، فإنه قد حرم الكسب الحرام بكل أنواعه، فنجد أنه قد حرم أكل أموال الناس بالباطل قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ (٣)، وقال

(١) سورة البقرة / الآية ١٧٢ .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣٣٧/٢٩، ٣٣٣٨ حديث رقم ١٧٨٠٢ . تحقيق: شعيب الأرنؤوط .

(٣) سورة البقرة / الآية ١٨٨ .

أيضًا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ (١) ، وقد جاء التحريم واضحًا لكل ألوان أكل الأموال بالباطل، فنجد تحريم الربا، والسرقة، والغصب، والغش، والاحتكار، وتطفيف الكيل والميزان، والرشوة، وغير ذلك مما يجلب الكسب الحرام.

"فقد حرم الإسلام الربا – وهو أخذ زيادة على الدين نظير التأخير في السداد – لأنه يقتل كل مشاعر العطف والشفقة في الإنسان، فالمرابي لا يتردد في تجريد المدين من أمواله إذا كان في ذلك فائدة وإضافة مالية يسيرة على ما عنده من أموال كثيرة، فالمال في نظر الإسلام وديعة في يد صاحبه، وهو موظف لخير الجماعة، فليس له أن يتحين ساعة احتياجهم فيأخذ منهم أكثر مما أعطاهم.

والمحتاجون في الدولة الإسلامية يجب أن يعطوا قرضًا بلا فائدة، لأن هذه الطريقة هي التي تنمي المودة وتكفل التضامن بين الجماعة غنيها وفقيرها، بينما الربا يثير الأحقاد والعداوة والبغضاء بين الأفراد. قال الله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ (٢) ، وقال سبحانه أيضاَ: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ (٣) ، كما قال تعالى أيضًا محذرًا ومتوعدًا آكلي الربا بالحرب:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ ﴾ (٤).

هذه الآيات حرمت الربا تحريمًا قاطعًا، ومعناها: فإن لم تتركوا ما بقي لكم من الربا كما أمرتم فاعلموا بأنكم في حرب مع الله ورسوله لعصيانكم أوامرهما. ثم قال تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾ وفي هذا نص صريح على أن الذي يستحقه صاحب الدين إنما هو رأس المال فقط بدون زيادة ما، وبعد هذا قال تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ وفي هذا حض على إمهال المعسر إلى وقت يتمكن فيه من الأداء، وحث على التصدق وذلك بالعفو عن المعسر الذي لا يجد ما يفي به دينه" (٥) .

---

(١) سورة النساء / الآية ٢٩ .

(٢) سورة البقرة / الآية ٢٧٥ .

(٣) سورة البقرة / الآية ٢٧٦ .

(٤) سورة البقرة / الآيات ٢٧٨ : ٢٨.

(٥) روح الدين الإسلامي لعفيف عبد الفتاح طبارة ص٣٢٩ ، ٣٣٠ بتصرف.

وحرم الإسلام السرقة وأخذ أموال الناس خفية وبدون وجه حق. قال تعالى:﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ (١) ، كما حرم اغتصاب حقوق الآخرين، وقطع الطريق والاعتداء عليهم وعلى أموالهم، فقال سبحانه وتعالى:﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٢) ، وحرم الإسلام الغش وإظهار السلع المعروضة للبيع على غير حقيقتها. فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللًا، فقال: **ما هذا يا صاحب الطعام ؟** قال: أصابته السماء يا رسول الله. قال: **أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، من غشنا فليس منا** (٣) .

وحرم الإسلام الاحتكار، حيث يخفي التجار السلع عن الجمهور حتى يرتفع سعرها، ويحققون بذلك المكاسب التي يريدونها. فقد قال رسول الله ﷺ: "**من احتكر فهو خاطئ**" (٤) ، أي آثم. وتوعد عليه الصلاة والسلام المحتكر بالطرد من رحمة الله تعالى فقال ﷺ: "**الجالب مرزوق، والمحتكر ملعون**" (٥)، واللعن: الطرد من رحمة الله، ولا يكون إلا على ارتكاب كبيرة من كبائر الذنوب، وذلك مما يدل على تحريمه، وكذلك توعد عليه الصلاة والسلام المحتكر أيضًا بالإفلاس فقال ﷺ: "**من احتكر على المسلمين طعامًا ضربه الله بالجذام والإفلاس**" (٦) وجاء عنه ﷺ أنه قال: "**من احتكر طعامًا أربعين ليلة فقد برئ من الله، وبرئ الله منه**" (٧) .

وحرم الإسلام التطفيف والتلاعب في الكيل والميزان، وذلك بأن يأخذ التاجر أكثر من حقه عند الشراء، ويعطي للمشتري أقل مما يستحق عند البيع. يقول الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا

(١) سورة المائدة / الآية ٣٨ .

(٢) سورة المائدة / الآية ٣٣ .

(٣) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب قول النبي ﷺ من غشنا فليس منا ٩٩/١ حديث رقم ١٠٢ .

(٤) صحيح مسلم كتاب المساقاة باب تحريم الاحتكار في الأقوات ١٢٢٧/٣ حديث رقم ١٦٠٥ .

(٥) سنن ابن ماجة كتاب التجارات باب الحكرة والجلب ٧٢٨/٢ حديث رقم ٢١٥٣ .

(٦) سنن ابن ماجة كتاب التجارات باب الحكرة والجلب ٧٢٩/٢ حديث رقم ٢١٥٥ .

(٧) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤٨١/٨، ٤٨٢ حديث رقم ٤٨٨٠ . تحقيق: شعيب الأرنؤوط .

ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣ ﴾ (١) ، وقال سبحانه أيضًا: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ ﴾(٢) .

وحرم الإسلام الرشوة، كأن يعطي الإنسان إنسانًا في عمل أو في صفقة ما مبلغًا من المال، أو رشوة عينية، حتى يتواطأ معه ويعطيه حقًا غير حقه ويضيع به حقوق الآخرين، أو أن يطلب المرتشي تلك الرشوة وإلا عطل للناس مصالحهم، فعن ثوبان قال: **لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي والرائش** يعني الذي يمشي بينهما (٣) .

وحرم الإسلام استغلال النفوذ للحصول على المال، وذلك كمن يشغل وظيفة أو يتولى منصبًا فيستغل مكانته ويسخر عمله في الوظيفة أو المنصب لكسب المال بسببه، مما قد يترتب عليه تعطيل مصالح الناس والإضرار باقتصادهم واقتصاد المجتمع.

وبصفة عامة حرم الإسلام كل أنواع التعامل التي تضر بحياة الأفراد والمجتمع وأموالهم: كالقمار، والإتجار في المحرمات كالخمور والمخدرات والتكسب منها، وغير ذلك من وسائل ابتزاز أموال الناس وأكلها بالباطل.

٢- أن يكون إنفاقه للمال بحق:

ويتمثل ذلك في أن يكون إنفاقه للمال الحلال الطيب الذي اكتسبه في الطيبات والنعم التي أحلها الله تعالى له، وأن يتجنب الخبائث التي حرمها الله تعالى عليه، وأن يمنعه من الباطل.

"ويمكن تعريف الطيبات بأنها جميع النعم والخيرات التي منحها الله تعالى لعباده، وفيها تحقيق لمنفعتهم، وإشباع لحاجتهم، يقول الله تعالى ﴿ **قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ** ﴾ (٤) ، ومن هذه الآية الكريمة يتبين لنا أن الله تعالى قد حث المؤمنين على تناول الطيبات التي منحها لهم وعدم

(١) سورة المطففين / الآيات ١ : ٣ .

(٢) سورة الرحمن / الآيات ٧ : ٩ .

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣٧/ ٨٥ حديث رقم ٢٢٣٩٩ . تحقيق: شعيب الأرنؤوط .

(٤) سورة الأعراف / الآية ٣٢ .

تحريمها على أنفسهم إذ إنها خالصة لهم، لذا حلت الطيبات من الطعام والشراب والكساء وغيرها. وتعرف الخبائث بأنها تلك المواد الخبيثة والرديئة التي حرمها الله سبحانه وتعالى على عباده درءًا لإثم أو ضرر يصيبهم، لذا حرمت بعض أنواع الطعام كالميتة ولحم الخنزير، كما حرمت بعض أنواع الشراب كالخمر والدم. وعلى ذلك فالخبائث التي حرمها الله سبحانه وتعالى ليست سلعًا اقتصادية تتداول في الأسواق الإسلامية، أي ليس لها قيمة، ولقد حرم الله الخبائث في عدة آيات من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ "(١) .

ويتضمن أيضًا مفهوم إنفاق المال بحق إنفاقه عند حد الاعتدال، وهو الإنفاق دون إسراف أو تقتير.

"فالإسلام يحرم الإسراف والتبذير والترف لما تنطوي عليه من إفراط في الاستهلاك، وتبديد للموارد الاقتصادية، ويحرم الشح والبخل والتقتير لما تسببه من تعاسة للمجتمع المسلم، ومن تشوهات مجتمعية خطيرة، لذا فقد نهى الله سبحانه وتعالى عن ذلك كله فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾" (٢).

ما سبق كان تطبيقًا لمبدأ لا يستوي الخبيث والطيب في مجال الإيرادات والنفقات بالنسبة للأفراد، أما بالنسبة للدول فيتمثل فيمل يلي:

* أن تكون الإيرادات التي دخلت ميزانية الدولة بواسطة التزامات على الأفراد (ضرائب وغيرها) قد روعي فيها الالتزام بالشرع، أي على نحو يقره الإسلام.

وقد حرص القاضي أبو يوسف – صاحب أبي حنيفة – وهو يكتب لهارون الرشيد (٣) – خليفة

---

(١) فرضية المنفعة الذاتية وأثرها على السلوك الاقتصادي د/ أمين منتصر بحث ضمن ندوة التربية الإقتصادية والإنمائية في الإسلام ٢٠٠٢م مركز الاقتصاد الإسلامي– جامعة الأزهر ص١٨، ١٩ بتصرف، والآية رقم ١٠٠ من سورة المائدة .

(٢) المرجع السابق / ص٢٢ بتصرف، والآيتان رقم ٨٧ ، ٨٨ من سورة المائدة .

(٣) هو هارون (الرشيد) ابن محمد (المهدي) ابن المنصور العباسي، أبو جعفر: خامس خلفاء الدولة العباسية في العراق وأشهرهم، ولد بالري لما كان أبوه أميرًا عليها وعلى خراسان. ونشأ في دار الخلافة ببغداد. وبويع بالخلافة بعد وفاة أخية الهادي سنة ١٧٠هـ فقام بأعبائها وازدهرت الدولة في أيامه، وكان عالمًا بالأدب وأخبار

المسلمين – في ذلك الوقت كتابًا ينظم به مالية الدولة الإسلامية من إيرادات ونفقات، أن يبرز له إلزام الإسلام على أن يكون المال الذي يجبى طيبًا. يعني بذلك أن يكون أساس الإلزام به أساسًا شرعيًا صحيحًا، وهذا هو عمل الرسول ﷺ وعمل الخلفاء الراشدين من بعده، فهذا هو عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما يصل إليه مال العراق يخرج إليه عشرة من أهل الكوفة وعشرة من أهل البصرة يشهدون أربع شهادات بالله أنه من طيب، ما فيه ظلم مسلم ولا معاهد [١] .

* أن تكون إنفاقات الدولة للمال بحق، ومعنى ذلك أن يكون إنفاقه في الأمور المشروعة التي تحقق المصلحة للجماعة مع مراعاة العدل في الإنفاق.

وذلك يحتاج إلى تفصيل كما يلي:

١. أن تراعي الدولة في إنفاقها للمال مصلحة الجماعة لا مصلحة أفراد بعينهم.

٢. أن تراعي الدولة في إنفاقها للمال العدل بين أفرادها، بدون تمييز لطائفة من الناس على طائفة أخرى من غير وجه حق.

٣. أن ينفق المال في إقامة المشروعات النافعة، وذلك كإقامة المدارس، والمستشفيات، وإصلاح الطرق والخدمات العامة.

٤. أن تتجنب الدولة إنفاق المال في أوجه الباطل الحرام، أي في الأمور التافهة التي لا طائل من ورائها سوى البذخ والترف المحرمين شرعًا.

***

العرب والحديث والفقه، وكان شجاعًا كثير الغزوات حازمًا كريمًا متواضعًا، يحج سنة ويغزو سنة، لم يلر خليفة أجود منه. ولايته ٢٣ سنة وشهران وأيام. توفي سنة ١٩٣هـ في "سناباذ" من قرى طوس وبها قبره. الأعلام للزركلي ٨/٦٢.

(١) الخراج / ١٢٤ نقلًا عن بحث بعنوان: الأخلاق في الاقتصاد الإسلامي د/ رفعت السعيد العوضي. ضمن ندوة التربية الإقتصادية والإنمائية في الإسلام ٢٠٠٢م مركز الاقتصاد الإسلامي– جامعة الأزهر صـ٣ .

تطبيق مبدأ الأمة واحدة
لمراعاة تحقيق التوازن بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة
في مجال الاستثمار

لقد حرصت الشريعة الإسلامية على تحقيق التوازن بين مصلحة الفرد الخاصة والمصلحة العامة للمجتمع، فنجد أنها قد أباحت الملكية الخاصة للفرد، وقررت لصحابها حق الاستغلال والاستهلاك، لكنها بجانب ذلك فرضت عليه من القيود ما يحقق مصلحة المجتمع العامة.

"فإن الإسلام ينظر للفرد باعتباره فردًا مستقلًا وباعتباره عضوًا في جماعة له حقوقه وعليه من المسئوليات ما يحقق مصلحة الجماعة" (١).

ومن المبادئ القرآنية التي يمكن أن تساهم في تحقيق هذا التوازن بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة مبدأ الأمة واحدة.

والمقصود بالأمة الواحدة الملة الواحدة التي بعث الله تعالى بها جميع الأنبياء بدءًا من آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد ﷺ إلى الناس كافة، فإذا كانت الأمة واحدة عبر الماضي ولم تتغير حتى يومنا هذا، فلماذا لا نكون أمة واحدة في واقع معاشنا.

ومن التطبيقات الهامة لهذا المبدأ تطبيقه في مجال الاستثمار، ويقصد بالاستثمار: محاولة الفرد تنمية ماله الزائد عن حاجاته الأساسية وحاجات من يعولهم في حدود المستوى المتوسط للمعيشة بدون إسراف أو تقتير (٢).

ويرى الإسلام أن الاستثمار لابد أن يوجه إلى أكثر المجالات ضرورة للأمة حتى وإن كان العائد الاقتصادي في هذا المجال أقل من العائد الناتج في مجال استثمار آخر أقل ضرورة للمسلمين، وذلك تحقيقًا للمصلحة العامة لأنها أولى من المصلحة الخاصة.

---

(١) فرضية التناغم بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة في ميزان الشريعة الإسلامية د/ عبد الهادي النجار بحث ضمن ندوة التربية الإقتصادية والإنمائية في الإسلام ٢٠٠٢م مركز الاقتصاد الإسلامي. جامعة الأزهر صـ٢٣ .

(٢) التربية الاقتصادية الإسلامية بين الشكل والجوهر د/ الغريب محمد بيومي بحث ضمن ندوة التربية الإقتصادية والإنمائية في الإسلام ٢٠٠٢م مركز الاقتصاد الإسلامي. جامعة الأزهر صـ١٣ بتصرف .

فمثلًا الاستثمار في مجال الزراعة يعد أقل الاستثمارات ربحًا وأكثرها مخاطرة وخطورة في نفس الوقت، وهناك مجالات أخرى كثيرة يعد الاستثمار فيها مربحًا جدًا، ولا تحتاج إلى عناء أو مجهود، ولكن عندما ننظر إلى واقع الأمة وإلى مصلحة المجتمع نجد أن الاستثمار الأول أكثر فائدة وضرورة للمجتمع من الاستثمار الثاني.

"لذلك يجب – إسلاميًا – توجيه الاستثمار إلى المجال الزراعي لأنه يسد حاجة ضرورية للمجتمع، ويقلل من اعتماده على المساعدات الخارجية، ومن ثم يزيد هذا الاستثمار في المجال الزراعي من القدرة السياسية في موازين العلاقات الدولية" [(١)].

وإلى هذا المعنى السابق يشير فضيلة الشيخ محمد الغزالي حيث يقول: "إن الكثيرين من أبناء الأمة الإسلامية للأسف الشديد لا يعون خطورة أن تمد حكوماتنا أيديها مستوردة للغذاء من الخارج كي تسد حاجة مواطنيها للاستهلاك المتزايد، خاصة وأن الذين ينتجون ذلك الغذاء لا يدينون بديننا، ولا يكنون لنا أية مشاعر للود أو الصفاء.

إن استيراد المواد الغذائية وخاصة القمح الذي لا يمكننا الاستغناء عنه يضعنا تحت رحمة تلك الدول وتحديدًا في أوقات الأزمات، أزمات الإنتاج أو أزمات السياسة، ويكفي أن مجتمع إحدى الدول الإسلامية في حاجة ماسة للقمح صباح مساء، حتى تضطر دولته إلى الاقتراض كي تسدد قيمة استهلاكه، ونتصور أن دولة هذا وضعها لا يمكن أن يكون لها رأي مسموع أو محترم في شئون العالم الذي نعيش فيه، وذلك لأنه .ودون أدنى شك .يمكن الضغط عليها وعلى صناع القرار فيها بصورة أو بأخرى، خاصة وأن الدول المنتجة لتلك الغلة (القمح) قليلة العدد، وذات توجهات وسياسات معينة، ويمكنها عند اللزوم أن تمارس احتكار ذلك الإنتاج، أو أن تضغط على المحتاجين فلا تصدره إليهم إلا بعد تنازلات معينة، حتى وإن امتلك المحتاجون المال الذي يشترون به" [(٢)].

وكأن الشيخ – رحمه الله – في كلامه السابق يريد أن يفزع الأمة إلى فهم قضية مهمة جدًا ألا وهي قضية [انعدام الأمن الغذائي في عالمنا العربي والإسلامي] بينما نستطيع اتقاء ذلك بشيء واحد، وهو العمل من أجل مصلحة الأمة.

---

(١) المرجع السابق / ص١٣ .

(٢) هموم داعية ص١٥١ ، ١٥٢ بتصرف .

إن نظرة المسلم للاستثمار لابد وأن تتجه أولًا إلى المنفعة التي ستعود على مجتمعه، ثم إلى التي ستعود إليه وحده خاصة، فلا يصح أن يكون الاستثمار كله متجهًا إلى أمور تافهة لن يخسر المجتمع شيئًا لو هلكت أو لم تقم أصلًا، وأن يهمل الاستثمار في المجالات التي يكون في إهمالها ضرر مؤكد سوف يحل بالمجتمع بأسره.

وكذلك على الدول العربية والإسلامية المسارعة بإقامة المشروعات الاقتصادية التي تخدم مصالح الأمة لمواجهة التكتلات الاقتصادية العالمية، وذلك كإقامة السوق العربية أو الإسلامية المشتركة.

***

الفصل الثاني
تطبيق بعض المبادئ القرآنية في السياسة

تطبيق مبدأ الشورى في السياسة

لقد شرع الإسلام الشورى وأقرها كمبدأ عام، وأراد بذلك أن يقضي على الاستبداد بالحكم والرأي، واحتكار أمر التنظيم والتصريف والإدارة، وأراد بذلك أيضًا أن يحقق للفرد كرامته الفكرية وللجماعة حقها الطبعي في تدبير أمورها وشئونها.

وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم وجدنا أنه قد رفع من أمر الشورى إلى أن جعلها من دعائم الإيمان، حيث قرنها بإقامة الصلاة والإنفاق، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) ﴾ (١).

ومن هنا يتضح لنا أهمية الشورى، لذا يجب على الحاكم أن يستنير في أمور الحكم والسياسة وكل ما يتعلق بمصلحة المسلمين برأي غيره، وقد عرف فقهاء الإسلام قدر الشورى فجعلوها أصلًا من أصول الشريعة الإسلامية وقواعدها، ومن عزائم الأحكام التي لابد من نفاذها، وبنو على ذلك أن من ترك الشورى من الحكام فعزله واجب دون خلاف.

تعريف الشورى:

للشورى تعريفات كثيرة نذكر منها ما يلي:

هي "استطلاع الرأي من ذوي الخبرة فيه للتوصل إلى أقرب الأمور للحق" (٢) .

أو هي "النظر في الأمور من أرباب الاختصاص والتخصص لاستجلاء المصلحة المقصودة شرعًا وإقرارها" (٣) .

---

(١) سورة الشورى / الآية ٣٨ .

(٢) الشورى في ظل نظام الحكم الإسلامي لعبد الرحمن عبد الخالق ص١٤ .

(٣) نظام الشورى في الإسلام. د/ زكريا عبد المنعم إبراهيم الخطيب ص١٨ .

أو هي "استطلاع رأي الأمة أو من ينوب عنها في الأمور العامة المتعلقة بالمصالح العامة" [١].

وإذا نظرنا إلى التعريفات السابقة وجدنا أنه لا تعارض بينها، وأنها قد تضمنت مجموعة من الحقائق:

(١) أن الشورى استطلاع للرأي والنظر في الأمور العامة التي تتعلق بالمصالح العامة للأمة.

(٢) أن هذا الاستطلاع أو النظر يكون من الأمة أو من ينوب عنها من العلماء وذوي الاختصاص والخبرة الفنية.

(٣) أن الهدف من هذا الاستطلاع أو النظر إنما هو التوصل لأقرب الآراء إلى الحق والصواب.

(٤) أن الشورى تجري في كل أمر تجري بشأنه مشاورة سواء على مستوى الأسرة، أو الدولة، أو المنظمات والهيئات الداخلية، أو المنظمات الدولية التي تتخذ النظام الإسلامي العام دستورًا لها.

أهل الشورى وشروطهم:-

عندما تكلم علماء المسلمين المعاصرين عن أهل الشورى عرفوهم بتعريفات تتفق في المدلول، وتختلف في التفصيل.

فنجد أن الإمام محمد عبده [٢] يقول أن المراد بهم "أولو الأمر المذكورون في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [٣] وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾ [٤] أي جماعة أهل الحل والعقد من المسلمين، وهم الأمراء والحكام والعلماء ورؤساء الجند وسائر الرؤساء

---

(١) نظام الحكم في الإسلام. د/ عبد الحميد إسماعيل الأنصاري ص٤٥ .

(٢) هو محمد عبده بن حسن خير الله، من آل التركماني: مفتي الديار المصرية، ومن كبار الإصلاح والتجديد في الإسلام. ولد في شنرا (من قرى الغربية بمصر) ونشأ في محلة نصر بالبحيرة تعلم بالجامع الأحمدي بطنطا، ثم بالأزهر، وكتب في الصحف ولا سيما جريدة الوقائع المصرية وقد تولى تحريرها، ولما احتل الإنجليز مصر ناوأهم وشارك في مناصرة الثورة العرابية، فسجن ٣ أشهر ونفي إلى بلاد الشام سنة ١٨٨١م، سافر إلى باريس فاصدر مع صديقه وأستاذه جمال الدين الأفغاني جردية العروة الوثقى، عاد إلى مصر سنة ١٨٨٨م وتولى منصب القضاء فمفتيًا للديار المصرية واستمر إلى أن توفى بالاسكندرية سنة ١٩٠٥م ودفن في القاهرة. له: "تفسير القرآن الكريم" لم يتمه، و"رسالة التوحيد"، و"الإسلام والرد على منتقديه" وغير ذلك. الأعلام للزركلي ٦/ ٢٥٢ .

(٣) سورة النساء / الآية ٥٩ .

(٤) سورة النساء / الآية ٨٣ .

والزعماء الذين يرجع إليهم الناس في الحاجات والمصالح العامة" (١).

ويقول الشيخ رشيد رضا: "يجب أن يكون في الأمة رجال أهل بصيرة ورأي في سياستها ومصالحها الاجتماعية وقدرة على الاستنباط يرد إليهم أمر الأمن والخوف وسائر الأمور الاجتماعية والسياسية وهؤلاء هم الذين يسمون في الإسلام أهل الشورى وأهل الحل والعقد وهم الذين يسمون عند الأمم الأخرى بنواب الأمة" (٢) .

ويعرفهم الإمام الأكبر الشيخ شلتوت (٣) بأنهم: "أهل النظر الذين عرفوا في الأمة بكمال الاختصاص في بحث الشئون وإدراك المصالح والغيرة عليها كأصحاب القضاء، وقواد الجيش، ورجال المال والاقتصاد والسياسة، وغيرهم من الذين عرفوا في تخصصهم بنضج الآراء وعظيم الآثار وطول الخبرة والمران، فهؤلاء هم أولو الأمر في الأمة وهم الذين يجب على الأمة أن تعرفهم بآثارهم وتمنحهم ثقتها وتنيبهم عنها في نظمها وتشريعها والهيمنة على حياتها، وهم الوسيلة الدائمة في نظر الإسلام لمعرفة ما تسوس الأمة أمورها فيما لم يرد من المصادر السماوية الحاسمة، وهم أهل الاجتماع الذين يكون اتفاقهم حجة يجب النزول عليها" (٤) .

ويقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي (٥): "هم الحائزون لثقة العامة الذين يطمئن إليهم الناس

(١) تفسير المنار ٣/ ١١ بتصرف. مطبعة المنار بالقاهرة سنة ١٣٢٤هـ .

(٢) المرجع السابق بالتخريج نفسه .

(٣) هو محمود شلتوت: فقيه مفسر مصري ولد في محافظة البحيرة، وتخرج في الأزهر سنة ١٩١٨م. كان داعية إصلاح نير الفكرة، عين وكيلًا لكلية الشريعة، ثم كان من أعضاء مجمع اللغة العربية ١٩٤٦م ثم شيخًا للأزهر ١٩٥٨م إلى وفاته. كان خطيبًا موهوبًا، له ٢٦ مؤلفًا مطبوعًا، منها: "التفسير" أجزاء منه في مجلد واحد ولم يتم، "الفتاوى"، و"من توجيهات الإسلام" وغير ذلك. الأعلام للزركلي ٧/ ١٧٣ .

(٤) الإسلام عقيدة وشريعة صـ٣٧٢ .

(٥) هو أبو الأعلى المودودي: الإمام، الداعية، العلامة. ولد في جنوبي الهند سنة ١٩٠٣م وتوفى والده وهو صغير فاعتمد على نفسه. بعد تقسيم الهند هاجر إلى باكستان وتولى مهام رئاسة الجماعة الإسلامية في البلد الجديد، وبدأ مساعيه لتنفيذ النظام الإسلامي في باكستان فألقي القبض عليه وزملائه وأطلق سراحهم بعد سجن دام عشرين شهرًا، وفي سنة ١٩٥٣م صدر الحكم بإعدامه فأثار هذا الحكم موجة من الإحتجاجات في أرجاء العالم الإسلامي فاضطرت الحكومة لتغييره إلى الحبس مدى الحياة، وأطلق سراحه سنة ١٩٥٤م، توفي سنة ١٩٧٩م في نيويورك حيث كان يتلقى العلاج. من مؤلفاته: "الحجاب"، و"تفسير سورة النور"، و"المصطلحات الأربعة في القران"، و"تدوين الدستور الإسلامي" . تتمة الأعلام للزركلي تأليف: محمد خير رمضان يوسف صـ٧٣ وما بعدها .

لإخلاصهم ونصحهم وأمانتهم وأهليتهم والذين تضمن مشاركتهم في أقضية الحكومة أن الأمة ستمد إلى الحكومة يد التعاون في تنفيذ هذه الأقضية " (١).

وإذا نظرنا في التعريفات السابقة وأردنا أن نخلص منها إلى تعريف جامع لأهل الشورى لوجدنا أن دائرة التعريف كلما اتسعت شملت العلماء وكذلك أهل الاختصاص في مختلف نواحي الحياة، فإن هذا أقرب إلى الصواب وأكثر تحقيقًا للأهداف المنشودة التي ترمي إليها مرونة الشريعة الإسلامية التي تناسب مختلف الأزمان والبيئات.

لذلك وبناءً على ما تقدم كله أقول:

إن أهل الشورى هم العلماء الذين عرفوا بالخبرة في معرفة شئون الأمة وسياستها وتدبير أمورها، وحازوا على رضا وثقة معظم الأمة، فيقومون بترشيح من يصلح لحكم الأمة، ويشتركون معه في اتخاذ القرارات والتشريعات المختلفة (وهذا وجه لأهل الشورى).

وكذلك فإن أهل الشورى هم أهل الاختصاص والخبرة من العلماء المتخصصين في المجالات الفنية الخاصة، فيستشارون في تخصصهم، وتعرض عليهم المسائل الفنية والعلمية التي تتعلق بها مصلحة الأمة ويصلح فيها الاجتهاد بالرأي (وهذا وجه آخر لأهل الشورى).

والشورى بوجهها الأول قاصرة على المسلمين، لأن المراد بالعلم هو العلم الديني لا الدنيوي، فلا تصح استشارة غير المسلمين في ذلك كله، أما الوجه الآخر من الشورى فتصح فيه استشارة غير المسلمين من ذوي الاختصاص والخبرة الفنية في الأمور المختلفة، وذلك للأسباب التالية:

١ - أنهم يمثلون نسبة من المواطنين لهم ما لنا وعليهم ما علينا.

٢ - أن منهم أهل خبرة وتخصص في كثير من نشاطات الحياة المختلفة كغيرهم من المسلمين.

٣ - أن نسبتهم غالبًا ما تكون ضئيلة فلا يخشى منها في اتخاذ القرار.

٤ - أن ذلك يقطع ألسنة من يريدون تجريح الإسلام والنيل منه، ويوصد الباب أمام من يتلمسون أسانيدهم بعيدًا عن روحه وأصوله (٢).

---

(١) تدوين الدستور الإسلامي صـ٥٨ .

(٢) راجع هذه الأسباب في: نظام الشورى في الإسلام ونظم الديمقراطية المعاصرة د/ زكريا عبد المنعم إبراهيم الخطيب صـ٦٢ .

الشروط التي يجب توافرها في أهل الشورى:-

إن الناظر في كتابات معظم المتقدمين والمتأخرين [١] حول الشروط التي يجب توافرها في أهل الشورى يجد أنها تكاد تكون محصورة فيما يلي:

(١) أن يكونوا من ذوي العدالة الجامعة، وذلك حتى يستطيعوا أن يتحملوا هذه المسئولية، فالشورى أمانة عظيمة يجب أن تسند إلى أهلها الذين يقومون بها على أحسن وجه.

ومن مستلزمات العدالة الجامعة التخلق بالأخلاق الإسلامية الفاضلة كالإخلاص في النصح والصدق في القول وتقوى الله في السر والعلن فلا يخافون في الله لومة لائم.

(٢) أن يكونوا من أهل العلم، فالعلم هو الذي يوصلهم إلى دقائق الأمور التي يتوقف عليها مصلحة الأمة في دينها ودنياها، لذلك لابد وأن يكونوا على علم وبصيرة بأمور الدين والدنيا.

(٣) أن يكونوا من أهل الرأي والخبرة والحكمة، فالخبرة في نواحي الحياة المختلفة شرط مهم في أهل الشورى، لأنها تمكنهم من اتخاذ القرار السليم المناسب.

(٤) أن يتمتعوا بصفة القبول عند الناس، فلابد لأهل الشورى أن يكونوا حائزين على ثقة الناس وحبهم واحترامهم حتى تكون آراؤهم وقراراتهم مقبولة عندهم.

مجالات وميادين الشورى:-

يتميز مبدأ الشورى بمرونة التطبيق، والقدرة على اتخاذ الشكل المناسب في كل عصر من العصور، وفيما يلي عرض لبعض المجالات التي سيعمل أهل الشورى فيها [٢]، وهذا للإجابة على السؤال: ما العمل الذي سيزاوله أهل الشورى عندما يجتمعون؟ وفي أي القضايا سيبحثون ويتناقشون؟

ومن أهم الطرق الشرعية السلمية للوصول إلى هذا المنصب المهم والخطير وهو الإمامة العامة للمسلمين، طريق الشورى، "بل إن المبدأ الأساسي في الظروف الطبيعية الآمنة لاختيار الحاكم هو الشورى، وليس هناك طريق غير ذلك" [٣] .

---

(١) المتقدمين مثل الماوردي في الأحكام السلطانية، والمتأخرين مثل الشيخ شلتوت في الإسلام عقيدة وشريعة، وكذلك عبد الرحمن عبد الخالق في الشورى في ظل نظام الحكم الإسلامي .

(٢) اعتمدت بشكل أساسي على كتاب: الشورى في ظل نظام الحكم الإسلامي لعبد الرحمن عبد الخالق ص٤٨ : ٨٥ .

(٣) الشورى في ظل نظام الحكم الإسلامي لعبد الرحمن عبد الخالق ص٥٩ بتصرف .

فيقوم أهل الشورى نيابة عن الأمة باختيار من يصلح لإمامة المسلمين، وذلك لقدرتهم وكفاءتهم على التمييز والاختيار.

يقول الدكتور محمد عمارة: "فالإجماع يكاد ينعقد على أن مهمة تمييز الإمام واختياره هي فرض خاصة الأمة أي فرض من الفروض الكفائية يجب على المؤهلين لهذه المهمة وليس ضروريًا ولا بالشرط اشتراك العامة واتفاقها في هذا الموضوع" (١) .

١- رقابة الحاكم وتسديده:

الحكم في الإسلام ليس حكمًا مطلقًا، فالحاكم مقيد بدستور الشرع ونصوص الكتاب والسنة، فمتى خالفهما صار معرضًا للنقد والإنكار عليه سواء صدر هذا من عامة الناس أو من خاصتهم، وقد أعطى الإسلام لأهل الشورى الحق في تقويم الحاكم وتسديده، بل جعله واجبًا عليهم لأنهم مفوضون ومؤتمنون، "فحق التسديد والتقويم واجب عليهم من ثلاث جهات:

من الله الذي أخذ العهد على أهل العلم بالبيان وعدم الكتمان، ومن الأمير الذي ائتمن أهل الشورى على تقويمه وتسديده، ومن عموم الناس الذين فوضوا أهل الشورى في شئونهم" (٢).

وما سبق يتضح أن من أهم الواجبات الأساسية لأي مجلس شورى في ظل النظام الإسلامي نصح الحاكم وتسديده.

سياسة الأمة في السلم والحرب:

ومن أهم المجالات التي تطبق فيها الشورى سياسة الأمة الإسلامية مع غيرها من الأمم سلامًا أو قتالًا، فإن هذا الأمر لا يقرره الحاكم بمفرده، بل لابد من استشارة أهل الشورى فيه، وتبادل الآراء في هذا الصدد لاختيار حكم الله تعالى المناسب للظروف والحالة بحسب قوة الأمة وحالة عدوها، وهكذا كان يفعل رسول الله ﷺ فقد كان يكثر من استشارة أصحابه الكرام رضوان الله عليهم، وقد ذكرت لنا السنة النبوية المطهرة نماذج كثيرة في هذا المجال، وذلك كاستشارته ﷺ لهم في بدر وأحد وفي فداء الأسرى وغير ذلك.

وقد يسأل سائل فيقول: هناك نصوص شرعية كثيرة في القتال قد يوهم ظاهرها التناقض

(١) نظرية الخلافة الإسلامية صـ٥٧ بتصرف .

(٢) الشورى في ظل نظام الحكم الإسلامي لعبد الرحمن عبد الخالق صـ٧٩، ٨٠ بتصرف .

والتعارض، فتارة يأمرنا الله تعالى بقتال من يقاتلنا فقط كقوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ (١)، وأخرى يأمرنا بقتال المشركين كافة كقوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ (٢)، وهناك نصوص تأمرنا بالسلم كقوله تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (٣)، وأخرى تأمرنا بالقتال وعدم الدعوة إلى السلم كقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ (٤).

والجواب: "أنه ليس هناك اختلاف أو تعارض بين هذه الآيات فلكل آية ظروفها وملابساتها، وإن كان هناك نسخ في بعضها قرره العلماء، فإنما كان ذلك بحسب المدى الذي وصلت إليه أمة الإسلام.

فالسياسة الشرعية تأمر المسلمين أن يعملوا بكل نص حسب ظروفه مقتضياته وأحواله دون إلغاء لما سواه من النصوص.

فهناك فرق يجب مراعاته دائمًا بين النص، والعمل بهذا النص. فالنص لا يتغير مدلوله وحكمه في أي عصر من عصور الإسلام ولا في أي مكان من الأرض، ولكن ظروف العمل بالنص تختلف حسب المكان والزمان" (٥).

وهنا يأتي دور أهل الشورى فهم الذين يملكون القدرة على اختيار الرأي المناسب الموافق لحال الأمة وحال عدوها بحسب الظروف فيقررون العمل به.

توجيه النظام المالي:

النظام المالي في الإسلام نظام واضح ومحدد من حيث الإيرادات العامة لبيت المال، ومن حيث الإنفاقات، وهناك نصوص في الكتاب والسنة توضح ذلك، ولكن مع كل هذا فإن هناك أمورًا فرعية أو مستحدثة قد تجد في هذا المجال لا يمكن للحاكم أن ينفرد فيها برأيه وحده، بل لابد إلى الرجوع إلى أهل الشورى لمعرفة رأيهم.

---

(١) سورة البقرة / الآية ١٩٠ .

(٢) سورة التوبة / الآية ٣٦ .

(٣) سورة الأنفال / الآية ٦١ .

(٤) سورة محمد / الآية ٣٥ .

(٥) الشورى في ظل نظام الحكم الإسلامي لعبد الرحمن عبد الخالق ص٤٩، ٥٠. بتصرف .

"فإن النظام المالي في الإسلام خاضع كلية للشورى: إما من حيث الإشراف والمراقبة، أو من حيث تقدير الحاجة والمصلحة في تشريع مصادر إضافية لجمع المال، أو من حيث تقدير حاجة كل قسم من مصارفه، وهذا ميدان عظيم من ميادين الشورى في الإسلام" (١).

بحث أحكام ما يستجد للناس من معاملات وقضايا:

وهذا من أهم ميادين الشورى، حيث تجري في حياتنا اليومية معاملات وقضايا جديدة لم تكن قد سبق حدوثها، وهنا يأتي دور أهل الشورى أهل العلم وأهل الاجتهاد، فيلحقون كل معاملة بأصلها من الحل والحرمة، ويرفعون الحرج عن عامة الأمة، ويخرجونهم من دائرة الحيرة.

والإمام يسترشد بآراء أهل الشورى في الوصول إلى الحكم الشرعي للمعاملات الحادثة والقضايا الجديدة.

أولويات تطبيقات الأحكام الشرعية:

بعدما ضاعت الخلافة الإسلامية وتقطعت الأمة الإسلامية وتحولت إلى دول أقيمت معظمها على أسس وطنية بشرية لا على أساس ديني عقائدي إيماني، وحلت التشريعات البشرية محل التشريعات الإلهية، بعدما كان كل هذا، صارت المشكلة الأولى التي ستقابل أي حكم إسلامي يريد أن يقوم هي ترتيب أولويات تطبيق أحكام الشريعة، فمن أين يبدأ الحكم الإسلامي؟

هل يبدأ أولًا بتطبيق العقوبات والزواجر؟ أم يبدأ بتطهير المجتمع من الفساد؟ أم يبدأ بتحسين الأوضاع الاقتصادية؟ أم يبدأ بالسياسة الخارجية؟ أم يبدأ بهذا كله؟ أم ماذا؟

لابد أن نعلم أن التدرج مهم جدًا في هذه الحالة، فلابد منه، فيُبدأ بالأهم ويقدم على المهم وتراعى الأولويات، والناس سيختلفون في ترتيب هذه الأولويات بحسب آرائهم وتوجهاتهم.

فمن الذي لديه القدرة على ترتيب هذه الأولويات؟

وهنا يأتي دور أهل الشورى، "ولا شك أن مجلسًا للشورى يجتمع فيه أهل العلم والفضل من المسلمين سيقرر بعد نظر ونقاش الخطة التي يراها أمثل لتطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقًا كاملًا، وذلك حسب أحوال الناس واستعدادهم، وحسب ظروف العصر... ومراعاة الأولويات في التطبيق ضرورة، وهي لا تعني مطلقًا أن الحكم الذي تأخر في التطبيق قد كفر به وجحد، وإنما تعنى

---

(١) المرجع السابق ص٧٦ بتصرف .

أن وسع الأمة وطاقتها لم تحتمله بعد، وهكذا تتدرج الأمة في تطبيق الأحكام حسب استطاعتها حتى تبلغ الكمال المقدر لها، ولا يستطيع تقدير هذه الاستطاعة إلا أهل الرأي والخبرة والمشورة من المسلمين " [١].

وهذا مجال مهم للشورى في الإسلام.

***

(١) المرجع السابق صـ٥٤، ٥٥ بتصرف .

تطبيق مبدأ العدل في السياسة ونظام الحكم

إن من أهم الأسس والمبادئ التي تقوم عليها نظام الحكم في الإسلام مبدأ العدل، فالعدل كما يقولون هو أساس الملك، بل إن الإسلام كله يقوم على العدل، فالإسلام دين العدل، وإذا كان لكل دين سمة أساسية فإن من أهم سمات الإسلام ومميزاته العدل.

والعدل واجب الإتباع ولو بالقوة، وذلك لأن توفير العدل من شأنه أن يحفظ النفس، ويصون الأعراض، ويكفل للإنسان حياة آمنة، لذلك يعد مبدأ العدل أحد المبادئ التي يوجب القرآن فرضها وتحقيقها بين الناس ولو باستخدام القوة المادية، ويحدد استخدام القوة لتحقيق العدل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (١) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (٢) في شرح هذه الآية الكريمة: "فإن المقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب أن يقوم الناس بالقسط في حقوق الله وحقوق خلقه، فمن عدل عن الكتاب قوِّم بالحديد" (٣).

مفهوم العدل السياسي في التصور الإسلامي:

تقدم بيان العدل بمفهومه الواسع الشامل، وفي هذا الجزء نوضح دلالته الاصطلاحية السياسية؛ لأن هذا يعين على إيجاد مجالات لتطبيقه في السياسة، ويجدر بي أولًا أن أتعرض لبعض نماذج من التعريفات التي ذكرتها بعض الدراسات السياسية المعاصرة، وتقويمها، ثم التعقيب بالتعريف الذي ارتضيته مع التركيز عليه.

---

(١) سورة الحديد / الآية ٢٥ .

(٢) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر النميري الحراني الدمشقي الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين ابن تيمية: الإمام، شيخ الإسلام. ولد في حران وتحول به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر. اعتقل سنة ٧٢.هـ وأطلق ثم أعيد ومات معتقلًا بقلعة دمشق سنة ٧٢٨هـ، فخرجت دمشق كلها في جنازته. كان كثير البحث في فنون الحكمة، داعية إصلاح في الدين، آية في التفسير والأصول، فصيح اللسان، قلمه ولسانه متقاربان، له تصانيف كثيرة منها: "الفتاوى"، و"السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية"، و"رفع الملام عن الأئمة الأعلام"، و"درء تعارض العقل والنقل". الأعلام للزركلي ١/ ١٤٤ .

(٣) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ص٣٨ تحقيق وتعليق: د/ محمد إبراهيم البنا، محمد أحمد عاشور .

وللعدل بمفهومه السياسي تعريفات كثيرة ذكرها بعض الباحثين من أهمها ما يلي:

(١) أنه يعني: "تصورًا عامًا أساسه الحياد واحترام الكرامة الإنسانية، وهو تصور لا تكفي بخصوصه التجريدات المطلقة، بل لابد، بحكم طبيعته، أن يتكون من عناصر متعددة لا حصر لها من الجزئيات الفكرية التي تمثل بدورها قيماً فرعية أو تابعة مثل: الثقة، الطمأنينة، حرية المسكن، الشعور بالاستقلال ... جميعها عناصر وجزئيات تتفاعل فيما بينها لخلق ذلك الإطار الفكري الذي يطلق عليه مفهوم العدالة" (١).

(٢) ويرى آخر أنه: " تنفيذ حكم الله، أي أن تحكم الناس وفقًا للشريعة الإسلامية، ويتدرج تحت هذا المعنى العام معان أخرى خاصة كالعدل في المعاملة، والعدل في القضاء، والعدل في الأموال والحقوق" (٢).

(٣) ويرى ثالث أنه بمعناه العام يعني المساواة، وأن العدل السياسي يعني: "الحكم بين الناس وتوجيه شئونهم" (٣).

(٤) ويحدد رابع معنى العدل في الإسلام بأنه: "تأكيد لوضع آخر هو المساواة أمام القانون في الحقوق والواجبات" (٤).

(٥) ويقول خامس أن المقصود به هو: "أن يكون الخليفة صاحب استقامة في السيرة، متجنبًا المعاصي، وهو ما يمكن أن يجمع تحت كلمة واحدة هي التقوى أو ما يعبر عنه في الوقت الحاضر بحسن السير والسلوك، والامتناع عما يخل بالشرف والأمانة" (٥).

(٦) ويعرفه سادس بأنه يعني: "عدم إيذاء الآخرين وعدم الإضرار بالغير كقدر أساسي لا محيص عنه في المعادلة الإنسانية، وما زاد عن ذلك من تقديم الخير والمعاونة والمودة إلى الآخرين يدخل في معنى الإحسان" والمقصود بذلك: "أن العدل يعني الاعتدال والاستقامة في السلوك، وان

---

(١) نظرية القيم السياسية د/ حامد عبد الله ربيع صـ٧ بتصرف (مذكرات غير منشورة) قسم العلوم السياسية كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة سنة ١٩٨٢م .

(٢) النظريات السياسية الإسلامية د/ محمد ضياء الدين الريس صـ٢٨٣ .

(٣) حتمية الحل الإسلامي "تأملات في النظام السياسي الإسلامي" د/ أبو المعاطي أبو الفتوح صـ١٢١، ١٢٣ .

(٤) فن الحكم في الإسلام د/ مصطفى أبو زيد فهمي صـ٤٦٨ .

(٥) نظام الحكم الإسلامي مقارنة بالنظم المعاصرة د/ محمود حلمي صـ٩٣، الحكومة والقضاء في الإسلام للمستشار/ عبد الحميد أحمد سليمان صـ٤٩، ٥٠ .

مباشرة العدل يصور مرحلة لم يصل إليها إلا بعد تجارب شاقة في صراعه مع ذاته، وتمثل هذه المرحلة التنازل عن حدة الأنانية إلى الاعتدال" (١) .

(٧) وإضافة إلى ما سبق نجد أن الشيخ أبا الأعلى المودودي يعرف العدل فيقول: إنه يتركب من حقيقتين دائمتين؛ أولاهما أن يتحقق التوازن والتناسب في الحقوق بين الناس، والثانية أن ينال كل ذي حق حقه بطريقة عادلة منصفة، ولذلك قد يلتقي العدل مع المساواة في بعض الوجوه، وقد لا يعني المساواة في وجوه أخرى، ويعتبر العدل أساس المجتمع، والإحسان كماله وجماله (٢) .

وإذا نظرنا إلى التعريفات السابقة لوجدنا أن هناك بعض الملاحظات عليها .. من أهمها:

أ- أن بعضها يخلط بين مفهوم العدل والمساواة إلى حد قد لا يفرق بينهما، ولم يخرج عن ذلك سوى التعريفين الأول والأخير فإنهما لم يقعا في ذلك. وما عداهما اعتبر أن العدل والمساواة وجهان لحقيقة واحدة.

ب- لا يوجد تعريف يجمع كل جوانب العدل، بل إن كلها أغفلت بعض الجوانب واهتمت ببعضها الآخر.

ج- يعتبر تعريف الشيخ المودودي هو أدق التعريفات، لأنه لم يقتصر على مفهوم إعطاء كل ذي حق حقه، بل أضاف إلى ذلك حقيقة أخرى هي تحقيق التوازن والتناسب في الحقوق بين الناس. إلا أنه مع ذلك لم يستوعب جميع العناصر المكونة لمفهوم العدل إذ أنه يقف عند حدود إعطاء كل ذي حق حقه، وتحقيق التوازن والتناسب في الحقوق بين الناس، ولا يتعدى إطار الحقوق إلى دائرة الواجبات وطبيعة علاقتها بالحقوق.

لذلك وبناءً على ما تقدم فإن التعريف الذي اخترته لمفهوم العدل السياسي هو ما يلي (٣):

أنه يعني: الاعتدال وعدم تجاوز الحد في العلاقة بين الراعي والرعية، وفي سلوك كل منهما تجاه

---

(١) الدين والدولة د/ محمد البهي صـ١٧، ٢٨، ٣٣٨ بتصرف .

(٢) الحكومة الإسلامية للشيخ أبي الأعلى المودودي صـ٩٥، ٩٦ ترجمة أحمد إدريس، وأبو الأعلى المودودي والصحوة الإسلامية د/ محمد عمارة صـ٣٣٧: ٣٤٠ .

(٣) دراسة حول العدالة في نظام القيم السياسية الإسلامية. إعداد: خليل عبد المنعم خليل مرعي. صـ١٥٤، ١٥٥ (رسالة ماجستير غير منشورة) قسم العلوم السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة سنة ١٩٩١م .

ذاته وتجاه الآخرين من غير الرعية، بحيث يلتزم كل طرف بحقوقه وواجباته على النحو الذي يؤدي إلى خلق التوازن والطمأنينة والثقة داخل المجتمع وخارجه.

ويراعي هذا التعريف عدة اعتبارات أهمها:

أولا: أنه يهتم بالجوانب المادية الظاهرية لمفهوم العدل، ولا ينسى في الوقت نفسه الجوانب المادية والمعنوية والأخلاقية للمفهوم، وبذلك ينسجم مع الرؤية الكلية الإسلامية لممارسة السياسة، ويضفيها على المفهوم.

ثانيًا: أنه يتمشى مع اتساع المفهوم وشموله التصور السياسي الإسلامي، لذلك جاء فيه استخدام لفظ "الراعي والرعية" دون "الحاكم والمحكوم" إذ إن اللفظ الأول يرتبط بالعلاقة التي تربط بين الراعي والرعية، وهي علاقة قوامها الرفق والإحسان وتبادل الحقوق والواجبات بعكس اللفظ الثاني فإنه برغم انتشاره لا يحمل هذه الدلالة، كما أن اللفظ الأول ينسجم مع كل ما له علاقة بالسلطة في دوائرها المتعددة، يستوي بذلك علاقة الراعي برعيته، أو الأستاذ بتلامذته، أو الرئيس بمرؤوسيه إلى غير ذلك.

ثالثًا: أنه يأخذ في الاعتبار الطبيعة العالمية للعدل في الإسلام الذي يتعدى في ممارسته حدود الأمة الإسلامية إلى نطاق التعامل الخارجي مع غير المسلمين.

رابعًا: أنه لا يقف عند دائرة الحقوق، حيث إعطاء كل ذي حق حقه، وتحقيق التوازن والتناسب في الحقوق بين الأفراد، وإنما يتعدى ذلك إلى الحديث عن الواجبات والالتزامات المفروضة على كل من الراعي والرعية تجاه بعضهما البعض، وتجاه ذواتهما وغيرهما من غير المسلمين، كما أنه يؤكد بوضوح على طبيعة العلاقة التبادلية بين حقوق وواجبات كل منهما تجاه الآخر، حيث تصبح حقوق الراعي هي ذاتها واجبات الرعية، وحقوق الرعية هي ذاتها واجبات الراعي، وطبيعي أن يولد ذلك توازن دقيقًا وتماسكًا تامًا داخل المجتمع الإسلامي.

الجانب التطبيقي للعدل السياسي في تعامل الراعي مع الرعية:

قبل الحديث عن أهم مجالات تطبيق العدل السياسي في الإسلام، لابد من الحديث أولًا عن الحاكم باعتباره من أهم الضمانات للنشر وتطبيق هذا المبدأ العام في نظام الحكم الإسلامي.

"فالحاكم العادل الذي يستحضر عظمة الله أمامه، البصير والمشاهد لأعماله، يعتبر من أهم الضمانات التي أوردها الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه لنشر هذا الأساس العام لنظام الحكم

الإسلامي. والعدل المعتبر في الحاكم أن يكون صادق اللهجة، ظاهر الأمانة، عفيفًا عن المحارم، متوقيًا المآثم ، بعيدًا عن الريب، مأمونًا في الرضا والغضب" (١).

لذلك فيجب على الحاكم أن يحكم رعيته المسئول عنها بالعدل، لأن الحاكم العادل هو قوام كل مائل ورأس النظام. يبين ذلك ما تضمنته الرسالة التي بعث بها الإمام الحسن البصري إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز (٢) يجيب فيها عن سؤاله عن صفة الإمام العادل (٣) ، وفيها يعتبر الإمام العادل

---

(١) الدولة ونظام الحكم في الإسلام د/ حسن السيد بسيوني ص٨٨ بتصرف .

(٢) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو حفص: الخليفة الصالح، والملك العادل، وربما قيل له خامس الخلفاء الراشدين تشبيهًا بهم. ولد ونشأ بالمدينة، وولي الخلافة سنة ٩٩ هـ ومدة خلافته سنتان ونصف، وأخباره في عدله وحسن سياسته كثيرة. توفي سنة ١٠١ هـ. الأعلام للزركلي .

(٣) نص الرسالة كما يلي: "كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة إلى الحسن بن أبي الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل فكتب إليه الحسن رحمه الله: اعلم يا أمير المؤمنين، أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق بها، الذي يرتاد لها أطيب المراعي، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع ويكنها من أذى الحر والقر. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغارًا، ويعلمهم كبارًا؛ يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرهًا، ووضعته كرهًا، وربته طفلًا تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته. والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصي اليتامى، وخازن المساكين، يربي صغيرهم، ويمون كبيرهم. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده. والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم. فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله عز وجل كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال وشرد العيال، فأفقر أهله وفرق ماله .

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها! وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم! واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر .

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلًا غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك، يسلمونك في قعره فريدًا وحيدًا. فتزود له ما يصحبك ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ ﴾ واذكر يا أمير المؤمنين ﴿ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ ﴾ ، فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مهل قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل. لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين؛

محور النظام السياسي كله إذا صلح صلح النظام، وإذا فسد فسد النظام، ومن ثم ينبغي عليه أن يكون أسوة حسنة لرعيته فيحكم فيهم بأحكام الشريعة ويراعي مصالحهم ويرفق بهم.

وللعدل السياسي تطبيقات كثيرة وممارسات شتى نذكر من أهمها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:-

(١) تطبيق أحكام الشريعة على الجميع دون تأثر بحب أو كراهية:

يرتبط هذا التطبيق بتطبيق موضوعية الشريعة الإسلامية بما تحمله من معاني العدل والإنصاف، وذلك لأن أحكام الشريعة الإسلامية تطبق على المسلمين كافة بحياد تام سواء في ذلك الحاكم والمحكوم فيغلب على تعاملها المعيار الموضوعي لا المعيار الشخصي ولا الأهواء والتشهي فيسود العدل ويشعر الجميع بالمساواة والأمن.

فالحاكم لا يأمر إلا بما أمر الله تعالى به من طاعة، ولا ينهي إلا عما نهى الله تعالى عنه من معصية، ويقيم أمر الله تعالى الناس كافة سواء في ذلك القريب والبعيد دون تأثر بحب أو كراهية، ويحرص على إقامة الحدود على نفسه كحرصه على إقامتها على غيره، وهكذا كان السلف الصالح في تعاملهم فيما بينهم.

(٢) عدم التمايز بين الحاكم وأهله وبين الرعية، أو بين الرعية وبعضهم البعض:

ويرتبط هذا التطبيق كسابقه بتطبيق موضوعية الشريعة الإسلامية على الجميع دون تأثر بالأهواء والأغراض الشخصية، فيترتب على ذلك أن الجميع سواسية لا تميز بين حاكم ومحكوم، أو بين فئات الرعية المختلفة.

فالعلاقة بين الحاكم والمحكوم يجب أن تكون علاقة بين اثنين يقف كل منهما من الآخر موقف مساواة وعدم تميز، وكذلك فإن العلاقة بين الرعية بعضهم والبعض يجب أن تكون على نفس المنوال

فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلًا ولا ذمة، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالًا مع أثقالك. ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك. ولا تنظر إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غدًا وأنت مأثور في حبائل الموت، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحي القيوم. إني يا أمير المؤمنين، إن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهى من قبلي، فلم آلك شفقة ونصحًا، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة. والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته" . العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ١/٣٤: ٣٦.

السابق، فلا تميز لفئة على الفئات الأخرى على أي أساس سوى التقوى، وقد سار الخلفاء الراشدون والسلف الصالح من بعدهم على ذلك وحرصوا على تطبيق هذا الأمر وتقريره وتثبيته في النفوس.

وبناءً على ما سبق فإنه يجب على الحاكم ألا يميز نفسه أو أهله عن سائر الرعية، أو يميز فئة من الرعية على غيرها من الفئات، بل الجميع متساوون في مختلف الأمور سواء في إجراءات التقاضي، أو في القسمة والعطاء.

(٣) الرفق بالرعية والصبر في التعامل معهم:

يمثل تطبيق هذا الأمر جانبًا هامًا من جوانب الممارسة السياسية للعدل مع الرعية.

ولا يقصد بالرفق التسيب والفوضى في المعاملة مع الرعية، بل المراد إلزامها بالعمل بأحكام وقواعد الإسلام وعدم الإخلال بها، بحيث لا يكلفون إلا ما يطيقون، كل هذا مع التلطف معهم.

والرفق بالرعية، بصفة عامة، يتطلب أولًا نوعًا من المروءة، والصلاح في الدين، ويلزم ثانيًا صبرًا من الراعي في تعامله مع رعيته وسعة صدر حتى يستطيع أن يلزمهم باتباع الحق والعدل دون أن يقسو عليهم، كما أنه يمثل ثالثًا صورة من صور تواضع الراعي وعدم غروره بسلطته.

(٤) العدل في اختيار العمال:

من أهم المجالات التي يطبق فيها الراعي العدل السياسي، العدل في اختياره لعماله، فيجب عليه أن يختار الأصلح لشغل المناصب والوظائف، وأن يضع الشروط التي يجب أن تتوافر فيمن يتولاها، وأن يطبق العدل فيهم ويوجههم لتطبيقه حتى ينعكس ذلك عليهم وعلى سلوكهم مع باقي الرعية، وعليه أن يراقب سلوكهم ومدى التزامهم بالعدل، فمن التزم بقي، ومن حاد حوسب وعوقب وعزل، ويجب عليه أن يحتاط في تولية الأهل والأقربين وقصر المناصب عليهم لأن ذلك قد ينقلب عليه.

***

تطبيق مبدأي حرية الاعتقاد (لا إكراه في الدين)، والتعددية الدينية (لكم دينكم ولي دين) في السياسة

لقد ضمنت الشريعة الإسلامية للفرد حقه وحريته في اختيار عقيدته بعيدًا عن أي إكراه، وذلك كحق أساسي من حقوقه وحرياته المعنوية، فمنعت كل وسائل الإكراه ، وفي الوقت نفسه لم تدخر وسعًا في التأكيد على ضرورة إظهار الحق وإقامة البراهين على العقيدة، قال تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ (١).

"وتكاد تجمع كتب التفسير والفقه على أن هذه الآية تمثل قاعدة كبرى من قواعد الإسلام، وركنًا عظيمًا من أركان سماحته، فهو لا يجيز إكراه أحد على الدخول فيه، ولا يسمح لأحد أن يكره أهله على الخروج منه، ومن أجل ضمان عدم الإكراه أوجب الإسلام على المسلمين التمكن من القوة للقيام في وجه من يحاول فتنتهم عن دينهم، وأمر المسلمين أن يعتمدوا في دعوة خصومهم أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة لتبيين الرشد من الغي " (٢) .

وبالإضافة إلى ذلك فقد أباحت الشريعة الإسلامية التعددية الدينية وقررت احترامها فقد أمر الله نبيه أن يخاطب الكافرين بقوله تعالى: ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾ (٣) ، فلكل دينه الذي ارتضاه ورضيه، وعليه وحده تقع المسئولية بعد ذلك.

ولهذين المبدأين أهمية عظمى في النظام السياسي الإسلامي، ولهما تطبيقات كثيرة في هذا المجال ينبغي للحاكم أن يسير على نهجها، نذكر من أهمها ما يلي:-

(١) إقرار حرية الاعتقاد للجميع، وعدم حظر التعددية الدينية :

والمقصود بحرية العقيدة: "أن يكون الشخص حرًا في اعتناق أي دين أو مبدأ يعتقد به، وكذلك حريته في عدم اعتناق دين أو مبدأ بالمرة" (٤).

---

(١) سورة البقرة / الآية ٢٥٦ .

(٢) الحريات العامة في الدولة الإسلامية للشيخ/ راشد الغنوشي ص٤٤ .

(٣) سورة الكافرون/ الآية ٦ .

(٤) الحريات العامة في الفكر والنظام السياسي في الإسلام د/ عبد الحكيم حسن العيلي ص١١٣ .

وينبغي للحاكم أن يقر هذا الحق للجميع، بدون أي إكراه أو إجبار، فقد قرر القرآن الكريم أنه لا إكراه في الدين، فلا يرغم أحد على ترك دينه واعتناق دين آخر قال تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ (١) ، وقال تعالى أيضًا مخاطبًا رسوله الكريم ﷺ: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ (٢) ، وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾ (٣) .

وبما أنه لا إكراه في الدين فإن التعددية الدينية أمر مباح وغير محظور.

والناظر في الشريعة الإسلامية يجد فيها ما يؤكد هذا المبدأ ويقرره، فقد أُمرنا – في معاملاتنا مع غير المسلمين – أن نتركهم وما يدينون، لهم ما لنا وعليهم ما علينا.

وعلى هذا سار المسلمون في معاملاتهم وحروبهم مع أهل الأديان الأخرى، فقد كانوا يبيحون لأهل البلاد التي يفتحونها أن يبقوا على دينهم مع أداء الجزية والطاعة للحاكم، وذلك مقابل الحماية من أي اعتداء.

وفى هذا يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في معاهدته مع أهل بيت المقدس عقب فتحه له: "هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم .. أنه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، لا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم" (٤) .

ويقول عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في معاهدته مع المصريين بعد فتحه لمصر: "هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم، وكنائسهم وصلبهم، وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينقص" (٥) .

---

(١) سورة البقرة / الآية ٢٥٦ .
(٢) سورة يونس / الآية ٩٩ .
(٣) سورة الكهف / الآية ٢٩ .
(٤) تاريخ الأمم والملوك للطبري ١٠٥/٣ .
(٥) المرجع السابق ١٩٩/٣، والبداية والنهاية لابن كثير ٩٨/٧ .

(٢) الحرية التامة في ممارسه الشعائر الدينية:

والمقصود بحرية إقامة الشعائر وممارستها: "أن يتمكن الإنسان من إعلان شعائر ملته وإظهار طقوس عقيدته ليلًا أو نهارًا سرًا أو جهارًا، وأن يتعبد أو لا يتعبد وأن يباشر أو لا يباشر أي نشاط دينى.

ولا تتعارض حرية العقيدة وإقامة الشعائر مع حرية الدولة في اعتناق دين معين بحيث يصبح دينها الرسمي – ماعدا الشيوعية، إذ تعادى الأديان جميعها، وتعدها دليلا للتخلف والرجعية وتعتبرها خرافة وجهلًا – لأن اعتناقها لهذا الدين يجب ألا يؤثر على حرية الأفراد في اعتناق الأديان، وألا يحول ذلك دون ممارستهم طقوس عقائدهم ما التزموا بحدود النظام والآداب العامة" (١).

وعلى هذا فإن الإسلام قد كفل لمخالفيه في العقيدة حقهم في ممارسة شعائرهم الدينية بشرط ألا يخرجوا عن النظام العام للدولة الإسلامية، ولاعن منهج التشريع الإسلامي الذي قرره النبي ﷺ وسار عليه المسلمون من بعده.

وقد أقر النبي ﷺ هذا الحق لغير المسلمين، فقد كان ﷺ يوصى قادة الجيوش في القتال بعدم قتل أصحاب الصوامع فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال: "**اخرجوا بسم الله تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع**" (٢).

وعلى هذا النهج سار المسلمون في تعاملهم مع مخالفيهم في العقيدة، والتاريخ الإسلامي حافل بذكريات وأحداث تعد من دواعي فخر المسلمين في هذا المجال.

ومن ذلك وصية خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للجيش المتوجه إلى بلاد الشام بقيادة أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حيث قال: "سوف تمرون بأقوامهم قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له" (٣).

---

(١) الدولة ونظام الحكم في الإسلام د/ حسن السيد بسيوني ص١٤٧، ١٤٨ بتصرف.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٤٦١ حديث رقم ٢٧٢٨. تحقيق: شعيب الأرنؤوط.

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢/ ٢.

وكوصيته رضي الله تعالى عنه أيضا ليزيد بن أبى سفيان عندما بعثه علي رأس جيش إلى الشام حيث قال: "وستجد قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله فدعهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له"(١).

وبعد

فمما سبق يتضح بجلاء أن الإسلام قد أقر حرية العبادة وممارسة الشعائر لغير المسلمين بدار الإسلام، وأمرنا رسول الله ﷺ أن تركهم وما يدينون، وهناك وقائع تاريخية من عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين وأئمة الإسلام تثبت جميعًا بأن المسلمين قد اتفقوا على إقرار حرية ممارسة الشعائر لغير المسلمين بدار الإسلام، وذلك احترامًا لحقهم في حرية الاختيار، ولأن منعهم من ذلك هو نوع من إكراههم على ترك دينهم بالقوة، والإسلام لا يبيح ذلك.

أما إظهارهم لشعائرهم بشكل علني، بإظهار الصلبان وضرب النواقيس والخروج بتلك الطقوس إلى خارج المعابد فيعد من باب الفتنة غير المباشرة للناس عن دعوة الحق- دين الإسلام- إذ يمثل هذا الإظهار لطقوسهم تقوية لهم على كفرهم، ومدعاة لاغترار الكافر بدينه، واستمرار التصاقه بعقيدة قومه، وذلك يعيقه بشكل غير مباشر عن التفكير في غير عقيدته، وبالتالي كان ذلك فتنة له عن الإسلام، وهذا بدوره يعيق الهدف الرئيسي من وصول المسلمين بدعوتهم إلى بلاده، لأن عهد الذمة أو الصلح المعقود مع الكفار إنما يمثل فرصة - وإن كانت غير محدودة - تهيئ للذمي حرية النظر والاختيار، قبل أن يدركه الموت على كفره.

ولذلك لابد من منع الذميين من إعلان عقائدهم وإظهار شعائرهم إذا لم تؤمن الفتنة (٢).

(٣) حرية المناقشات الدينية:

لقد أباح الإسلام للأفراد حرية الفكر والمناقشة، وبين القرآن الكريم أن ذلك يعد سبيلًا في الدعوة على إثبات أجل حقائق الوجود ألا وهو الدعوة إلى توحيد الله تعالى، ومن أمثلة ذلك ما حكاه القرآن الكريم من حوار بين سيدنا إبراهيم عليه السلام والذي حاجَّه في ربه قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ

(١) المدونة الكبرى في فقه الإمام مالك ٣/ ٧.

(٢)حقوق الإنسان وحرياته الأساسية في النظام الإسلامي والنظم المعاصرة د/ عبد الوهاب عبد العزيز الشيشاني ص٥١٩، ٥٢٠ بتصرف.

وأميتُ قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴿٢٥٨﴾ ﴾ (١) .

ومن أهم الصور التطبيقية للحرية الدينية ما قرره القرآن الكريم من أدب المناقشة والمجادلة بين المسلمين وبين أهل الديانات الأخرى، مناقشة ومجادلة يكون أساسها العقل والفكر والمنطق، وعمادها الإقناع بالطريقة التي هي أحسن، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴿٤٦﴾ ﴾ (٢) ، وقال تعالى أيضًا: ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ (٣) .

وحينما أقر الإسلام حرية المناقشات الدينية وضع لها الأساس، ووضح أن المناقش في الأمور الدينية لابد وأن يتجه إلى الوسائل التي يراها كفيلة بالإقناع، وأن يناقش بأدب جم، وأن يقابل الحجة بالحجة.

وقد سار خلفاء رسول الله ﷺ والسلف الصالح من بعدهم على ذلك النهج، ومارسوا هذه الحرية ممارسة صحيحة كانت تؤتي ثمارها وتعود بالنفع على الأمة كلها.

"إذن فالمناقشة الدينية الحرة لابد وأن تؤدي بأصحابها إلي الوصول إلى الحقائق واختيارها بحرية تامة واقتناع وفهم، وليس هناك ما يمنع من ممارسة هذه الحرية والتمتع بهذا الحق إلا إذا أدت المناقشة الدينية إلى محظور كإثارة شقاق أو خلاف أو خروج من الدين، كأن يتصدى للأمر جاهل فيفسد على الناس دينهم، فلابد حينئذ من وضع حد لمثل ذلك الوضع مقدرًا بقدره.

ومناقشات المسلم الدينية مع غيره من أصحاب الديانات الأخرى واجبه إن كانت تؤدي إلى إفادتهم، وإقناعهم بحقيقة الإسلام، بشرط أن يلتزم بحدود عدم الاعتداء على عقائد الآخرين، أو حرياتهم وحقوقهم" (٤) .

---

(١) سورة البقرة / الآية ٢٥٨ .
(٢) سورة العنكبوت / الآية ٤٦ .
(٣) سورة النحل / الآية ١٢٥ .
(٤) المرجع السابق ص٥١٣ بتصرف .

*** حول حماية العقيدة:**

وأختم الحديث عن تطبيق هذا المبدأ بكلمة أخيرة حول حماية العقيدة، فإن القرآن الكريم قد أقر حرية العقيدة كمبدأ، وأباح ممارسة العبادات والشعائر، وحرية المناقشات الدينية بشكل لم يسبق إليه، ولكنه بعد كل هذا شرع حماية العقيدة وفرض على المسلمين حمايتها من أي عدوان أو خطر يقع عليها من الخارج أو الداخل.

فمن أهم صور حماية العقيدة من العدوان الخارجي الجهاد في سبيل الله، فقد حمل المسلمون السيف لحماية الدعوة ورد العدوان، ومنع فتنة الناس عن دينهم، ولم يحمل المسلمون السيف لإكراه أحد على الدخول في الإسلام أو لإجباره على ترك دينه، وتاريخ الإسلام حافل بالأحداث التي تؤكد أن الإسلام لم ينتشر أبدًا بالسيف، وذلك فضلًا عن شهادة بعض علماء الغرب المنصفين على سماحة الإسلام، والفضل ما شهدت به الأعداء.

أما حماية العقيدة من العدوان الداخلي فمن أهم مظاهرها إقامة حد الردة على المرتد عن الإسلام. والإسلام إنما يقرر عقوبة القتل للمرتد لما يراه من أن الردة كشف لظهر الإسلام، وهدم لعزة الدين وقوة أهله، وفتنة لضعفاء الإيمان، فالمرتد بردته يكون قد انسلخ عن الإسلام وجاهر بالكفر وخان أمته فحق عليه إقامة الحد.

***

الفصل الثالث
تطبيق بعض المبادئ القرآنية في القانون
تطبيق مبدأ "القصاص حياة" في القانون

من أهم المبادئ القرآنية التي لابد وأن تطبق في مجال القانون مبدأ القصاص، والمراد بالقصاص هنا هو الذي عبر عنه الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بقوله: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (١) ، فإن هذا القصاص له حكم وفوائد عظيمة للفرد والجماعة، ولا نكاد ندرك هذه الحكم وتلك الفوائد إلا عندما ننظر إلى المجتمعات التي يكون الحكم فيها لله، وتطبق فيها شريعته في القصاص، وإلى المجتمعات التي تطبق فيها شريعة البشر، فمعدل الجريمة فالحالة الأولى يكون أقل بكثير من الحالة الثانية، والله سبحانه وتعالى وهو الحكيم الخبير العليم يعلم ما فيه صلاح للبشر، لذلك شرعه لهم، وأوجب عليهم أن يعملوا به، فإن هم حكموا بما أنزل الله صلح حالهم وهدوا، وإن لم يفعلوا ذلك صدق فيهم قول الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (٢) .

"ولقد برهن الواقع الذي لا يستطيع أحد إنكاره، أن للقصاص حكمًا عديدة وفوائد جمة. فكم سفكت دماء باسم الثأر، وكم اشتد العداء إلى حد الحرب. ولكن بالقصاص قد شفى صدور الحانقين، وأغناهم عن مؤنة لا يعرفون مداها. ثم هو بعد ذلك تقدير لقيمة الفرد المفقود. فقد كان عضوًا في مجتمعه فمن أزاله منه يزال هو أيضًا منه" (٣) .

إذن فللقصاص حكم كثيرة، وفوائد عظيمة، لأجلها شرع القصاص، ومن أهم هذه الحكم والفوائد:-

---

(١) سورة البقرة / الآية ١٧٩ .

(٢) سورة المائدة / الآية ٤٥ .

(٣) نظرة القرآن إلى الجريمة والعقاب د/ محمد عبد المنعم القيعي صـ٢٥٢ .

(١) إنه الجزاء العادل في مقابل الجريمة:

فالجزاء من جنس العمل، فإن من قتل نفسًا وأزهقها متعمدًا فجزاؤه أن يقتل كما قتل، وتعد هذه الحكمة من أهم أهداف العقوبة [(١)].

"فالعقوبة في القرآن الكريم هي الجزاء العادل المشروع لمصلحة الفرد والجماعة عند اقتراف جريمة.

والعقوبة في نفسها مفسدة. لكن عند موازنتها بالجريمة كانت الجريمة أفسد منها، فانقلب فساد العقوبة إصلاحًا عندما كان جزاءً على ما هو أفسد منها.

وقد يستفيد المرء في الجريمة لكن على حساب الإضرار بغيره فحرمت عليه. كما قد يتضرر في العقوبة. لكن في نظير حماية غيره شرعت العقوبة لكل معتد أثيم حماية للفرد في نفسه وللمجتمع من كل ما هو خطر عليه" [(٢)].

(٢) إن العقوبة بالقصاص هي منع للجريمة من أصلها:

لأن الذي يعلم أنه إن أقدم على القتل فإن الجزاء الذي ينتظره هو القتل كان ذلك مانعًا له عن الإقدام عليه أصلًا.

"فالقصاص يلقي في نفس الجاني عندما يقدم على ارتكاب جريمته: أن الجزاء الذي ينتظره هو مثل فعله، وأن ذلك يلقى بالاضطراب في نفسه، إذ يحس بأنه لا فكاك من إنزال هذه العقوبة وإنه لن يفلت من العقاب مهما حاول الهرب والتخفي، فإنه لن يغيب عن أعين المتعقبين له من أولياء الأمور، وأن القصاص ينتظره مهما طال الزمن، وأن ذلك الإحساس إذا قوى قد يمنعه من ارتكاب الجريمة" [(٣)].

(٣) إن القصاص يشفي صدور أولياء الدم، فيمنعهم من الرغبة في الثأر:

إن من أهم حكم مشروعية القصاص أنه يشفي صدور أولياء المجني عليه، فلا يعقل أن يفقد

---

(١) راجع أهم أهداف العقوبة في كتاب: (في أصول النظام الجنائي الإسلامي "دراسة مقارنة") د/ محمد سليم العوا صـ٧١ وما بعدها.

(٢) نظرة القرآن إلى الجريمة والعقاب د/ محمد عبد المنعم القيعي صـ٢٠٧.

(٣) الأركان المادية والشرعية لجريمة القتل العمد وأجزيتها المقررة في الفقه الإسلامي د/ يوسف علي محمود حسن ١١/٢.

والد ولده ويرى قاتله يمشي بين الناس وقد حرم هو من رؤيته لولده، فتتكون في صدره وصدر أهله الرغبة في الثأر، لكن إذا اقتص من القاتل فقتل مثلما قتل كان هذا مانعًا لأولياء المجني عليه من الثأر، وشفاءً لصدورهم وغيظ قلوبهم.

(٤) إن إقامة القصاص فيه صيانة للمجتمع وحفظ للحياة:

قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾[1]، بينت هذه الآية الكريمة محاسن القصاص، فقد جعل الحق تبارك وتعالى القصاص الذي هو قتل وتفويت للحياة محلًا لضده وهو الحياة، وهذا فيه من البلاغة ما فيه.

والمعنى: ولكم في القصاص الذي شرعه الله لكم بقاء وحياة، لأن الرجل إذا علم أنه يقتل قصاصًا إذا قتل غيره كف عن القتل فيبقى هو حيًا، وكذلك الحال أيضًا لمن أراد أن يقتله، فيكون ذلك بمنزلة الحياة للنفوس الإسلامية.

وقد ذكر هذا المعنى كثير من المفسرين[2].

إلا أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعقب هذا المعنى وقال: "وقول من قال: أن قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾[3] معناه: أن القاتل إذا عرف أنه يقتل كف فكان في ذلك حياة له وللمقتول. يقال له: هذا معنى صحيح ولكن هذا مما يعرفه جميع الناس وهو مغروز في جبلتهم، وليس في الآدميين من يبيح قتل أحد من غير أن يقتل قاتله، بل كلهم مع التساوي يجوزون قتل القاتل، ولا يتصور أن الناس إذا كان كل من قدر على غيره قتله، وهو لا يقتل يرضى بماله، وإذا كان هذا المعنى من أوائل ما يعرفه الآدميون، ويعلمون أنهم لا يعيشون بدونه صار هذا مثل حاجتهم إلى الطعام والشراب والسكنى. فالقرآن أجل من أن يكون مقصوده التعريف بهذه الأمور البديهية بل هذا مما يدخل في معناه، وهو أنه إذا كتب عليهم القصاص في المقتولين أنه يسقط حر بحر، وعبد بعبد، وأنثى بأنثى، فجعل دية هذا كدية هذا، ودم هذا كدم هذا، متضمن مساواتهم في الدماء

---

(١) سورة البقرة / الآية ١٧٩ .

(٢) جامع البيان للطبري ٦٧/٢ ، تفسير ابن كثير ٢١٧/١ .

(٣) سورة البقرة / الآية ١٧٩ .

والديات وكان بهذه المقاصة لهم حياة من الفتن التي توجب هلاكهم، كما هو معروف، وهذا المعنى مما يستفاد من هذه الآية " (١).

أقول: والمعنيان صحيحان، ومطلوبان. ذلك لأن من يريد أن يقتل ويتذكر القصاص يعرض عما يريد، فيكون ذلك سببًا في حياته وحياة من أراد قتله، ثم إنه إذا فعل يقتص منه فيكون في ذلك حياة للآخرين، وإلا لتحول الأمر إلى الانتقام والأخذ بالثأر.

شبهات مردودة حول القصاص

لقد أثير جدل واسع حول عقوبة القصاص (الإعدام) فألغتها بعض الدول، وطبقها بعضها الآخر.

فالدول التي ألغتها قد جردتها من فاعليتها، لأن قوانينها قد جعلتها غير يقينية فقلما تطبق حتى ولو كان مسموحًا بها.

أما الدول التي طبقتها فنسبة جرائم القتل بها في انخفاض ونقصان.

"وبوسعنا أن نتصور كم يمكن أن تنخفض نسبة جرائم القتل إذا جعلنا تنفيذ القصاص أمرًا يقينيًا لا مناص منه، وبوسعنا أن نعرف يقيناً - لا مجرد تخيل - نسبة الانخفاض من خلال هذه الإحصائية التي احتواها كتاب الداخلية السعودية - البلد الذي يلتزم بشرع القصاص دون تراخٍ - تقول الإحصائية (٢):

أما بالنسبة للجرائم المقترفة فقد أمكن حصر الجرائم التالية على مدى العشر سنوات الأخيرة من ١٣٨٦ إلى ١٣٩٥هـ (الموافق ١٩٦٦ إلى ١٩٧٥م) وهذه الجرائم هي:

القتل: ويشمل العمد وشبه العمد ويشمل القتل خطًا فيما عدا الوفيات الناتجة عن حوادث السيارات وقد تراوح معدل حدوث القتل في العشر سنوات الأخيرة في المملكة من ٠,٣ (ثلاثة من مائة) في الألف من السكان إلى ٠,١، (واحد من مائة) في الألف من السكان. كما يبدو ذلك من الجدول التالي (٣).

---

(١) دقائق التفسير، الجامع لتفسير شيخ الإسلام ابن تيمية ١/ ٢٢٠ .

(٢) وهي إحصائية قديمة، لكن في حدود المتاح لي من بحث واطلاع، وهي تفي بالمطلوب والغرض.

(٣) الإسلام وأمن المجتمع "التدابير الوقائية في الإسلام" د/ أحمد عبد الرحمن إبراهيم صـ٧١ .

معدلات وقوع حوادث القتل في المملكة
في عشر سنوات بالنسبة للألف من السكان (١)

السنة	عدد الحوادث	نسبة الحوادث إلى عدد السكان
١٣٨٦هـ	١٦٩	٠,٠٣
١٣٨٧هـ	١٥٤	٠,٠٣
١٣٨٨هـ	٧٤	٠,٠١
١٣٨٩هـ	٤٠	٠,٠١
١٣٩٠هـ	٤٩	٠,٠١
١٣٩١هـ	٤١	٠,٠١
١٣٩٢هـ	٥٤	٠,٠١
١٣٩٣هـ	٣٩	٠,٠١
١٣٩٤هـ	٥٤	٠,٠١
١٣٩٥هـ	٧٠	٠,٠١

وفيما يلي عرض لبعض شبه المعارضين لعقوبة القصاص وردها (٢):

الشبهة الأولى: أن قتل الإنسان هدم للبنية الإنسانية، وبقتل القاتل قصاصًا نضيف إليه هدمًا آخر نفعله بإرادتنا، والواجب أن نرمم ما تهدم بقدر الإمكان، لا أن نزيد فيه.

والرد: أن الإنسان المجرم إذا علم أنه لا يقتص منه إذا قتل فإنه يتشجع على القتل، ويتشجع غيره، فيكثر المجرمون القتَّالون، وبالتالي يكثر القتل، وهنا يزداد هدم البنية الإنسانية بأيدي الناس

(١) كتاب وزارة الداخلية السعودية عن الندوة العلمية لدراسة تطبيق التشريع الجنائي الإسلامي وأثره في مكافحة الجريمة – الرياض- شوال ١٣٩٦هـ صـ١٠٣ نقلًا عن المرجع السابق صـ٧١، ٧٢ .

(٢) الأركان المادية والشرعية لجريمة القتل العمد وأجزيتها المقررة في الفقه الإسلامي د/ يوسف علي محمود حسن ١٧/٢ : ٢٠ بتصرف .

أنفسهم وبصورة غير عادلة، فخير لنا أن نتفادى الهدم الكثير الجائر الذي تحدثه الفوضى بالقليل الذي تطبقه أيدي العدالة على سبيل العقاب المماثل الذي لا سبيل للوقاية إلا به.

الشبهة الثانية: أن الحياة منحة الخالق، وليست هبة من المجتمع حتى يحق له أن يسلبها أو يستردها.

والرد: أن الحياة منحة من الخالق وليست هبة من المجتمع، هذا صحيح، ولكن في الوقت نفسه القصاص من القاتل من أمر الله تعالى إن أراده ولي الدم، ونحن مطالبون بتنفيذ أمر الله تعالى، كما أن سلب الحياة مبرر على أساس أن الضرورة تقتضيه، وتكون الضرورة قائمة إذا كان أي عقاب آخر لا يمكن أن يحل محل الإعدام في درجة ردعه وزجره.

الشبهة الثالثة: أن هذه العقوبة لا يمكن الرجوع فيها أو إزالتها بعد تنفيذها في شخص واتضح بعد ذلك أن الحكم خطأ، أو أنه يستحق العفو عنه.

والرد: أن العقوبة لا تنفذ في القاتل إلا بعد ثبوت الجريمة عليه تمامًا وبالطرق الشرعية، وان أي قرينة تدل على عدم قصد العدوان بما يقتل غالبًا، أو قيام أي شبهة فإنها تدفع عنه القتل فكما هو معلوم أن الحدود تدرأ بالشبهات.

الشبهة الرابعة: أن عقوبة القصاص لها أثر سيئ على المسجونين وعمال السجون وموظفيه، فقد لوحظ أنه عند تنفيذ عقوبة الإعدام في أحد السجون أن المسجونين الآخرين في السجن وعمال السجن يصابون باضطرابات نفسية شديدة كما يتعرض لهذه الإصابات نفسها موظفو السجن وعماله في البلاد المتمدنة.

والرد: إن إصابة بعض الأشخاص باضطرابات نفسية نتيجة علمهم أو رؤيتهم لتنفيذ هذه العقوبة لا يدل على عدم مشروعيتها، ذلك أن الإنسان قد يصاب بمثل هذه الأعراض عند رؤيته عملية جراحية خطيرة لإنسان، أو قطع عض متآكل دون مخدر لظروف اقتضت ذلك.

كما أنه قد ثبت أن البلاد التي تنفذ هذه العقوبة تنفيذًا لأمر الله لم يصب أفرادها باضطرابات نفسية.

الشبهة الخامسة: أن القصاص عقوبة بشعة، تضعف الشعور بالإنسانية وبقيمة الحياة البشرية.

والرد: اتفقت جميع الملل منذ بدء الخليقة على بشاعة جريمة القتل عدوانًا، وان المجرم بفعله

القبيح قد سلخ نفسه من الإنسانية. ولذلك فإنه يستحق القتل جزاء ما كسبت يداه، فما بالهم يشفقون على المجرم ولا يشفقون على المجني عليه وأوليائه والإنسانية المهددة، فالجاني لم يرحم المجني عليه وبالتالي لم يرحم المجتمع، ومن لا يرحم لا يُرحم.

وكذلك فإن حياة الجاني ليست أفضل من حياة المجني عليه لذا فإن المنطق السليم يقتضي أن يكون الجزاء من جنس العمل.

ويمكن القول إن الشرع كالطب، فإذا وجد بإنسان عضو تالف يهدد حياته بالموت، فقطع العضو خير له محافظةً على حياته، ونحن بالقصاص نتخلص من هذا المجرم العضو الفاسد في المجتمع حتى نحافظ على المجتمع كله.

***

تطبيق مبدأ "عفا الله عما سلف" في القانون

من المبادئ القرآنية العامة التي لها تطبيق في القانون مبدأ "عفا الله عما سلف" ومعناه: عدم رجعية التشريع إلى الماضي.

يقول الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم القيعي: "من المعلوم أن القرآن الكريم أكد مبدأ عدم رجعية التشريع إلا في حالات معينة. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ (١) فقد صرحت الآية بالعفو عما سلف وهذا قاطع بعدم رجعية التشريع " (٢) .

ومن أهم المجالات التي يطبق فيها هذا المبدأ مجال القانون، بل إن هذا المبدأ له نظير في القانون هو مبدأ عدم رجعية القوانين.

فإذا شُرِّع قانون جديد فإنه لا ينسحب على الحالات السابقة، وإنما يطبق فورًا على الحالات التي تقع حالًا واستقبالًا.

لذلك يقصد به عند أهل القانون: "عدم انسحاب القوانين القديمة على الماضي، وأنه يجب أن يقتصر أثر القانون الجديد على ما يستجد من وقائع بعد نفاذه ولا يجوز أن يسري على ما تم من وقائع وآثار قبل نفاذه" (٣).

ويسري تطبيق هذا المبدأ في جميع مواد الشريعة والقانون.

وهذا المبدأ تفرضه عدة اعتبارات ومبررات من نواحي مختلفة أهمها اعتبارات المنطق، والمصلحة العامة، والعدالة، وغير ذلك.

وفيما يلي عرض لأهم مبررات هذا المبدأ (٤):

---

(١) سورة المائدة / الآية ٩٥ .

(٢) نظرة القرآن إلى الجريمة والعقاب صـ٩٢، ٩٣ .

(٣) المدخل لدراسة القانون (نظرية القانون ونظرية الحق) د/ نزيه محمد الصادق المهدي صـ١٩١ .

(٤) المرجع السابق صـ١٩١، ١٩٢ بتصرف .

أولًا: يقوم مبدأ عدم رجعية القوانين على أساس من المنطق لأنه يتفق مع معنى القانون باعتباره أمرًا يقصد به توجيه سلوك الأفراد، وأن التوجيه إلى سلوك معين لا يتصور منطقيًا إلا أن يكون سابقًا على السلوك ليمكن الحكم على السلوك بأنه مطابق أو مخالف للقانون، وهذا يعني أن ما يتضمنه القانون من "أمر" يتعلق بالمستقبل و لا يمكن أن يتناول الماضي.

ثانيًا: أن المصلحة العامة تفرض الأخذ بمبدأ عدم رجعية القوانين، لأن في سريان القانون على الماضي إهدارا للثقة بالقانون، وإخلالًا بالاستقرار الواجب للمعاملات، ولا يطمئن الناس إلى أفعال يأتونها رغم كونها مباحة ولا إلى التصرفات التي يبرمونها في ظل قانون معين لعدم تأكدهم من استمرار تطبيقه عليهم، ويؤدي إلى بعث القلق وتعطيل الأعمال وتقويض النظام في المجتمع.

ثالثًا: أن هذا المبدأ يستند إلى اعتبارات العدالة، لأنه من غير المعقول عدلًا أن يأتي الأفراد أفعالًا مباحة، ثم يصدر قانون جديد يجرم هذه الأفعال ويعاقب عليها ويطبق هذا القانون بأثر رجعي على الفعال السابقة عليه رغم أنها كانت مباحة وقت فعلها.

هل لهذا المبدأ استثناءات؟

لابد قبل الإجابة على هذا السؤال من بيان معناه، ألا وهو: هل تقرير مبدأ عدم رجعية التشريع إلى الماضي مطلق؟ أم أنه يرد عليه استثناءات؟

ذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى أن تقرير هذا المبدأ يرد عليه في التشريع الإسلامي استثناء مفاده: أن يطبق النص بأثر رجعي في الجرائم الخطيرة التي تمس الأمن والنظام العام.

وضربوا لذلك أربعة أمثلة، وفيما يلي مناقشة هذه الأمثلة حتى يتبين إلى أي مدى يمكن القول بوجود استثناءات على مبدأ عدم الرجعية.

أولا: القذف:-

تقررت عقوبة القذف بقوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾﴾[1]، وقد أنزل الله تعالى في السورة نفسها وبعد هاتين الآيتين براءة أم المؤمنين السيدة عائشة

(١) سورة النور / الآيتان ٤، ٥ .

رضي الله تعالى عنها وأرضاها مما رماها به أهل الإفك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ (١) .

والإشكال يأتي هنا في أيهما نزل أولًا؟ حد القذف؟ أم براءة السيدة عائشة؟

إن كان حد القذف قد نزل قبل حادثة الإفك فلا إشكال ولا يكون للنص حينئذ اثر رجعي، وإما إن كان حد القذف قد نزل بمناسبة حادثة الإفك فللنص أثر رجعي.

وقد اختار الشيخ عبد القادر عوده (٢) الرأي الأخير، ورجحه وانتصر له، وعلل له بقوله: "ويمكن أن يعلل الأثر الرجعي للنص بما ترتب على الحادث الذي نزل فيه النص من آثار هامة، فقد قذف جماعة زوج النبي ﷺ، وخاضوا في عرضها، وآذوها وآذوا النبي ﷺ بالإفك الذي قالوا؛ حتى اضطرب المجتمع الإسلامي اضطرابًا شديدًا؛ وكاد المسلمون يقتتلون.

وهذا الحادث الذي أهم المسلمين، وكاد يوقع الفتنة بينهم، والذي أنزل الله فيه قرآنا؛ هو حادث هام يمس أمن الجماعة ونظامها، وهو أحق ما يجعل للنص فيه أثر رجعي، لأن العقوبة في مثل هذا الحادث تدعو إلى تهدئة النفوس الثائرة ومحو ما خلفته الجريمة من آثار" (٣).

ولهذا السبب رجح لشيخ عبد القادر عودة الرأي القائل أن عقوبة القذف لها أثر رجعي، إذ طبقها النبي ﷺ علي مرتكبي حادثة الإفك بالرغم من أن النص ورد بعد الحادث، وقد نقل القول ورجحه دون أن يسنده أو يبين مصدره.

وقد عقب على ذلك الدكتور محمد سليم العوا بقوله: "ويبدو أن مصدر هذا القول وهم سبق على قائله من تتابع الآيات في سورة النور مبينة حد الزنا، فحد القذف، فأحكام اللعان، ثم قصة حديث الإفك وبراءة السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها.

---

(١) سورة النور / الآيات ١١: ٢٠ .

(٢) هو عبد القادر عودة: محام من علماء القانون والشريعة بمصر. كان من زعماء جماعة "الأخوان المسلمين" اتهم بالمشاركة في حادث إطلاق الرصاص على الرئيس جمال عبد الناصر وأُعدم شنقًا مع بضعة متهمين آخرين. وقد نفذ فيه هذا الحكم بالرغم من استنكار العالم الإسلامي الشعبي والرسمي له. من كتبه: "الإسلام وأوضاعنا القانونية"، و"التشريع الجنائي الإسلامي مقارنًا بالقانون الوضعي"، و"المال والحكم في الإسلام". الأعلام للزركلي ٤/ ٤٢ .

(٣) التشريع الجنائي الإسلامي مقارنًا بالقانون الوضعي ١/ ٢٦٦، ٢٦٧ بتصرف .

أن ما أوردته مراجع التفسير فهو أن ما نزل في شان السيدة عائشة هو العشر آيات التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ (١).

وبذلك فإن آيات حد القذف تكون منفصلة في النزول عن آيات براءة السيدة عائشة رضي الله عنها. وإذا تبين هذا، وأعملنا القواعد العامة التي ورد النص عليها في الآيات القرآنية والتي تبين أنه لا عقوبة إلا بعد سبق الإنذار والبيان، فإن الرسول ﷺ إذ عاقب قذفة السيدة عائشة، يكون قد عاقبهم على فعل وقع منهم بعد أن جرمه القرآن وقرر عقوبته.

ومما يدل على أن آية حد القذف نزلت قبل حديث الإفك، أن الأمر كان مصدر بلبلة في المدينة طالت مدتها حتى بلغت شهرًا، ورسول الله ﷺ مهموم مغتم، فالمعقول أن ينزل القرآن بتبرئة السيدة عائشة لا بحد القذف.

ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ﴾ (٢) الذي يفيد أن هذا الحكم كان مقررًا من قبل. ولو كانت آية حد القذف قد نزلت مع هذه الآية لما كان لذكر هذا معنى.

ويضاف إلى ذلك أن دعوى الرجعية هنا – وفي مثل تلك الحالة من حالات التشريع في العهد النبوي – لا تصح، لأن أحكام الإسلام نزلت متدرجة مع الحوادث. ولم تكمل إلا عند نزول آية سورة المائدة ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ (٣)، فالحادثة في – العهد النبوي – تقع تتطلب حكمًا، وينزل النص القرآني، أو يأتي الأمر النبوي بالحكم فيطبق عليها. وتطبيق الحكم علي الحادثة سبب النزول لا يقال عنه أنه من رجعية التشريع إلى الماضي. وإنما يقال ذلك لو طبق الحكم على حادثة وقعت قبل سبب النزول. وهذا لم يحدث أصلًا، بدليل أنه لما نزل تحريم الخمر سال قوم: ما بال الذين شربوها قبل ذلك ومات منهم من مات؟ فنزل

(١) سورة النور / الآيات ١١: ٢٠، راجع تفسير القرآن لابن كثير ٣/ ٢٨١ وما بعدها.
(٢) سورة النور / الآية ١٣.
(٣) سورة المائدة / الآية ٣.

قول الله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣) ﴾ " (١).

والذي أميل إليه هو ما ذهب إليه الدكتور محمد سليم العوا، وذلك لما ساقه من أدلة.

وعلى هذا فإن حد القذف لا يعد دليلًا على وجود استثناءات من مبدأ عدم رجعية التشريع إلى الماضي.

ثانياً: الحرابة:-

الحرابة، أو قطع الطريق، جريمة من جرائم الحدود في الشريعة الإسلامية، وقد بين القرآن الكريم حكمها في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٤) ﴾ (٢).

وقد ذهب الشيخ عبد القادر عودة إلى أن هذه الآية طبقت أحكامها بأثر رجعي وذلك بترجيح كونها نزلت في العرنيين (٣) حيث قال: "ولاشك أن المصلحة العامة هي التي اقتضت أن يكون للنص اثر رجعي، فقد كان حادث العرنيين فظيعًا، يوشك لو لم يؤخذ أصحابه بعقوبة رادعة أن يجري الناس على المسلمين، وعلى النظام الجديد، وأن يشجع على قطع الطريق، وزعزعة الأمن والنظام، فكان لابد من عقاب رادع على هذه الجريمة، ولكن العقاب الرادع يقتضى أن يُجعل للنص

(١) في أصول النظام الجنائي الإسلامي "دراسة مقارنة" ص٦٢، ٦٣ ، والآية رقم ٩٣ من سورة المائدة .

(٢) سورة المائدة / الآيتان ٣٣، ٣٤ .

(٣) وهم قوم من عرينة قدموا المدينة على رسول الله ﷺ فمرضوا ولم يطب لهم المقام بها، فأرسلهم رسول الله ﷺ إلى حيث كانت ترعى إبل الصدقة فشربوا من ألبانها وأبوالها فصحوا، ثم قتلوا رعاة الإبل وساقوها وارتدوا عن الإسلام، فبلغ ذلك النبي ﷺ فغضب وأرسل في أثرهم فلما جئ بهم قطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وتركهم في الحرة حتى ماتوا. صحيح مسلم كتاب القسامة باب حكم المحاربين والمرتدين ٣/ ١٢٩٦، ١٢٩٧، ١٢٩٨ حديث رقم ١٦٧١، ونحوه صحيح البخاري كتاب المغازي باب قصة عكل وعرينة ٥/ ١٢٩ .

أثر رجعي، لتقطع الألسنة وتهدأ الفتنة وتسكن النفوس الثائرة، فحفظ الأمن، وحماية الجماعة ونظامها هو الغرض الأول والأخير من جعل الأثر الرجعي للنص الجنائي " (١).

والصحيح في حكم هذه الآية أنها وإن نزلت في هؤلاء القوم فإنها نزلت بعد عقابهم (٢) . وأنها إنما نزلت لتبين عقاب مرتكبي جريمة الحرابة، وتنهى عن المثلي التي وردت في بعض هذه الروايات أنها ارتكبت في حق هؤلاء بسمل أعينهم ومنعهم الماء (٣) ، وقد ورد التصريح بذلك في الصحيح فعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: "إنما سمل النبي ﷺ أعين أولئك، لأنهم سملوا أعين الرعاة" (٤) .

وعلى هذا فإن آية الحرابة لم تطبق على هؤلاء، وإنما عاقبهم النبي ﷺ بمقتضى النصوص العامة التي توجب القصاص والمعاقبة بمثل الاعتداء كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ (٥) ، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ (٦) ، وقوله أيضًا: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ (٧) (٨).

ومن هنا يتبين لنا أيضًا أنه لم يكن ثمة أثر رجعي لتطبيق حد الحرابة.

ثالثًا: الظهار:-

الظهار أن يقول الرجل لزوجته أنت علي كظهر أمي، وقد كانت العرب في الجاهلية تجعل المرأة التي يظاهر منها زوجها محرمة عليه إلى الأبد فلا تعود إليه أبدًا، ومحرمة كذلك على غيره من الأزواج

(١) التشريع الجنائي الإسلامي مقارنًا بالقانون الوضعي ١/ ٢٦٨ بتصرف .

(٢) وقد صرح بذلك العلامة الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير ٦/ ١٨٠ حيث قال: "وكان هذا قبل أن تنزل آية المائدة" .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦/١٤٨ : ١٥٠ .

(٤) صحيح مسلم كتاب القسامة باب حكم المحاربين والمرتدين ٣/ ١٢٩٨ حديث رقم ١٦٧١ . ومعنى سمل أعينهم أي فقأها وأذهب ما فيها

(٥) سورة البقرة / الآية ١٩٤ .

(٦) سورة النحل / الآية ١٢٦ .

(٧) سورة الشورى / الآية ٤٠ .

(٨) في أصول النظام الجنائي الإسلامي "دراسة مقارنة" د/ محمد سليم العوا صـ٦٦، ٦٧ بتصرف، والمبادئ الشرعية في أحكام العقوبات في الفقه الإسلامي "بحث فقهي مقارن" د/ عبد السلام محمد الشريف صـ١٨٢ (رسالة دكتوراه منشورة) من الجامعة التونسية كلية الزيتونة للشريعة وأصول الدين سنة ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م .

فلا يجوز لأحد غيره أن يتزوجها، فتبقى المرأة المظاهر منها معلقة لا هي لزوجها، ولا يحل لغيره أن يتزوجها.

وقد أبطل الله سبحانه وتعالى هذا الحكم الذي كانت عليه العرب في الجاهلية، وجعل حكم الظهار هو امتناع الرجل عن أن يمس زوجته حتى يكفر عن ظهاره بواحدة من ثلاث خصال: تحرير رقبة، أو صيام شهرين متتابعين، أو إطعام ستين مسكينًا، وهذه الخصال هي المذكورة في النص القرآني الذي يبين حكم الظهار حيث قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ (١) .

ولا خلاف فيما أعلم حول سبب نزول هذه الآيات، فإن الإجماع منعقد على أنها نزلت في شأن أوس بن الصامت الذي ظاهر من زوجته خولة بنت ثعلبة، فجاءت تشكوه إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآيات (٢) .

وبناء على سبب النزول هذا ذهب الشيخ عبد القادر عوده إلى القول بأن عقوبة الظهار طبقت على واقعة حدثت قبل نزول النص فقال: "وإذا كانت عقوبة الظهار قد طبقت على أوس بن الصامت عن واقعة حدثت قبل نزول النص فمعنى ذلك أن آية الظهار لها أثر رجعي " (٣) .

أقول: إن الاستدلال بالظهار على رجعية التشريع إلى الماضي مطلقًا ليس صحيحًا، وإنما يصح الاستدلال به على تطبيق الحكم الأخف، فيعتبر الظهار ملغيًا أو ناسخًا للحكم الأشد، وذلك لأن في الحكم الجديد مصلحة عامة، بخلاف الحكم القديم الذي كان قائمًا ألا وهو التحريم المؤبد وهو حكم شديد على الرجل والمرأة معًا، فلما كان الحكم الجديد فيه مصلحة (أو في صالح المتهم كما يقول أهل القانون) عُمل به بأثر رجعي .

---

(١) سورة المجادلة / الآيات ٢: ٤ .

(٢) راجع: لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي صـ٢٦٤ ،أسباب النزول للواحدي صـ٢٣١، ٢٣٢ .

(٣) التشريع الجنائي الإسلامي مقارنًا بالقانون الوضعي ١/ ٢٧٠ .

يقول الدكتور محمد سليم العوا: "وظاهر من ذلك أن الحكم الذي شرعه القرآن الكريم في الظهار اخف من حكم الجاهلية فيه، وأن الرسول ﷺ إذ طبق هذا الحكم القرآني إنما خفف به على المظاهر وزوجته، ولا يمكن أن يستدل بالظهار وما نزل فيه من قرآن على رجعية التشريع إلى الماضي بإطلاق، وإنما يصح الاستدلال به على تطبيق الحكم الأخف باعتباره ملغيًا أو ناسخًا للحكم الأشد"(١) .

رابعًا: اللعان:-

وهو أيمان تجري بين الزوجين، وذلك بعد أن يرمي الزوج زوجته بالزنا دون أن يكون له شهود غيره على ذلك، والمقصود من اللعان أن يدرأ الزوج عن نفسه حد القذف إذ رمى زوجته بالزنا ولم يكن هناك شهود، وأن تدرأ الزوجة عن نفسها تهمة الزنا التي رميت بها.

وقد نزلت آيات اللعان حين اتهم أحد الصحابة وهو هلال بن أمية زوجته بالزنا فطالبه الرسول ﷺ بالبينة وهي أربعة شهود أو أن يقيم عليه حد القذف، فقد روى الحافظ ابن كثير (٢) بسنده عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما نزلت ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗا ﴾ (٣) قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: أهكذا أنزلت يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: **"يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم؟"** فقالوا: يا رسول الله لا تلمه، فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرًا، وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيرته، فقال سعد: والله يا رسول الله إني لأعلم إنها لحق وأنها من الله، ولكني عجبت أني لو وجدت لكاعًا قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه، حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله إني لا آتي بهم حتى يقضي حاجته، قال: فما لبثوا إلا يسيرًا حتى جاء هلال بن أمية، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، فجاء من أرضه عشاءً فوجد عند أهله رجلًا، فرأى بعينيه وسمع بأذنيه، فلم يهيجه حتى أصبح فغدا على رسول ﷺ فقال: "يا رسول الله إني جئت أهلي

(١) في أصول النظام الجنائي الإسلامي (دراسة مقارنة) ص٦٥ بتصرف، راجع مثل هذا الرأي الشيخ محمد أبو زهره في كتاب الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي ص٣٢٧ .

(٢) هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن زرع البصري، ثم الدمشقي الشافعي المعروف بابن كثير عماد الدين أبي الفداء، محدث مؤرخ مفسر فقيه، كانت وفاته سنة ٧٧٤هـ، من تصانيفه: "تفسير القرآن العظيم" و"البدايةوالنهاية" في التاريخ. معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٣/٣٨٣، ٣٨٤ .

(٣) سورة النور / الآية ٤ .

عشاءً فوجدت عندها رجلا فرأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره رسول ﷺ ما جاء به واشتد عليه واجتمعت عليه الأنصار، وقالوا: قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة، الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ويبطل شهادته في الناس، فقال هلال: والله إني لأرجو أن يجع الله لي منها مخرجًا؛ وقال هلال: يا رسول الله إني قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به والله يعلم إني لصادق، فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه إذ أنزل الله على رسوله ﷺ الوحي، فنزلت: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ ﴾ ...الآية (١).

ومن الواضح أن حكم اللعان إنما نزل تخفيفًا عن الأزواج الذين يرمون زوجاتهم بالزنا وليس لهم شهود على ذلك إلا أنفسهم. إذ أن الحكم الأصلي الذي كان يعمل به هو أن يجلد الزوج ثمانين جلدة شأنه شأن أي قاذف، فخفف الله تعالى هذا الحكم عن الأزواج بتشريع حكم اللعان، وبذلك يكون الاستدلال باللعان على رجعية التشريع إلى الماضي مطلقًا ليس صحيحًا، وإنما يصح الاستدلال به على تطبيق الحكم الأخف، فيكون اللعان ملغيًا أو ناسخًا للحكم الأشد شأنه في ذلك شأن الظهار، والخلاصة: أنه لما كان الحكم الجديد فيه مصلحة (أو في صالح المتهم كما يقول أهل القانون) عُمل به بأثر رجعي.

يقول الدكتور محمد سليم العوا: "إن تطبيق حكم اللعان على واقعة حدثت قبل نزول الآيات المقررة له يكون من باب تطبيق الحكم الأخف ولو كان تشريعه لاحقًا للواقعة التي يطبق في شأنها. وذلك ما يعرف في الفقه الجنائي الحديث برجعية القانون الأصلح للمتهم. وهذه القاعدة استثناء – مقرر في الكثير من النظم الجنائية الحديثة – من قاعدة عدم الرجعية في التشريع الجنائي. ومن ثم فإنه لا يمكن الاستناد على تطبيق حكم اللعان على واقعة حدثت قبل تشريعه، للقول بأن ثمة استثناء عرفته الشريعة الإسلامية يجيز تطبيق العقوبة المقررة بأثر رجعي وإنما يصح الاستدلال بتطبيقه على هذه الواقعة على جواز رجعية القانون الأصلح، سواء أكان مخففًا للعقوبة أم ملغيًا لوصف التجريم "(٢).

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٧٨، ٢٧٩. والآية رقم ٦ من سورة النور، ولفظ الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣٣/٤، ٣٤ حديث رقم ٢١٣١ . تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وأصل معناه في الصحيحين: انظر صحيح البخاري كتاب التفسير باب قوله تعالى "والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين" ١٠٠/٦، ١٠١ ، وصحيح مسلم كتاب اللعان حديث رقم (١٤٩٦) ١١٣٤/٢ ، وحديث رقم (١٤٩٩) ١١٣٦/٢ .

(٢) في أصول النظام الجنائي الإسلامي (دراسة مقارنة) صـ٦٤ بتصرف، راجع مثل هذا الرأي الشيخ محمد أبو زهره في كتاب الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي صـ٣٢٧ .

وبذلك تبقى القاعدة المقررة في التشريع الجنائي الإسلامي أنه ليس للتشريع أثر رجعي إلى الماضي إلا إذا كان ذلك يحقق مصلحة لمن تطبق عليه مثل هذه التشريعات، كما هو الحال في حكم الظهار واللعان.

يقول الدكتور محمد عبد المنعم القيعي: "ويكون للتشريع أثر رجعي إذا كان التشريع الجديد في صالح المتهم ولم يكن قد حكم عليه.

فالثلاثة الذين خلفوا اعتزلهم النبي ﷺ وأمر بمقاطعتهم. ثم نزل تشريع جديد بتوبة الله عليهم. وانتفعوا بهذا التشريع الجديد وأصبح له أثر يعمل به في الماضي قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [١] فالتشريع القديم كان يقضي بمقاطعة من تخلف عن الغزو كسلًا فجاءت الآية بالعفو عن هؤلاء حين شعروا بالندم.

وكذلك الظهار كان طلاقًا في الجاهلية فألغاه التشريع الجديد واعتبره حالة أصلح للمتهم من أن يعده عليه طلاقًا. ولا ريب أن عدم اعتبار الظهار طلاقًا فيه سعة للإنسان لكن عد الظهار طلاقًا فيه تضييق " [٢] .

***

(١) سورة التوبة / الآية ١١٨ .

(٢) نظرة القرآن إلى الجريمة والعقاب ص٩٤ .

الفصل الرابع
تطبيق بعض المبادئ القرآنية في علم النفس

تمهيد:

النفس الإنسانية بين المبادئ القرآنية والحضارة الغربية

لقد خلق الله تعالى الإنسان من مادة وروح، ووضع له من التشريعات ما تحفظ له توازنه من الناحيتين، ولكن الإصلاح يبدأ أولًا من نفس الإنسان وقلبه، لأن فيهما سر قوته، وهذا الإصلاح لن يتحقق إلا إذا كانت علاقة الإنسان بربه علاقة قوية، ولن يكون ذلك إلا إذا عرف الإنسان نفسه، بمعنى أن يجد لنفسه إجابات عن أسئلة مثل: من أنا؟ ولماذا جئت إلى هذا الوجود؟ وما هو دوري ومعنى حياتي في هذه الدنيا؟ وكيف سيكون مصيري بعد الموت؟ فإذا عرف الإنسان نفسه عرف ربه، وهنا يكمن سر السعادة، وهي أقصى ما ينشده كل إنسان.

وإذا نظرنا إلى الإسلام ومبادئه وإلى الحضارة الغربية وقيمها، ونظرة كل منهما إلى النفس الإنسانية وجدنا أن هناك فارقًا كبيرًا، وبونًا شاسعًا بينهما.

فالحضارة الغربية تهيئ للإصابة بالأمراض النفسية، وذلك لأن القيم التي تقوم عليها، ونظرتها للحياة لم تراع طبيعة الإنسان، ووظيفته ودوره في الحياة.

"فقد تحاشت الدراسات النفسية الغربية هذه الأسئلة وأمثالها بدعوى أنها من مباحث الفلسفة التي لا ينبغي أن يخوض فيها علم النفس. وأن علم النفس معني ببحث الواقع النفسي الذي يجده أمامه، غير ناظر إلى أي هدف آخر خارج نطاق هذا البحث، فأدى هذا إلى عيبين كبيرين:

١. أنه جعل هذه الدراسات على غير وعي كامل بالإنسان الذي يعيش واقع هذه الحياة، مما أدي إلى إعطاء صورة خاطئة ومشوهة عن الإنسان.

٢. أنه جعل هذه الدراسات لا تميز كثيرًا بين الحالات السوية والحالات المنحرفة، لأنها فقدت المقياس التي ترجع إليه لمعرفة الاستواء والانحراف، وعاملت كل شيء على أن هو الواقع النفسي

الذي تستخلص منه النظريات والتطبيقات، ومن ثم صار الواقع المنحرف الذي يعيشه الناس في الغرب في القرين التاسع عشر والعشرين هو المقياس الذي تقاس به النفس الإنسانية، وتصاغ النظريات على أساسه، وهو الصورة الطبيعية السوية التي يتعامل معها العلماء" (١).

وبما أن الحضارة الغربية لم تقدم صورة كاملة وطبيعية عن الإنسان وطبيعته، وكما أنها فقدت المقياس الذي تعرف به الاستواء والانحراف حتى إنها لا تميز كثيرًا بين الحالتين، فإنها لم تستطع أن تسعف الإنسان على مواجهة ومقاومة مشاكل الحياة في مراحلها المختلفة.

"فالمشكلة في البلاد الغربية المتقدمة لم تعد نقصًا في الغذاء أو الدواء، بل أصبحت المشكلة هي فقدان المعنى والهدف، وذلك بسبب التصور الخاطئ الذي يحمله الشخص عن نفسه، وعن وظيفته في الكون، ومعنى حياته" (٢) .

فصار القلق هو الطبيعة التي يعيشها الإنسان في الغرب برغم التقدم المادي والحضاري الملموس الذي لم يحقق للإنسان الصحة النفسية.

"فالإنسان العصري قلق، ولو كان في زمن السلم، وفي جو البحبوحة الاقتصادية؛ لأن عالم التكنولوجي الذي يشكل محيطه المباشر، والذي فصله عن عالم الطبيعة الذي تطور فيه أصلًا، فشل في توفير حاجات الإنسان الأساسية التي لم تتغير ولم تتبدل" (٣) ، فالتقدم التكنولوجي لم يلعب أي دور في التخفيف من هذه الأزمة بل "إن الاعتقاد بأن العلم قادر على حل أكثر المشاكل العملية أمر يكذبه الوعي المتزايد بأن تكنولوجيا العلم تثير مشاكل جديدة في محاولاتها لحل مشاكل قديمة" (٤).

ومما سبق يتضح لنا أن أصل المشكلة في الحضارة الغربية أنها توجه اهتمامها إلى التقدم المادي المحسوس وإغفال الجانب الروحي، مع أن القوى المادية والنمو الاقتصادي لا يؤدي بالضرورة إلى السعادة التي ينشدها الإنسان.

---

(١) دراسات في النفس الإنسانية. محمد قطب صـ١٣ ، ١٤ بتصرف .

(٢) التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية [البحث في النفس الإنسانية والمنظور الإسلامي] د/ محمد عز الدين توفيق صـ٣٢٦ بتصرف .

(٣) إنسانية الإنسان [نقد علمي للحضارة المادية] رينيه دوبو. تعريب: نبيل صبحي الطويل صـ٤٩ .

(٤) المرجع السابق صـ٢٢٠ .

لذلك فليس بغريب ما نقرأه من الأرقام التي تنشر عن استهلاك الأدوية المهدئة، وارتياد المستشفيات والعيادات النفسية في الغرب، وذلك بسبب جو القلق العام الذي يعيشونه [١].

***

(١) "في بريطانيا يدخل ما يقرب من مائة وسبعين ألف مريض إلى المستشفيات لصنوف شتى من الأمراض العقلية" عالم الأحياء والأيدولوجيا والطبيعة البشرية. ستيفن روز وآخرون ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي مراجعة محمد عصفور سلسلة عالم المعرفة رقم ١٤٨ رمضان ١٤١٠هـ أبريل ١٩٩٠م .
"استهلكت فرنسا سنة ١٩٨٢م أكثر من مليون علبة دواء من المنومات والمهدئات، وفي أمريكا هناك وصفة واحدة لدواء مهدئ لأعصاب من كل أربع وصفات طبية عادية" من علم النفس القرآني. د/ عدنان الشريف صـ٦١ .
"وفي إحصائيات فرنسية لعام ١٩٨٦م هناك سبعة عشر ألف حادثة إنتحار ناجحة بين المراهقين فقط" المرجع السابق صـ١٧٧ .

تطبيق مبدأ الإيمان هداية للقلوب في علاج القلق النفسي

للدين دور مهم في تحقيق الصحة والسعادة النفسية، والمراد بالدين إنما هو الدين الحق، دين الإسلام، ودائمًا ما نرى القرآن الكريم يربط بين الإيمان بالله تعالى واتباع هداه وبين هداية القلوب والسعادة النفسية فيقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ (١)، وقال سبحانه أيضًا: فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢)، وقال تعالى أيضًا: فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى(٣)، والإيمان الذي نقصده هو الإيمان بمفهومه الواسع الذي يشمل الإيمان بالله تعالى، وخشيته وتقواه، والتزام حدوده وأوامره، واجتناب معاصيه ونواهيه، وكذلك الإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وقضائه وقدره حلوه ومره، وإقامة شعائر دينه من صلاة وزكاة وصيام وحج، وذكر الله تعالى، فإن الإيمان بهذا المفهوم الواسع هداية للقلوب، هذا مما لا شك فيه.

وقد كان عيبًا على الحضارة الغربية الحديثة إهمال جانب الدين في مجال الدراسات النفسية، واعتبار ذلك مما ليس له علاقة بعلم النفس، مما أدى إلى قصور كبير في علاج الحالات المرضية، وعدم تحقيق السعادة النفسية للأفراد والمجتمعات.

"ولكن بدأت تظهر حديثًا اتجاهات بين علماء النفس تنادي بأهمية الدين في الصحة النفسية في علاج الأمراض النفسية، وترى أن في الإيمان بالله قوة خارقة تمد الإنسان المتدين بطاقة روحية تعينه على تحمل مشاق الحياة، وتجنبه القلق الذي يتعرض له كثير من الناس الذين يعيشون في هذا العصر الحديث الذي يسيطر عليه الاهتمام الكبير بالحياة المادية ويسود التنافس الشديد من أجل الكسب المادي، والذي يفتقر في الوقت نفسه إلى الغذاء الروحي، مما جعل الإنسان عرضة للإصابة بالأمراض النفسية" (٤).

والقلق الذي نتحدث عنه هو القلق المرضي لا القلق الطبعي، "فالقلق الطبعي قد يسبق أو يصاحب أو يتبع لبعض الوقت المواقف التي يتعرض لها الإنسان في ذاته لخطر حقيقي" (٥).

---

(١) سورة التغابن / الآية ١١ .

(٢) سورة البقرة / الآية ٣٨ .

(٣) سورة طه / الآية ١٢٣ .

(٤) أثر القرآن في الأمن النفسي. ناهد عبدالعال الخراشي صـ١٢٧ بتصرف .

(٥) من علم النفس القرآني. د/ عدنان الشريف صـ٦٣ مع التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية [البحث في النفس الإنسانية والمنظور الإسلامي] د/ محمد عز الدين توفيق صـ٣٨٧ بتصرف .

أما القلق المرضي فهو بخلاف القلق الطبيعي، وسوف نتحدث عن تعريف القلق المرضي، وأسبابه، وأعرضه، وعلاجه فيما يلي:

تعريفه:

هو حالة شعورية بالضيق مصحوبة بتغيرات فسيولوجية داخلية بسبب الخوف من شيء مجهول، أو توقع خطر غير معروف (١) ، إذن فالقلق انفعال الخوف، فأصل القلق الخوف من المجهول بدون أي سبب ظاهري منطقي مقبول ومعقول.

أسبابه:

وهناك عدة أسباب تعد مسئولة عن حدوث القلق بصورته المرضية من أهمها (٢) :

١- الاستعداد الوراثي الذي تفرضه العوامل الوراثية، وقد تشترك معها العوامل البيئية والظروف المحيطة بالشخص.

٢- الاستعداد النفسي لدى الشخص الذي يساعد على إظهار المرض .

٣- التعرض للخبرات (التجارب) الانفعالية الحادة، كالأزمات والصدمات والإخفاقات التي يتعرض لها الشخص في حياته سواء في الطفولة أو المراهقة أو الشيخوخة وتحد من طموحاته وتحول بينه وبين رغباته.

٤- الشعور بالذنب والخوف من العقاب نتيجة تصرفات منصوص على عقوبتها إما في الدين أو القانون.

٥- الصراع بين الدوافع والميول والعجز عن الجمع أو الترجيح بينهما.

٦- الشعور بالعجز عن تفسير الوجود، والإحساس بتفاهة الحياة وفقدان المعنى والهدف.

أعراضه:

هناك أعرض جسمية وأخرى نفسية للقلق، أما الجسمية: فتتمثل في برودة الأطرف، وتصبب

---

(١) المرجع السابق صـ٦٦، مع التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية [البحث في النفس الإنسانية والمنظور الإسلامي] د/ محمد عز الدين توفيق صـ٣٨٧ بتصرف .

(٢) علم النفس المعاصر في ضوء الإسلام. د/ محمد محمود محمد صـ٣٨٨، مع التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية [البحث في النفس الإنسانية والمنظور الإسلامي] د/ محمد عز الدين توفيق صـ٣٨٨، ٣٨٩ بتصرف .

العرق، واضطرابات المعدة، وسرعة ضربات القلب، واضطراب النوم، والشعور بالصداع، وفقدان الشهية، واضطراب التنفس، وأما النفسية: فهي الخوف الشديد، وتوقع الأذى والمصائب، وعدم القدرة على تركيز الانتباه، وعدم الثقة بالنفس، والرغبة في الهرب عند مواجهة أي موقف من مواقف الحياة [(١)].

علاجه:

فيما يلي سوف أذكر العلاج الطبي والنفسي لعلاج القلق، ثم أعقبه بذكر العلاج الروحي في ضوء مبادئ القرآن الكريم حتى يتضح الأمر.

فالعلاج الطبي للقلق يكون في الحالات المرضية الشديدة بإعطاء المريض علاجًا عاجلًا عن طريق المهدئات أو المنومات، ويراعى عند وصفها آثارها السلبية من الإدمان أو الاعتياد [(٢)] .

أما العلاج النفسي فيكون بتحليل الأسباب الحقيقة التي أدت إلى القلق ... الشخص المريض وإسعافه بالأفكار البناءة التي يدفع بها تلك الأسباب، ويخفف بها من القلق الناشئ عنها، فيقو الشخص المعالج بإقامة علاقة إيجابية مع المريض حتى يتمكن من التعبير له عن نفسه ومشاكله، ثم يقوم المعالج بتقديم المشورة النفسية اللازمة له، مع مراعاة اختلاف المشورة باختلاف سبب القلق[(٣)] .

وأما العلاج الروحي في ضوء مبادئ القرآن الكريم فيكون من خلال الرجوع إلى الله تعالى، وتحقيق الإيمان به بمفهومه الواسع الشامل، فالإيمان بالله تعالى يعد أحد القوى التي يعيش المسلم بواسطتها، لما له من أثر عظيم في نفسه، فهو يزيد من ثقته بنفسه، ويزيد من قدرته على الصبر وتحمل مشاق الحياة، ويبث الأمن والطمأنينة في النفس، ويؤدي إلى راحة البال، ويغمر الإنسان شعورًا بالسعادة.

وهناك نماذج واقعية قام بعض علماء النفس المسلمين بعلاجها عن طريق العلاج الروحي الإسلامي، يقول الدكتور مالك بدري: "لقد وجدت دائمًا أن إيمان مرضاي بالإسلام يقدم عونًا

---

(١) علم النفس المعاصر في ضوء الإسلام. د/ محمد محمود محمد ص٣٨٨، ٣٨٩ بتصرف .

(٢) التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية [البحث في النفس الإنسانية والمنظور الإسلامي] د/ محمد عز الدين توفيق ص٣٩٠ بتصرف .

(٣) المرجع السابق ص٣٩١ بتصرف .

كبيرًا في علاجهم. وقد أحيلت إليَّ مريضة مغربية في سنة ١٩٦٥م إلى قسم الطب النفسي العصبي في المستشفي التعليمي لجامعة الرباط، وكانت تشكو من عدد من الأشياء، من بينها القلق العام، ومشاعر بعدم التكيف والاكتئاب..... وقد أدخلت المستشفى مرتين على مدى عام تقريبًا..... ولكنها لم تحصل على فائدة سواء من العلاج التقليدي، أو العلاج النفسي الحديث للأفراد والجماعات، أو من الحبوب المهدئة، وفي إحدى الجلسات الجماعية كنت أقوم بتلاوة سورة من القرآن الكريم حول غفران الذنوب كتدعيم معنوي لأحد المرضى الذكور الذي كان في سبيله إلى مغادرة المستشفى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ ﴾[1]، فإذا بها قد استجابت لذلك بانفعال غير متوقع، وانهمرت دموعها، وبعد ذلك طلب مني رئيس المعالجين النفسيين أن أتولى علاجها، وداومت على تلاوة الآيات القرآنية التي تتناول مسألة غفران الله لجميع الذنوب، وشرحت لها جميع ذلك في لغة مبسطة، وقد كانت تلك بداية لتحسن سريع للغاية"[2].

ومما سبق يتضح لنا أن للإيمان بالله تعالى، والقيام بشعائره دورًا كبيرًا جدًا في تخفيف القلق النفسي وعلاجه أصلًا.

ومن أهم الأسباب التي تؤدي بالشخص إلى القلق، القلق على أمر الرزق،والقلق على الحياة؛ أما الرزق فعلى المؤمن الصادق أن يعلم أن رزقه بيد الله تعالى وحده، وأنه سبحانه وتعالى قد قسم الأرزاق بين الناس، فأعطى لكل واحد رزقه وهو مازال جنينًا في رحم أمه، ومن ثم فهو لا يخاف الفقر، فقد ضمن الله تعالى له ولكل نفس على وجه الأرض الرزق، فقال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ ﴾[3]، وأما الموت فإن

---

(١) سورة آل عمران / الآيات ١٣٣: ١٣٥ .

(٢) بحث بعنوان: علماء النفس المسلمون في جحر الضب. د/ مالك بدري صـ١٠١، ١٠٢ بتصرف، وهو بحث مترجم قامت بترجمته ونشره مجلة المسلم المعاصر في العدد السادس عشر. شوال – ذو القعدة – ذو الحجة ١٣٩٨هـ أكتوبر – نوفمبر – ديسمبر ١٩٧٨م .

(٣) سورة هود / الآية ٦ .

المؤمن الصادق يعلم أن الموت حقيقة لا مفر منها، وأن لكل أجل كتابًا يقول الله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ (١)، وقال سبحانه وتعالى أيضًا: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ (٢)، ولذلك فهو ليس قلقًا على حياته، لأن الموت سيأتيه لا محالة، والأجل لا يعلمه إلا الله تعالى.

وبالإضافة إلى ذلك فقد يكون للقلق أسباب أخرى كالتساؤل عن غاية الحياة ومصير الإنسان بعد الموت وحكمة خلق المخلوقات، فيكون العلاج الروحي مركزًا على الهدف من الحياة والخلق، وأنهم لم يخلقوا عبثًا، قال الله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ (٣)، وأن هناك يومًا آخر سوف يرجع فيه الخلق لخالقهم فيجازيهم على ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (٤).

كذلك فإن ممارسة شعائر الإيمان كذكر الله تعالى والصلاة والدعاء لها دور كبير في تخفيف القلق وعلاجه.

"فإن للصلاة تأثيرًا كبيرًا فعالًا في علاج الإنسان من الهم والقلق، فوقوف الإنسان في الصلاة أمام ربه في خشوع واستسلام وفي تجرد كامل من مشاغل الحياة ومشكلاتها يبعث في النفس الهدوء والسكينة والاطمئنان، ويقضي على القلق وتوتر الأعصاب الذي أحدثته ضغوط الحياة ومشكلاتها"(٥) .

وقد انتبه بعض علماء النفس الغربيين إلى أهمية الإيمان في علاج القلق، وكان أول من نادى بذلك الفيلسوف وعالم النفس الأمريكي وليم جيمس حيث قال: "إن أعظم علاج للقلق ولا شك هو الإيمان"، وقال أيضًا: "الإيمان من القوى التي لابد من توافرها لمعاونة المرء على العيش، وفقدها

(١) سورة آل عمران / الآية ١٨٥ .

(٢) سورة النساء / الآية ٧٨ .

(٣) سورة المؤمنون / الآية ١١٥، ١١٦ .

(٤) سورة يونس / الآية ٤.

(٥) الحديث النبوي وعلم النفس. د/ محمد عثمان نجاتي صـ٣١٥ .

نذير بالعجز عن معاناة الحياة"، ويقول أيضًا: "إن بيننا وبين الله رابطة لا تنفصم، فإذا نحن أخضعنا أنفسنا لإشراقه سبحانه وتعالى تحققت كل أمنياتنا وآمالنا" (١).

وهذه الكلمات صادرة عن عالم نفس كبير تجمع كلها على أهمية الإيمان بالله، وأنه العامل الوحيد لبث الثقة في النفوس، والاطمئنان في القلوب، وأنه الدافع القوي لاقتحام الحياة، والسبب المباشر للتغلب على القلق.

ومما سبق يتضح لنا أن للإيمان دورًا مهمًا جدًا في علاج القلق خاصة، وفي تحقيق السعادة النفسية بصفة عامة، "فهو يقوي المناعة النفسية للإنسان، لأنه يقدم له تصورًا للحياة يجعله يصبر على البلاء، ويشكر على النعماء، ويرضى بالقضاء، فأمره كله له خير، إن أصابته نعماء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، وهذا لا يعني أبدًا عدم مواجهة مشاكل الحياة بما يناسبها من الوسائل والحلول، ولذلك لم يقل أحد من العلماء بترك العلاج والاعتماد في مواجهة الأمراض والمشكلات على ما في القلب من إيمان، بل جعلوا التداوي من التوكل على الله، ومن أسباب الشفاء، وهذا لا ينافي الإيمان بل يصدقه ويؤيده" (٢).

وأخيرًا فإن الإيمان بالله هو الركيزة الأساسية لكل علاج نفسي، والدعامة الجوهرية للشفاء من القلق، وسائر الأمراض والاضطرابات النفسية، وهو الشرط الأول لتحقيق الصحة النفسية والتوازن الروحي لدى الأفراد، فالإيمان بالله هو خير سند للمرء على تقلبات الأيام، وهو الذي يعينه كثيرًا على الثبات فيما يواجهه من مشكلات ومحن، ويضفي عليه الكثير من الاطمئنان والهدوء الروحي.

***

(١) دع القلق وأبدأ الحياة. ديل كارينجي. تعريب: عبد المنعم محمد الزيادي صـ٢١٩، ٢٢٦، ٢٣١ بالترتيب على التوالي.

(٢) التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية [البحث في النفس الإنسانية والمنظور الإسلامي] د/ محمد عز الدين توفيق صـ٣٣٩ بتصرف.

تطبيق مبدأ
"وعسى أن تكرهوا شيئًا هو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم"
في علاج الاكتئاب

لقد خلق الله تعالى الإنسان شديد الجزع، قليل الصبر عند المكروه، فقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (١)، والمعنى: أن الإنسان مخلوق قليل الصبر، شديد الحرص، فإذا مسه الضر والبلاء كان كثير الجزع مع قلة صبره، وإذا مسه الخير كان منوعًا لما في يده، بخيل به لشدة حرصه (٢).

وهذه هي طبيعة الإنسان التي أخبر الله تعالى عنها، من أنه شديد الجزع لقلة صبره، فإذا نزل به مكروه سارع إلى الجزع بدون أن ينظر إلى الحكمة من هذا المكروه ويتدبر فيها، فلعل وراء هذا المكروه خير كثير مخبوء لا يعلمه إلا الله تعالى، فنفس الإنسان مطبوعة على حب الخير النافع، وكره الشر الضار، لكن الإنسان بطبيعته القاصرة لا يعلم حقيقة الخير والشر فيما تأتي به المقادير، فقد يكره شيئًا فيه من الخير الكثير، وقد يحب شيئًا لا يأتي من ورائه إلا الشر.

والإنسان عندما يحصل له مكروه، أو يحرم من أمر محبوب، ترى في وجهه الحزن والضجر والاكتئاب، وعدم النظر في الحكمة من قضاء الله تعالى وقدره، والقرآن الكريم يبين لأتباعه حقيقة الأمر ويعطي لهم الدواء الشافي منه، فيقول الله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (٣).

وعندما نتحدث عن علاج الاكتئاب في ضوء مبادئ القرآن الكريم، لابد وأن نفرق أولًا بين الاكتئاب الطبعي، والاكتئاب المرضي، فالاكتئاب الطبعي هو الذي تكون عوارضه خفيفة، ولا تستمر كثيرًا، أما المرضي فهو الحزن الذي يدوم ويتحول إلى حالة مزمنة.

يقول الدكتور عدنان الشريف: "يشعر كل إنسان لدى فقدانه لشيء عزيز عليه بنوع من الإحباط

---

(١) سورة المعارج / الآيات ١٩: ٢٢.

(٢) محاسن التأويل للعلامة القاسمي ١٦/ ٢٨٨ بتصرف.

(٣) سورة البقرة / الآية ٢١٦.

(الاكتئاب) ننعته بالطبيعي وليس المرضي، وهو عملية مقاومة نفسية يستطيع من خلالها الإنسان تخطي صعوبات عرضية، والمسلم الذي فهم دينه، وعقل معنى وهوية المصيبة من الزاوية الإسلامية لا يعرف من الإحباط النفسي إلا الإحباط الطبيعي الذي تبقى عوارضه لبضعة أيام أو أسابيع على الأكثر، علمًا أن هذه العوارض خفيفة وليست مزعجة كعوارض الإحباط النفسي المرضي، يقول الله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١) ، فالرسول عليه الصلاة والسلام حزن حزنًا طبيعيًا عند موت زوجه أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، وعند موت عمه أبي طالب، وعند موت ابنه إبراهيم؛ ففي الصحيح أن رسول الله ﷺ دخل على ابنه إبراهيم وهو يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وأنت يا رسول الله؟ فقال: "**يا ابن عوف إنها رحمة**" ثم أتبعها بأخرى فقال: "**إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**"(٢).

وكذلك كان حزن سيدنا يعقوب حزنًا طبيعيًا على فراق ولده يوسف عليه السلام، وإن كان هذا الحزن قد طالت مدته لدرجة أن الحزن أفقده بصره ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾(٣)، إلا أنه لم يقنط من رحمة الله ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾(٤)، فاليأس من الحياة لا وجود له عند كل مؤمن عقل هوية المصيبة في القرآن الكريم " (٥) .

ولكن الاكتئاب المرضي هو بخلاف الطبعي، وسوف نتحدث عن تعريفه، وأسبابه، وأعرضه، وعلاجه فيما يلي (٦):

---

(١) سورة الحديد / الآيتان ٢٢، ٢٣ .

(٢) صحيح البخاري كتاب الجنائز باب قول النبي ﷺ وإنا بك لمحزونون ٢/ ٨٣ .

(٣) سورة يوسف / الآيات ٨٤: ٨٦ .

(٤) سورة يوسف / الآية ٨٧ .

(٥) من علم النفس القرآني صـ١٨١، ١٨٢ بتصرف .

(٦) التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية [البحث في النفس الإنسانية والمنظور الإسلامي] د/ محمد عز الدين توفيق صـ٣٩٦ بتصرف .

تعريفه:

هو في أصله حزن، فهو الحالة المرضية لانفعال الحزن، أي عندما يتحول الحزن إلى حالة مزمنة من البؤس والتشاؤم والعجز فهو اكتئاب.

أسبابه:

وأسباب الاكتئاب النفسي هي أسباب الاضطرابات النفسية عمومًا:

استعداد وراثي عام، وضغوط بيئية، فالأزمات المتلاحقة، وموت الأقارب والأحباب، وظروف الفقر وسوء الأحوال المعيشية، والأمراض المزمنة، والكوارث والمصائب، ومشاعر الذنب، كلها تفرز حالة من الكآبة إذا لم تجد لدى الشخص مناعة نفسية ذاتية اكتسبها من أفكاره عن الحياة بصفة عامة، وتفسيراته الإيجابية للمشاكل التي حصلت له فيها بصفة تفصيلية.

أعراضه:

وللاكتئاب النفسي أعراض نفسية وجسمية:

أما النفسية فتدور حول الشعور بالحزن والتعاسة، وعدم الثقة بالنفس، مع إحساس بالخوف والضيق وعدم التحمل.

وأما الجسمية فمنها الصداع، والأرق، والأحلام المزعجة، والانهيار.

علاجه:

فيما يلي سوف أذكر العلاج الطبي والنفسي لعلاج الاكتئاب، ثم أعقبه بذكر العلاج الروحي في ضوء مبادئ القرآن الكريم حتى يتضح الأمر.

فالعلاج الطبي للاكتئاب يكون باستعمال مضادات الاكتئاب وهي تساهم في رفع الأعراض بجانب العلاج النفسي.

أما العلاج النفسي فيكون بالبحث في الأسباب التي أدت إليه، وتوجيه المريض بنفسه أو بمعونة غيره إلى تعديل الأسباب الخارجية التي أدت إلى المشكلة، أو تعديل أفكاره عنها وأسلوب تعامله معها، فيقوم الشخص المعالج بتحليل أسباب الكآبة للشخص المريض،وتغيير نظرته المتشائمة.

وأما العلاج الروحي الإسلامي في ضوء مبادئ القرآن الكريم فيكون من خلال التركيز على النظرة الإسلامية للمصائب والابتلاءات، وأنها قد تكون خيرًا للمؤمن.

"فالمصيبة قد تكون لخير الإنسان، ولكن عدم معرفته بالغيب وبما يكون عليه المستقبل يجعله يثور ويعترض على الواقع، ويعجز عن فهم معنى البلية، ولكن المؤمن عندما ينظر بعين البصيرة إلى أي مصيبة حلت به أو بغيره، ويتفهمها في ضوء المقاييس القرآنية سوف تطمئن نفسه إلى مصيرها حاضرًا ومستقبلًا، ويبتعد عنها القلق والخوف والاكتئاب والثورة ضد الذات والغير والقدر" (١).

وقد ضرب لنا القرآن الكريم أمثلة توضح لنا أبواب الخير المحبوب المستترة وراء ما نظنه ونحسبه من الشر المكروه.

"ففي حوار موسى عليه السلام مع العبد الصالح في سورة الكهف (٢) وفي الأحداث التي وقعت وتكرر بصورة مختلفة في حياتنا من المعاني التي لو فهمها الإنسان لشكر الله تعالى وحمده على بلائه.

لقد عجز منطق سيدنا موسى عليه السلام، وهو كليم الله ونبي من أولي العزم، أن يفهم الحكمة من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار وكذلك أصحاب السفينة ووالدي الغلام، أما عندما تتكشف الحجب عن الحقيقة ويعلم أصحاب السفينة أنهم كانوا سيفقدون مصدر رزقهم لو لم يعبها العبد الصالح لأنه كان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا، فسيقولون الحمد لله على هذا الضرر الذي كان لخيرنا، وكذلك بالنسبة إلى موت الفتى، إذ كان موته رحمة له فقد دخل الجنة، إذ قتله العبد الصالح قبل أن يبلغ سن الحساب، ورحمة بوالديه المؤمنين والذي كان سيرهقهما طغيانًا وكفرًا، فكم من الآباء من الذين علقوا كل آمالهم في الحياة على ولد فخيب آمالهم وكان عدوًا لهم، يتمنون لو أن قصة سيدنا موسى عليه السلام والعبد الصالح والغلام حصلت معهم" (٣).

لذلك ينبغي على المسلم ألا يجعل المعيار على ما يضره وينفعه الميل والحب أو البعد والكره، بل المعيار على ذلك كله ما اختاره الله تعالى له، فكما قيل: من اعتمد على حسن اختيار الله له لم يرض بغير ما اختاره الله له، فقدر الله تعالى لا يأتي إلا بالخير، فقد يكون فيما يتوهمه الإنسان من صلاح وخير له مما يحبه ويتمناه، قد يكون وبالًا عليه فيما قد يجره عليه من متاعب ومكاره، فلا يبقى له إلا أن يسلم زمام أموره إلى خالقه تبارك وتعالى.

(١) من علم النفس القرآني. د/ عدنان الشريف صـ١٣١، ١٣٢ بتصرف.

(٢) الآيات ٦٦: ٨٢.

(٣) من علم النفس القرآني. د/ عدنان الشريف صـ١٣١، ١٣٢ بتصرف.

ومما سبق يتضح لنا أن فهم الإنسان لمعنى المصيبة من الزاوية الإسلامية، ورضاه بقدر الله تبارك وتعالى وقضائه له، يشكلان الحاجز الوقائي لنفسه من الاكتئاب.

"فالمصائب وإن كانت تؤلمنا وتؤذينا وتحرمنا، ففيها خير عاجل وآجل، لا يدركه المصاب بها، قال الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [١] .

فالمؤمن يجد في المصائب والنوازل دليلًا على حب الله له فيرضى بها ويقبلها، فعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: "**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم فمن رضي له الرضا ومن سخط فله السخط**" [٢] .

فمن يدرك هذا المعنى ويعيه يجتهد في ترضية نفسه بالمصائب والنكبات، ويستقبلها بفرح واستبشار، ويطرد عن نفسه السخط والجزع" [٣].

والحديث عن علاج الاكتئاب في ضوء المبدأ القرآني "وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم" هو حديث عن الاكتئاب الذي يكون سببه حدوث مكروه، أو حرمان من أمر محبوب فحسب، وذلك لأن للاكتئاب أسبابًا أخرى كثيرة لم أتعرض لذكرها تفصيلًا؛ لأن علاجها ليس داخلًا تحت المبدأ القرآني.

ومن أمثلة ذلك أن الاكتئاب قد يحدث بسب ذنب اقترفه الإنسان، فيكون علاجه عن طريق التوبة والاستغفار، والحرص على فعل الحسنات التي تكفر السيئات، من صلاة وصيام وزكاة وحج وعمرة إلى غير من مكفرات الذنوب.

***

---

(١) سورة البقرة / الآية ٢١٦ .

(٢) سسنن الترمذي كتاب الزهد باب ما جاء في الصبر على البلاء ٦٠١/٤ حديث رقم ٢٣٩٦ وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. نحوه سنن ابن ماجة كتاب الفتن باب الصبر على البلاء ١٣٣٨/٢ حديث رقم ٤٠٣١ .

(٣) تنمية الصحة النفسية مسئوليات الفرد في الإسلام وعلم النفس. د/ كمال ابراهيم موسى. بحث ضمن أبحاث ندوة علم النفس التي نظمها المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالاشتراك مع الجمعية العربية للتربية الإسلامية. القاهرة سنة ١٩٨٩م صـ٢٦٧ .

تطبيق مبدأ "من يبخل فإنما يبخل عن نفسه" في علاج البخل والشح

البُخْل، والبَخْل بالفتح، والبَخَل بفتحتين كله بمعنى واحد (١) ، وهو في الشرع منع الواجب، وعند العرب منع السائل مما يفضل عنده (٢) ، أو هو إمساك المال عما لا يصح حبسه عنه (٣) ، والبَخْل والبُخول ضد الكرم (٤)

أما الشح فهو البخل مع حرص (٥) ، أو هو الضن بالشيء والحرص عليه (٦) ، والشح أشد البخل، وهو أبلغ في المنع من البخل، وقيل: البخل في أفراد الأمور وآحادها والشح عام؛ وقيل: البخل بالمال، والشح بالمال والمعروف (٧) .

إذن فالشح أعم من البخل، وهو أقصى درجاته، والبخل أثر من آثار الشح.

والإنسان بفطرته ونزعته الطبيعية شغوف بالتملك، يحب المال حبًا جمًا ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ (٨)، ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ (٩) ، وهذا الحب كثيرًا ما يؤدي إلى الشح والبخل وقد أشارت إلى ذلك الآية الكريمة ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ۝١٠٠﴾ (١٠).

والشح والبخل من الأمراض النفسية الاجتماعية، "وتنشأ من غريزة حب التملك، وبفعل التربية البيئية أو المدرسية الخاطئة أو الظروف الاجتماعية الظالمة" (١١).

---

(١) مختار الصحاح للشيخ الرازي مادة: (بخل) صـ٤٢ .

(٢) المصباح المنير للعلامة الفيومي ١/ ٣٨ .

(٣) الموسوعة القرآنية الميسرة. إبراهيم الإبياري. الجزء الثالث: المعجم القرآني صـ٣٣ .

(٤) لسان العرب لابن منظور مادة: (بخل) ١/ ٣٣٢ .

(٥) مختار الصحاح للشيخ الرازي مادة (شحح) صـ٣٣١ .

(٦) الموسوعة القرآنية الميسرة. إبراهيم الإبياري. الجزء الثالث: المعجم القرآني صـ١٧٧ .

(٧) لسان العرب لابن منظور مادة (شحح) ٧/ ٤٢ .

(٨) سورة الفجر / الآية ٢٠ .

(٩) سورة العاديات / الآية ٨ .

(١٠) سورة الأسراء / الآية ١٠٠ .

(١١) من علم النفس القرآني. د/ عدنان الشريف صـ٩٠ .

"فعقدة الحرمان العاطفي تتولد منها عقدة البخل وعقدة الخوف من الفقر، وهي من أهم العقد، وتشكل مع عقدة الموت أكثر العقد انتشارًا في النفوس الإنسانية" (١).

فالإنسان يميل غالبًا إلى تملك الأموال، وغير ذلك من أنواع متاع الحياة المختلفة، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فقال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴾ (٢).

وقد حذر الإسلام من الشح والبخل، وأمر بمقاومتهما وعلاجهما، والعلاج يكون بالسلوك المضاد، وهو التدريب على الإعطاء والإنفاق والبذل وأداء الحقوق، حتى يتعود الفرد على التصدق والإحسان.

لذلك فإن للزكاة أثرًا كبيرًا في تحقيق الصحة النفسية، فهي تنقي النفس من الأثرة، وحب الذات والحرص على المال، خاصة لو أخرجها صاحبها عن طيب من نفسه، مبتغيًا بها وجه الله تبارك وتعالى من غير رياء أو سمعة.

"إن الزكاة بعامة والصدقة بخاصة وسيلة هامة في التربية النفسية الإسلامية، إذ تعين النفس على التواضع والإيثار والمحبة، كما تعودها على البذل والعطاء والسخاء والجود.

وبهذه الوسيلة الناجعة التي تعد من الطب النفسي الوقائي من ناحية ومن الطب النفسي العلاجي من ناحية، تستطيع النفس الإنسانية أن تسكن في ذاتها حدة الشهوات وتطفئ نار الأهواء من حب المال، ومن رغبة في المديح والثناء وطلب للمفاخر والأمجاد.

ومن حيث أن الزكاة هي طب علاجي فإنها تساعد النفس على التخلص من آفاتها ونقائصها وأمراضها الباطنية كالكبر والتعالي والاستهزاء والاحتقار والاستعلاء والاغترار والعجب والجشع والحرص والطمع والشره وغير ذلك من الآفات" (٣).

فللزكاة دور في تغيير السلوك، فهي تحول الإنسان من سلوك الأنانية والطمع والجشع والحرص

---

(١) المرجع السابق ص٩٦، ٩٧ بتصرف .

(٢) سورة آل عمران / الآية ١٤ .

(٣) في الطب النفسي النبوي. د/ حسن محمد الشرقاوي ص١٥. بتصرف

إلى غير ذلك من الصفات والأخلاق الذميمة التي ترتبط بالأمراض النفسية، تحوله إلى سلوك البر والإحسان والكرم والجود والسخاء والعطاء، وتقديم العون للفقراء.

"فمن خلال فريضة الزكاة التي توجب على المسلم إخراج قدر معلوم من ماله وكسبه وإنفاقه على الفقراء والمحتاجين والمساكين وأبناء السبيل وأقاربه والعجزة والأيتام تنمو فيه مشاعر المشاركة الوجدانية والعطف على الفقراء وتعوده على الشعور بالمسؤولية الاجتماعية نحو أبناء وطنه والعمل على إسعادهم وحمايتهم من خطر الجوع وإحساسهم بأن هناك من يقف بجانبهم يمد لهم يد المعونة ومن خلال إيتاء الزكاة يشعر المسلم بالرضا والطهر والطهارة والسعادة [١] ، "فالزكاة تعلم المسلم حب الآخرين وتخلصه من الأنانية وحب الذات، كما أنها تطهر النفس من دنس البخل والطمع والأثرة والقسوة على الفقراء" [٢] .

إذن فالسيطرة على دافع التملك بداخل الإنسان يكون عن طريق الإنفاق سواء الزكاة خاصة، أو الصدقة عامة، فإن في ذلك فوق ما يحققه للفرد من السعادة النفسية، فإنه يحقق له الأجر والثواب العظيم من الله تبارك وتعالى.

إن أسلوب علاج السلوك بضده، أسلوب شائع، استخدمه السلف الصالح في تعديل السلوك، وتقويم الأخلاق، وعلاج أمراض القلوب.

"فالرسول ﷺ كان يدعو المسلمين إلى السيطرة على دافع التملك، وكان يعلمهم كيف يسيطرون عليه، وذلك بتوجيههم وحثهم على القيام بالسلوك المضاد للتملك والشح، وهو الإنفاق والبذل والعطاء، وكان علية الصلاة والسلام يرغبهم في هذا السلوك ترغيبًا شديدًا بالثواب العظيم في الدنيا والآخرة حتى يقوي فيهم حب الإنفاق والبذل والعطاء، ويضعف فيهم الميل إلى التملك والشح والأنانية.

وبهذا الأسلوب، وهو علاج السلوك بضده، استطاع الرسول ﷺ أن يعلم أصحابه رضي الله تعالى عنهم السيطرة على دافع التملك" [٣] .

---

(١) الإسلام والعلاج النفسي الحديث. د/ عبد الرحمن العيسوي ص١٩٨ بتصرف .

(٢) القرآن وعلم النفس د/ محمد عثمان نجاتي ص٢٧٤ بتصرف .

(٣)الحديث النبوي وعلم النفس. د/ محمد عثمان نجاتي ص٧٢ .

وبأسلوب علاج السلوك بضده عالج الإسلام داء بخل النفوس وشحها، ثم إنه فوق ذلك نجد أنه قد تسامى بعقد النفوس عند المؤمنين الصادقين إلى الفضائل الكبرى، فتسامى بعقدة الشح إلى فضيلة الإحسان حتى الإيثار.

"فقد استطاع الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام والصحابة الكرام رضوان الله عليهم والصالحون من الأقدمين والمحدثين أن يتخلصوا من الحرص، بل تساموا إلى ما هو أبعد من ذلك ألا وهو حب البذل والسخاء والعطاء حتى الإيثار على أنفسهم ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (١) ، ولو التزم الناس بتعاليم الإسلام ما بقي بينهم فقير أو جائع " (٢) .

وكذلك من أساليب العلاج النفسي للشح والبخل معرفة مدى خطرهما على الفرد والمجتمع، فقد حذر الإسلام منهما تحذيرًا شديدًا في كثير من آيات القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، كلها تحذر من الشح والبخل، وفحواها يقول أن ضرر البخل إنما يعود على صاحبه فحسب، وذلك بعدم انتفاع نفسه بالمال، وكذلك الحرمان من أجر وثواب إنفاقه، ثم بعد ذلك الجزاء والعقاب يوم القيامة على بخله. يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ (٣).

وقال سبحانه وتعالى أيضًا منددًا بالبخلاء من الأغنياء الذين يبخلون بما أعطاهم الله تعالى من كرمه:﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ (٤) .

وقد توعد الله عز وجل الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، ولا يتصدقون على الفقراء والمساكين، توعدهم بعذاب أليم، فقال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ

---

(١) سورة الحشر / الآية ٩ .

(٢) من علم النفس القرآني. د/ عدنان الشريف ص٩٦، ٩٧ .

(٣) سورة محمد / الآية ٣٨ .

(٤) سورة آل عمران / الآية ١٨٠ .

جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (١) .

وقد جعل الله تعالى من أهم أسباب فلاح الإنسان في الدنيا والآخرة اتقاء شح نفسه، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (٢) .

وفي السنة النبوية المطهرة نجد أن رسول الله ﷺ قد نهى عن الشح وحذر منه فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **"اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دمائهم واستحلوا محارمهم"** (٣).

وقال ﷺ أيضًا: " **شر ما في رجل شح هالع وجبن خالع** " (٤).

ومما سبق كله يتضح لنا أن علاج بخل النفوس وشحها يتركز على أمرين...

أحدهما: العلاج عن طريق السلوك المضاد، وذلك يكون بالإنفاق والصدقة.

وثانيهما: من خلال معرفة أن ضرر الشح والبخل إنما يعود على صاحبه فحسب، وأن من أهم أسباب الفلاح اتقاء الشح، وذلك مما أيدته آيات القرآن الكريم، وتوجيهات السنة النبوية المطهرة.

***

(١) سورة التوبة الآيتان ٣٤، ٣٥ .

(٢) سورة الحشر / الآية ٩، سورة التغابن / الآية ١٦ .

(٣)صحيح مسلم كتاب البر الصلة والآداب باب تحريم الظلم ٤/١٩٩٦ حديث رقم ٢٥٧٨ .

(٤) سنن أبو داود كتاب الجهاد باب في الجرأة والجبن ٣/٢٦، ٢٧ حديث رقم ٢٥١١ ، والهلع: الجزع الشديد. والمراد أن الشحيح يجزع جزع شديدًا، ويحزن على مال يفوته أو يخرج من يده، والخالع: الذي كأنه يخلع فؤاده لشدة خوفه .

الفصل الخامس
تطبيق بعض المبادئ القرآنية في التربية
تطبيق مبدأ القدوة الحسنة في مجال التربية بالقدوة

للقدوة دور مهم جدًا في التربية في جميع المراحل عامة، وفي مرحلة الطفولة بصفة خاصة، وذلك لأن الطفل يقتدي بمن يراهم ويقلدهم في أعمالهم وسلوكهم، من أجل ذلك كانت عناية التربية الإسلامية بالقدوة الحسنة.

ومهما يكن من أمر إيجاد منهج تربوي متكامل، ورسم خطة محكمة لنمو الإنسان وتنظيم مواهبه وحياته النفسية والانفعالية والوجدانية والسلوكية، واستنفاد طاقاته على أكمل وجه - مهما يكن من ذلك كله - فإنه لا يغني عن وجود واقع تربوي يمثله إنسان مرب يحقق بسلوكه وأسلوبه التربوي كل الأسس والأساليب والأهداف التي يراد إقامة المنهج التربوي عليها، لذلك بعث الله تعالى سيدنا محمدًا ﷺ ليكون قدوة للناس جميعًا، ويحقق المنهج التربوي الإسلامي فقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (١)، وحقًا كان رسول الله ﷺ بشخصه، وسلوكه، وتعامله مع الناس ترجمة عملية بشرية حية لمبادئ القرآن وتعاليمه وآدابه وتشريعاته، لما فيه من أسس تربوية إسلامية، وأساليب تربوية قرآنية (٢).

والإسلام يرى أن القدوة أعظم وسائل التربية، فيقيم تربيته الدائمة على هذا الأساس.. من هنا فلابد للطفل من قدوة في أسرته ووالديه لكي يتشرب منذ طفولته المبادئ الإسلامية وينهج على نهجها الرفيع. ولابد للناس من قدوة في مجتمعهم تطبعهم بطابع الإسلام وتقاليده العظيمة لكي يحملوا الأمانة لمن يربونهم من الأجيال، ولابد للمجتمع من قدوة في قائدهم أو زعيمهم أو حاكمهم، تتحقق في شخصه المبادئ، وينسج على منواله المحكومون.. والقدوة للجميع هي شخصية الرسول ﷺ التي تتمثل فيها كل مبادئ الإسلام، وقيمه، وتعاليمه (٣).

---

(١) سورة الأحزاب / الآية ٢١ .

(٢)أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع لعبد الرحمن النحلاوي ص٢٥٤ ، ٢٥٥ بتصرف .

(٣) منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب ١/ ١٨٥ ، ١٨٦ .

لذا فقد أعطى الإسلام أهمية بالغة لأسلوب التربية بالمواقف والتصرفات والأفعال، واعتبر ذلك أقوى تأثيرًا وأوقع في النفس من التوجيه بالوعظ والقول، ولا يرى الإسلام قيمة في قول لا يترجم إلى عمل، والمسلم الكامل هو الذي يكون صادقًا مع نفسه قبل الآخرين، ويكون عمله تصديقًا لقوله، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (١) .

يقول الإمام ابن القيم: "علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس هلموا قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقًا كانوا أول المستجيبين له، فهم في الصورة أدلَّاء وفي الحقيقة قطاع طرق" (٢) .

إن الحديث عن الحاجة إلى قدوة يطرح أمامنا سؤالًا مهمًا يدور حول التطبيقات التربوية للقدوة هو: إذا كان هناك تطبيقات تربوية للقدوة فما هي؟

ويمكن الإجابة على هذا السؤال من خلال نقطتين أساسيتين:

الأولى: الإقتداء بشخصية النبي ﷺ التي جعلها القرآن الكريم القدوة الدائمة لجميع الناس، وهي متجددة عبر الأجيال من خلال واقع الناس.

"والإسلام حين يعرض هذه القدوة لا يعرضها للإعجاب والتأمل فحسب، بل ليحققها المربون في ذوات أنفسهم كل بقدر ما يستطيع أن يقتبس، وبقدر الصبر على الصعود للأحسن" (٣).

الثانية: حياة المربي المسلم، وأنه لابد أن يكون قدوة حسنة في جميع أفعاله، فيبدأ بإصلاح نفسه وأهله أولًا، ثم بإصلاح غيره وإرشادهم إلى الطريق القويم، فعليه أن يمتنع عن سفاسف الأمور. فالطفل لابد له من قدوة له في أسرته ووالديه باعتبار أن الأسرة والوالدين هم البيئة التي ينشأ فيها، وهي التي تكيف سلوكه وتصرفاته، وكذلك الطالب في المدرسة باعتبارها المكان الذي يقضي فيه معظم أوقاته، فلابد له من قدوة يرها في كل معلم من المعلمين ليقتنع حقًا بما يتعلمه، وليرى فعلًا أن

---

(١) سورة الصف / الآيتان ٢ ، ٣ .

(٢) الفوائد صـ٦١ . ط: دار الكتب العلمية .

(٣) دراسة ناقدة لأساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام (رسالة ماجستير منشورة) إعداد / فتحية عمر رفاعي الحلواني. قدمت إلى كلية التربية جامعة أم القرى بمكة المكرمة سنة ١٤٠٢هـ صـ٩٥ بتصرف .

ما يطالب به من السلوك المثالي أمر واقعي ممكن التطبيق، وأن السعادة الحقيقة لا تكون إلا في تطبيقه[١].

إن حاجة الناس إلى القدوة أمر نابع من فطرة تكمن في نفوس البشر أجمعين، هي التقليد، لأن الطفل والمتعلم والمرؤوس ليهم رغبة في تقليد سلوك المربي والمعلم والرئيس، ومن هنا تكمن الخطورة في ظهور مساوئ في سلوك القدوة، لأن غيره يقلده فيها، فعلى الشخص القدوة أن يلتزم بمحاسن الأخلاق، والأفعال الحسنة والطيبة، وأن يتجنب الأفعال السيئة والخبيثة، لأنه كلما ذات الخصال المحمودة في المربِّي (القدوة) زاد الشخص المربَّى رفعة وتجملًا، والعكس صحيح وعليه أيضًا ألا يثير التناقض بين ما يأمر به وبين سلوكه هو نفسه، فعليه أن يتجنب أن يقول ما لا يفعل، أو أن يأمر بما لا يأتمر هو به، أو أن يسر غير ما لا يعلن ويظهر خلاف ما يبطن.

لذلك فقد حرص المربون المسلون على أن يكون المعلم صورة صالحة للإقتداء به واتخاذه مثلًا يحتذى به، فاشترطوا فيه أن يكون من أهل الصلاح والعفة، وأن يكون مشهورًا بالدين والخير، يحافظ على القيام بشعائر الإسلام وظواهر الأحكام، كإقامة الصلاة في المساجد للجماعات، وإنشاء السلام للخواص والعوام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تجنب مواضع التهم وإن بعدت، ولا يفعل شيئًا يتضمن نقص المروءة، والمربي بهذه الصفات يقدم نموذجًا للسلوك المرغوب فيه الذي به يتحقق التأثير الطيب في الواقع، وعندما لا يكون كذلك يقدم النموذج غير المرغوب فيه الذي يكون له تأثيره السيئ في الواقع [٢].

فالأب أو المربي قد يُحَذِّر الطفل من الكذب، وفي الوقت نفسه تجده يتمثل الكذب في سلوكه مع المربَّى سواء أكان ذلك مقصودًا أو غير مقصود، فمثلًا قد يعد الأب ابنه إذا فعل كذا أو كذا، أنه سوف يشتري له جائزة مادية من أي نوع ما، وعندما ينفذ الطفل ما طلب منه تجد المربي أو الأب يتهرب من شراء ما وعده به، فهنا يتقمص الطفل هذا السلوك محاولًا تطبيقه مع من هم أصغر منه سنًا.. وبمرور الوقت يصبح الكذب عادة راسخة في سلوكه، بل مظهرًا من مظاهره التي يعرف بها وتميز شخصيته.

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع لعبد الرحمن النحلاوي ص٢٥٦ ، ٢٥٧ بتصرف.

(٢)أصول تربية الطفل في الإسلام (رسالة دكتوراه غير منشورة) إعداد / حسن إبراهيم عبد العال. جامعة طنطا كلية التربية قسم أصول التربية ص٢٨٦ بتصرف .

"فالولد الذي يرى والده يكذب لا يمكن أن يتعلم الصدق!

والولد الذي يرى أمه تغش أباه وأخاه أو تغشه هو نفسه .. لا يمكن أن يتعلم الأمانة!

والولد الذي يرى أمه مستهترة لا يمكن أن يتعلم الفضيلة.

والولد الذي يقسو عليه أبوه لا يمكن أن يتعلم الرحمة والتعاون" (١).

مما سبق يتضح لنا أن القدوة الحسنة هي الطريق الأمثل لتثبيت المبادئ في نفس النشء، كل مرب راع سواء في البيت أو في المدرسة أو في المجتمع، فهم جميعًا شركاء في المسئولية، يستطيع أن يكون قدوة أخلاقية حسنة، وأن يكون عاملًا فعالًا في غرس القيم والمبادئ الصالحة من خلال سلوكه وتصرفاته مع النشء، والتزام أساليب الصدق في القول والفعل، وأن يتمسك بالسلوك السوي القويم في معاملته مع الآخرين.

***

(١) منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب ١/ ١٨٦ .

تطبيق مبدأ الجزاء من جنس العمل في مجال الثواب والعقاب

لم يترك الإسلام أسلوبًا من أساليب التربية إلا وطرقه، وذلك للوصول إلى نفس الإنسان والتأثير عليها وتقويمها وحملها على فعل الخير وسلوك طريقه، ومن أهم أساليب التربية التي أقرها الإسلام أسلوب الثواب والعقاب.

وهناك من المبادئ القرآنية ما لها تطبيقات تربوية في هذا المجال، منها مبدأ الجزاء من جنس العمل، يقول الله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ (١)، ويقول سبحانه أيضًا: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾(٢)، فجزاء السيئة مثلها كما أن جزاء الإحسان إحسان.

وقد اقتضت الضرورة أن يثاب المحسن على إحسانه، وأن يعاقب المسيء على إساءته، وقد قرر القرآن الكريم هذا المبدأ، فجعل لكل عمل جزاءه إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، فهذه نتيجة حتمية تحفظ العدل والأمن، وعلى هذا الأساس يكون أسلوب الثواب والعقاب ذا أهمية بالغة في التربية الإسلامية.

والثواب في اللغة: جزاء الطاعة (٣).

وفي اصطلاح علماء المسلمين: هو الجزاء الذي أعده الله سبحانه وتعالى لعباده الطائعين لأوامره، المنتهين عن نواهيه، ويقع الثواب في الدنيا والآخرة، ولكن جزاء الآخرة خير وأبقى (٤).

وفي اصطلاح علماء النفس: هو ما يحصل عليه الفرد عقب أداء معين، ويؤدي إلى الارتياح وتجنب التوتر والألم (٥).

أما العقاب فهو في اللغة: أن تجزي الرجل بما فعل سوءًا (٦).

وفي اصطلاح علماء المسلمين هو جزاء المرء بعقوبة إزاء ارتكابه معصية أو اقترافه سيئة منهيًا

---

(١) سورة النساء / الآية ١٢٣.

(٢) سورة الرحمن / الآية ٦٠.

(٣) لسان العرب لابن منظور مادة (ثوب) ٢/ ١٤٥.

(٤) الثواب والعقاب في الفكر التربوي الإسلامي (رسالة دكتوراه غير منشورة) إعداد / محمد محمود عبد العال. جامعة أسيوط كلية التربية قسم أصول التربية سنة ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م صـ٦٦.

(٥) المرجع السابق صـ٧١.

(٦) لسان العرب للعلامة ابن منظور مادة (عقب) ٩/ ٣٠٥.

عنها، أو لتهاونه في أمر من أمور الدين أمر الله تعالى به، أو في أداء فريضة مكتوبة على كل مسلم ومسلمة (١) .

وفي اصطلاح علماء النفس: هو كل ما يؤدي إلى زيادة التوتر حتى إن كان غير مؤلم (٢) .

"والثواب أسلوب لابد وأن يلجأ إليه المربي مقابل أسلوب العقاب فمرة يهدد المربَّى بعدم رضا الله إذا فعل منكرًا أو ارتكب محرمًا، مبينًا له مقابل ذلك ما أعده الله تعالى من النعيم المقيم لمن أطاعه واتبع أوامره واجتنب نواهيه.

فالمربي الذي يستخدم أسلوبي الثواب والعقاب في آنٍ واحد يكون قد جمع بين اللين والحزم، وذلك لأن أسلوب التوجيه اللفظي والوعظ الإرشاد يجدي مع بعض الناس، لكن بعضهم الآخر لا يجدي معهم هذا الأسلوب، وهنا يستطيع المربي أن يلجأ إلى استخدام العقاب والتهديد لما له من عظيم الأثر في نفوس بعض الناس " (٣) .

والجزاء (الثواب والعقاب) أمر منطقي تقتضيه العدالة، لأنه لابد وأن يفرق بين الذي يبني والذي يهدم، وبين الصالح والفاسد، وبين الطيب والخبيث. قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾ (٤).

وقد يسأل سائل فيقول: إذا كانت هناك تطبيقات تربوية لمبدأ الجزاء من جنس العمل في الثواب والعقاب فما هي؟

ويمكن الإجابة على هذا السؤال من خلال بيان أسس وأساليب وشروط الثواب والعقاب، وبيان مدى فاعليتها عند علماء التربية وعلم النفس، ثم نعقب على ذلك ببيان تطبيقات المبدأ القرآني، وذلك فيما يلي:

---

(١) الثواب والعقاب في الفكر التربوي الإسلامي (رسالة دكتوراه غير منشورة) إعداد / محمد محمود عبد العال. جامعة أسيوط كلية التربية قسم أصوال التربية سنة ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م ص٧٧ بتصرف .

(٢) أصول علم النفس. أحمد عزت راجح ص٢٤٥ .

(٣) دراسة ناقدة لأساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام (رسالة ماجستير منشورة) إعداد / فتحية عمر رفاعي الحلواني. جامعة أم القرى بمكة المكرمة كلية التربية سنة ١٤٠٢ ص١٤١ بتصرف .

(٤) سورة المائدة / الآية ١٠٠ .

أسس الثواب والعقاب بالنسبة للفرد :-

للثواب والعقاب أسس في نفس الفرد يمكن تلخيصها فيما يلي [(١)]:

١- يشعر الفرد وخاصة الطفل أنه بحاجة قوية إلى التقدير على أعماله، وعلى نجاحه فيها، فمكافأته تؤدي إلى تشجيعه وحثه على العمل لإرضاء حاجته إلى النجاح.

٢- يؤدي دافع السيطرة بكل فرد أن يؤكد ذاته، ويرفع من شخصيته، وإرضاء الشعور بالفخر الذي يمكن إرضاؤه عن طريق الثواب.

٣- يؤدي العقاب إلى عدم شعور الفرد بالأمان، ومن هنا ينتابه القلق والاضطراب، ويخشى دائمًا العقاب، فيعمل على أن يتجنب كل ما يؤدي إلى عقابه.

٤- الخوف دافع قوي، حافز شديد يدفع الإنسان إلى الهرب من كل ما يؤلمه، ولهذا كان من الطبعي أن يهرب الفرد من العقاب خوفًا على نفسه وتجنبًا للألم.

٥- من طبيعة النفس أنها تقبل على السرور واللذة، وتنفر من الألم، ولهذا يميل الفرد إلى الأعمال التي تجلب له سرورًا ولذة في صورة ثواب، وينفر من الأعمال التي تجلب له ألمًا في صورة عقاب.

والتوجيه القرآني من خلال تطبيق المبدأ العام هو أن أساس الثواب والعقاب يكون بناءً على أعمال الفرد، فإن هو أحسن كان جزاؤه الإحسان، وإن أساء كان جزاؤه بمثل إساءته،وهذا هو منهج القرآن الكريم في الجزاء.

أما الثواب ففيه تحقيق لشخصية الفرد وحافز له على المداومة على فعل الخير إذ أن الثواب ومضاعفته يشجع على العمل ويدفع إلى بذل الجهد فيقول الله تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [(٢)]، كما أن النفس تقبل على ما يحقق لها السرور.

وأما العقاب ففيه تخويف للفرد وتهديد له يدفعه على الهرب من كل ما يسبب له القلق والألم، إذ أن النفس تنفر من كل ما يجلب لها ذلك، وعلى هذا سار القرآن الكريم في وعده ووعيده، وترغيبه وترهيبه.

---

(١) مبادئ التربية وطرق التدريس. عبد المجيد عبد الرحيم صـ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٢) سورة الأنعام / الآية ١٦٠ .

أساليب الثواب والعقاب:-

أولا: أساليب الثواب وأنواعه:

للثواب أساليب وأنواع كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر (١):

كالمدح والثناء والتشجيع، والهدايا، والرحلات، والدرجات، ولوحة الشرف

وإذا نظرنا إلى هذه الأساليب وجدنا منها ما هو معنوي، ومنها ما هو مادي، ولا غنى عنهما، فكلاهما مطلوب لتحقيق الهدف من التربية.

والتوجيه القرآني من خلال تطبيق المبدأ العام أن من فعل إحسانًا لابد وأن يجازى بالإحسان، بأي شكل من الأشكال، وبأي نوع من الأنواع، سواء كان هذا الجزاء معنويًا كالمدح والثناء والتشجيع، أو ماديًا عن طريق الجوائز والهدايا وغير ذلك من طرق الثواب المادي.

شروط استعمال الثواب:-

إن استعمال أسلوب الثواب في التربية أمر مطلوب لكن لابد عند استعماله من مراعاة بعض الأمور.

أن يطبق هذا الأسلوب بموضوعية، وبعيدًا عن المجاملة والتهاون. يقول الله تعالى: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ (٢).

وكذلك ألا يكون الجزاء دائمًا ماديًا، فالشعور بحلاوة النجاح والرضا الداخلي غير المتأثر بتوقع الجزاء شعور له أهميته في التربية.

وكذلك لابد من مراعاة أن الناس صنوف شتى، فمنهم من يأخذ الحياة من الناحية المادية فقط، ومنهم من يأخذه من الناحية المعنوية فقط، فعلى المربي أن يفيد من ذلك حسب ما يتطلبه حال الفرد والموقف نفسه.

وكذلك لابد ألا يعطى الثواب على واجب حتى لا يخلق في الفرد فعل الواجب مقابل الثواب لا لأنه واجب فحسب .

(١) مبادئ التربية وطرق التدريس. عبد المجيد عبد الرحيم ص١٣٤ ، ١٣٥ بتصرف .

(٢) سورة الرحمن / الآية ٦٠ .

ثانيًا: أساليب العقاب وأنواعه:

تختلف أساليب العقاب وأنواعه بحسب الذنب الذي أقترف أو الإساءة التي وقعت، وبحسب حال المذنب نفسه، فالعقاب الذي يوقع على ذنب كبير غير الذي يوقع على ذنب أقل منه، والفرد الذي أذنب لأول مرة يكون عقابه أخف ممن تعود أن يذنب، كذلك هناك من الناس من تكفيه الإشارة، ومنهم من لابد من زجره أو لومه أو توبيخه، كما أن منهم من لابد من استعمال الضرب معه، كذلك منهم من يتأثر إذا وجه إليه اللوم على انفراد، ومنهم من لا يجدي معه ذلك، بل لابد من توجيه اللوم إليه علنًا وأمام الآخرين (١)

لذلك فإن أساليب العقاب مختلفة ومتنوعة، وذلك بحسب نوعية الخطأ، وحال المخطئ، من هذه الأساليب:

اللوم والتوبيخ للفرد المخطئ، سواء أكان منفردًا أم أمام الآخرين بحسب حاله، والحرمان من بعض المزايا التي يثاب بها بعض المتميزين، وذلك كالحرمان من الهدايا المادية، والحرمان من الرحلات والأنشطة الترويحية، الضرب كعقوبة قصوى (٢) .

ولقد أقر المربون المسلمون مبدأ الضرب كعقوبة، وجعلوه آخر العقاب، ولكنهم اشترطوا لذلك شروطًا من أهمها (٣) :

(١) لا يجوز ضرب الأطفال قبل العاشرة، لقوله ﷺ: **"مروا أبناءكم بالصلاة لسبع سنين واضربوهم عليها لعشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع "** (٤).

(٢) لا يجوز ضرب الأطفال الذين تقدمت أعمارهم، أي الذين دخلوا في مرحلة البلوغ والمراهقة.

(٣) ألا يوقع المعلم الضرب إلا على ذنب، وللضرورة القصوى ولا يكثر فيه.

---

(١) الثواب والعقاب في الفكر التربوي الإسلامي (رسالة دكتوراه غير منشورة) إعداد / محمد محمود عبد العال صـ١٣٣ بتصرف .

(٢) العقاب البدني: هل هو أبغض الحلال إلى المربين؟ سلمان العمري صـ٨٧ بتصرف. المجلة العربية. تصدر في المملكة العربية السعودية. السنة العاشرة العدد ١١٠ نوفمبر سنة ١٩٨٦م .

(٣) التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية. د / محمد منير مرسي صـ١٥٦ ، ١٥٧ بتصرف .

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣٦٩/١١ حديث رقم ٦٧٥٦ . تحقيق: شعيب الأرنؤوط .

(٤) أن يكون العقاب على قدر الذنب لا للتشفي.

(٥) أن يكون الضرب من واحدة إلى ثلاث، ويستأذن ولي الأمر فيما زاد عن ذلك.

(٦) أن يقوم المعلم بالضرب بنفسه ولا يوكله لواحد من الصبيان.

(٧) أن يكون الضرب على الرجلين ويتجنب الضرب على الوجه والرأس والأماكن الحساسة من الجسم.

(٨) أن تكون آلة الضرب هي الدرة أو الفلقة، ويجب أن يكون عود الدرة رطبًا مأمونًا.

وأخيرًا فإن الإيلام قد أصبح ضرورة لا مجال لإغفالها، ولكن على المربي ألا يلجأ إلى الضرب إلا إذا لم يفلح ما دونه، فالضرب مؤلم، لكن قد يضطر إليه اضطرارًا.

وإضافة إلى ما سبق فهناك بعض الأساليب الأخرى الخاصة بالطلاب في مراحل التعليم منها[(١)]:

الدرجات، القائمة السوداء وهي عكس قائمة الشرف، إكثار الواجبات المنزلية، الإهمال وذلك بأن يهمل المعلم الطالب المعاقب، ولا يوجه إليه سؤالًا ولا يتلقى منه جوابًا.

والتوجيه القرآني من خلال تطبيق المبدأ العام هو أن من فعل سوءًا لابد وأن يجزى به، بأي أسلوب من الأساليب، وبأي شكل من الأشكال، سواءً كان هذا الجزاء معنويًا كاللوم والتوبيخ، أو ماديًا كالحرمان من بعض المزايا التشجيعية كالجوائز والهدايا والرحلات الترويحية، أو الضرب كآخر وأقصى عقوبة.

شروط استعمال العقاب:-

إن استعمال أسلوب العقاب في التربية أمر مطلوب لكن لابد عند استعماله من مراعاة بعض الأمور حتى يكون مجديًا، ويؤدي إلى الغرض منه.

وذلك كأن يكون العقاب بقدر الذنب قال الله تعالى: ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا ﴾[(٢)]، فعلى المربي أن يجعل عقابه بقدر الذنب، وأن يكون لمجرد التوجيه والإرشاد، فالعقاب المكثف يؤدي إلى إضعاف معنويات الفرد.

(١) مبادئ التربية وطرق التدريس. عبد المجيد عبد الرحيم صـ١٣٧ ، ١٣٨ بتصرف .

(٢) سورة الأنعام / الآية ١٦٠ .

وكذلك لابد وأن يراعى التدرج في العقاب فقد قال الله تعالى في تربية الرجل لامرأته الناشز: ﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ (١) ، فعلى المربي أن يتدرج في توقيع العقاب، وأن يكون الضرب آخر وسيلة يستخدمها بعد أن يجرب كل الوسائل، وأن تكون هناك ضرورة ملجئة بالفعل لاستخدامه، مع مراعاة شروطه الواجبة التي اشترطها المربون المسلمون.

وعلى المربي أن يحرص على تنويع العقاب معنويًا وماديًا، حسب حال الفرد، وحسب الموقف نفسه.

***

(١) سورة النساء / الآية ٣٤ .

تطبيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في التربية كأحد أساليبها

للتربية أساليب كثيرة ومتنوعة، ومن أهم هذه الأساليب التي أقرها القرآن الكريم، وحث عليها، أسلوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

"فالقرآن الكريم يفرض ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والصبر، وهو عمل يتأتى من جانبين، فكل إنسان يتواصى مع أخيه الإنسان من أجل دفع عجلة الحياة إلى سبيلها المنشود" (١) .

وعندما نتحدث عن تطبيقات تربوية لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لابد وأن نبين أولًا درجات ومراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن نميز بين كل منهما.

فالأمر بالمعروف يكون بالقول واللسان فقط، أما النهي عن المنكر فله ثلاث مراتب: فيكون باليد (الفعل)، ويكون باللسان (القول)، ويكون بالقلب لقوله ﷺ: **"من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"** (٢) .

وتطبيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجال التربية سيكون مركزًا على التطبيق بالقول والفعل فقط، وذلك لأن القلب ليس له تطبيق واضح إلا إن كان من قبيل التعليم.

أولا : التطبيق بالقول :-

وذلك على درجات كما يلي (٣) :

١- التعريف: فيجب على المربي عند مباشرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يبدأ أولًا بتعريف تارك المعروف أو فاعل المنكر أن ما يتركه من المعروف أمر الشارع به، وأن ما يفعله من المنكر نهى الشارع عنه، فلعله يكون جاهلًا بحكم الشرع، فإذا عرف الحكم امتثل له.

---

(١) فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم د / على خليل مصطفي أبو العينين صـ٢٣١ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان. وأن الإيمان يزيد وينقص. وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان ١/٦٩ حديث رقم ٤٩ .

(٣) استفدت من رسالة بعنوان: "الأبعاد التربوية لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند الفقهاء والمتكلمين" وهي (رسالة ماجستير غير منشورة) إعداد الباحث / عادل محمد عبد الحليم السكري. جامعة عين شمس كلية التربية قسم أصول التربية سنة ١٩٨٨م. صـ١٢٧ : ١٢٩ بتصرف .

٢- ويكون تعريف القائم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للجاهل برفق ولطف من غير إيذاء أو عنف حتى يحصل له ما يريد، ويتحقق الهدف المطلوب وهو فعل المعروف وترك المنكر.

٣- الوعظ والنصح: فإذا أصر الفرد على ترك المعروف وفعل المنكر، رغم علمه بالمعروف ومعرفته بالمنكر. ففي هذه الحالة يجب على القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يعظه وينصحه ويذكره بأمر الله تعالى ونهيه، وأن يذكر له من الآثار الواردة بالوعيد على ما أحجم عنه من المعروف، وما أقدم عليه من المنكر، وأن يحكي له ويقص عليه من سيرة السلف الصالح ما يناسب موضوع النصيحة، على أن يكون ذلك كله بشفقة ورفق من غير عنف أو غضب، وأن يقصد بذلك وجه الله تعالى، وألا يكون من باب التعالي على الناس.

٤- التعنيف: فإذا أصر مرتكب المنكر على فعله، وأظهر الاستهزاء بالوعظ والنصح، كان على القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يعدل عن وعظه ونصحه بلطف ورفق إلى تعنيفه بالقول الغليظ الحسن، من غير فحش أو قذف أو كذب، وألا يصفه إلا بما فيه من الصفات مع الاقتصار على قدر الحاجة، كل ذلك بشرط ألا يقدم على ذلك إلا عند الضرورة والعجز عن منعه بالنصح والرفق.

٥- التهديد والتخويف: فإذا استمر مرتكب المنكر في فعله، ولم يرتدع بالقول الغليظ الحسن، كان على القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يعدل عن ذلك إلى تهديده وتخويفه بشرط ألا يهدده بما يحرم التهديد به، ولا يجوز له تحقيقه، كالتهديد بنهب داره، أو سرقة ماله، أو خطف زوجه، أو ضرب ولده، أو نحو ذلك مما يجري مجراه.

وللقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يبالغ فيما يجوز له من التهديد بالتخويف إذا علم أن ذلك يردعه عن الاستمرار في ارتكاب المنكرات.

ثانيًا: التطبيق بالفعل:-

ينبغي للمربي سواء كان والدًا أو معلمًا ألا يلجأ إلى هذا الطريق إلا بعد استنفاد الطرق الأخرى جميعًا، ولا يجوز له الإقدام عليه أو اللجوء إليه إلا عند العجز عن تحقيق المعروف وإزالة المنكر بالتزام المستوى السابق.

والتطبيق بالفعل يكون كما يلي [١] :

إذا لم يكن التهديد بالقول كافيًا لمنع المنكر وردع فاعله، كان لابد من العدول عن ذلك إلى مباشرة التغيير باليد.

وفي هذه الحالة لابد للقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يفرق بين المنكر وصاحبه، فإذا شاهد معتديًا دفعه، وإذا أدرك بغيًا منعه، بشرط أن يقتصر على القدر الضروري الذي يحقق الغرض، من غير مبالغة في إيذاء مرتكب المنكر أو إهانته.

فإذا لم يندفع المنكر، ولم يرتدع صاحبه، يجوز للقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مباشرة الضرب باليد والرجل وغير ذلك بشروطه [٢] ، فلعل هذا يحقق المراد، ولكن عليه أن يقتصر في الضرب على قدر الحاجة، فإذا اندفع المنكر وقف عن مباشرة الضرب على الفور.

وهكذا فإن تطبيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في التربية يبدأ بالقول، وقد ينتهي إلى أقصى درجات الفعل وهو الضرب إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

***

(١) استفدت من: المرجع السابق ص١٢٩ وما بعدها بتصرف .

(٢) يراجع الضرب كعقوبة، وشروط الضرب ص٢٩٥، ٢٩٦ .

الخاتمة
وتضم
النتائج والتوصيات

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته الصالحات، ونسأله تعالى حسن الخاتمة في الأمور كلها، وبعد هذه الرحلة مع كتاب الله تعالى ومبادئه العظيمة، أصل إلى ختام بحثي هذا وإلى نتائجه، والتي من أهمها:

أولا: أن للمبادئ القرآنية مكانة عظمى وأهمية قصوى، فهي تشكل مكونًا أساسيًا من مكونات عقل المسلم.

ثانيًا: أن المبادئ القرآنية لها مميزات وخصائص تميزها عن غيرها من علوم القرآن الكريم المختلفة، وهي بهذا تعد وجهًا من وجوه إعجاز القرآن الكريم الذي لا تنقضي عجائبه ولا تنتهي أسراره.

ثالثًا: أن قضية المبادئ القرآنية لم تأخذ حظها من البحث والدراسة سواء من القدامى أو المحدثين.

رابعًا: أن المبادئ القرآنية لها تطبيقات شتى في نواحي الحياة المختلفة.

خامسًا: أن هذا البحث يفتح مجالًا تطبيقيًا لاستخراج قواعد عامة للعلوم من القرآن الكريم، إذ إنه يمثل نواة للعودة إلى القرآن الكريم لاستنباط مبادئ العلوم الحديثة منه، وذلك كعلم النفس والتربية والسياسة والاقتصاد والقانون والاجتماع وغيرها، والعودة بها إلى حظيرة الإسلام، لأن كثيرًا من المسلمين يعتمدون فيها نظريات الغرب، وهنا تظهر فجوة كبيرة ، إذ إن هذه النظريات نشأت على فرض عدم وجود إله، والعلماء المسلمون حين يأخذون هذه النظريات ويحاولون تطبيقها في البيئة الإسلامية ينتج من ذلك خلل كبير، وإصلاح هذا الخلل يبدأ بالعودة مرة أخرى إلى القرآن الكريم واستخراج العلوم منه، وهذا ما يمكن أن نسميه إسلامية المعرفة.

وبناءً على ما سبق فإني أوصي بما يلي:-

* استمرار البحث والدراسة في هذا الموضوع واستخراج مبادئ أخرى لم تتناولها هذه الدراسة.

* إيجاد تطبيقات للمبادئ القرآنية في مختلف المجالات وربطها بالعلوم المختلفة.

ولعل هذه الدراسة تكون لبنة أولى في صرح علم جديد من علوم القرآن الكريم هو علم المبادئ القرآنية.

والله تعالى اسأل القبول والسداد، والهدى والرشاد، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

مراجع البحث

(۞) القرآن الكريم
كتب التفسير

- أحكام القرآن. لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي. تحقيق: علي محمد البجاوي. ط: دار الفكر ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم. لأبي السعود العمادي. ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- الأساس في التفسير. للأستاذ سعيد حوى. ط: دار السلام للطباعة والنشر – القاهرة. الطبعة الخامسة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- البحر المحيط. لأبي حيان الأندلسي. ط: دار الكتب العلمية ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م. الطبعة الأولى.
- التحرير والتنوير. للعلامة محمد الطاهر بن عاشور. ط: دار سحنون للنشر والتوزيع بتونس.
- التسهيل لعلوم التنزيل لأبي القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي. ط: الدار العربية للكتاب. عدد الأجزاء : ١ .
- تفسير ابن كثير. للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير. علق حواشيه وقدم له: عبد الوهاب عبد اللطيف. صححه وأشرف على طبعه: محمد الصديق. الناشر: مكتبة النهضة الحديثة – القاهرة. الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م.
- التفسير الحديث. للشيخ محمد عزة دروزة. الطبعة الأولى دار إحياء الكتب العربية. الحلبي – القاهرة ١٣٨١هـ - ١٩٦١م، والطبعة الثانية دار الغرب الإسلامي – بيروت ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- التفسير القرآني للقرآن. للشيخ عبد الكريم الخطيب. ط: دار الفكر العربي.
- التفسير الواضح للشيخ محمد محمود حجازي. ط: دار الكتاب العربي بمصر. الطبعة الثانية ١٣٧١هـ - ١٩٥٢ .

- التفسير القيم. للإمام ابن القيم. ط: دار الكتب العلمية. جمع: محمد أويس الندوي. تحقيق: محمد حامد الفقي.
- تفسير المنار. للشيخ رشيد رضا. ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، وطبعة أخرى: لمطبعة المنار بالقاهرة سنة ١٣٢٤هـ
- جامع البيان للإمام محمد بن جرير الطبري ط: دار المعرفة – بيروت. لبنان. الطبعة الرابعة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- الجامع لأحكام القرآن. للإمام محمد بن أحمد القرطبي. ط: دار الكتب المصرية. الطبعة الثانية ١٩٥٤م.
- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي. للقاضي شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر. ط: مؤسسة التاريخ العربي – بيروت.
- دقائق التفسير. الجامع لتفسير شيخ الإسلام ابن تيمية.جمع وتقديم وتحقيق: محمد السيد الجليند. ط: مؤسسة علوم القرآن دمشق. الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. للعلامة الآلوسي. ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- زاد المسير في علم التفسير. للشيخ عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي. ط: المكتب الإسلامي – بيروت. الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ. عدد الأجزاء : ٩ .
- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير. للخطيب الشربيني. ط: دار المعرفة بيروت. الطبعة الثانية.
- فتح البيان في مقاصد القرآن. لصديق حسن خان. مطبعة العاصمة بالفلكي.
- فتح القدير الجامع بين دفتي الرواية والدراية من علم التفسير. للإمام محمد بن على الشوكاني. ط: دار المعرفة - بيروت.
- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية. للإمام سليمان بن عمر الجمل. ط: عيسى البابي الحلبي.

- في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب. ط: دار الشروق. الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. للإمام الزمخشري. ط: دار المعرفة – بيروت.
- لباب التأويل في معاني التنزيل. لعلي بن محمد البغدادي الشهير بالخازن. ط: دار الفكر ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي. ط: المجلس العلمي بفاس – المغرب ١٩٧٧م.
- محاسن التأويل. لعلامة الشام محمد جمال الدين القاسمي صححه ورقم وخرج آياته وأحاديثه وعلق عليه خادم الكتاب والسنة: محمد فؤاد عبد الباقي. ط: دار الفكر. بيروت – لبنان. الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.
- مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير. للفخر الرازي محمد بن عمر. ط: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م. الطبعة الثالثة.

كتب علوم القرآن والقراءات

- الإتقان في علوم القرآن لشيخ الإسلام/ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي. ط: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر محمد محمود الحلبي وشركاه. الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.
- أسباب النزول. لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري. ط: دار الكتب العلمية – بيروت. لبنان ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م الطبعة الأولى.
- بحوث في علوم القرآن الكريم. لفضيلة الأستاذ الدكتور/ عبد الغفور محمود مصطفى جعفر. ط: دار التوفيق النموذجية للطباعة – الأزهر. الطبعة الأولى ١٩٨٥م.
- حجة القراءات للإمام عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة أبي زرعة. تحقيق وتعليق: سعيد الأفغاني. ط: مؤسسة الرسالة. الطبعة الأولى ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.
- لباب النقول في أسباب النزول. للعلامة جلال الدين السيوطي. نشر: مكتبة نصير بالأزهر الشريف.

- مناهل العرفان في علوم القرآن. للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني راجعه وضبطه وعلق عليه: محمد علي قطب، و يوسف الشيخ محمد. ط: المكتبة العصرية. بيروت – لبنان. الطبعة الأولى١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- الموسوعة القرآنية المتخصصة. ط: وزارة الأوقاف – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

كتب الحديث الشريف

- الزهد والرقائق. للإمام شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك المروزي. حققه وعلق عليه الأستاذ المحدث المحقق الشيخ: حبيب الرحمن الأعظمي. قام بنشره: محمد عفيف الزغبي. ط: مؤسسة الرسالة.
- سنن ابن ماجه. تحقيق وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي. ط: عيسى البابي الحلبي وشركاه، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.
- سنن أبي داود لسليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي. ط: دار الفكر. تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد. مع تعليقات كَمَال يوسُفْ الحوُت، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.
- سنن أبي داود (بشرح معالم السنن للخطابي). إعداد وتعليق: عزت الدعاس، عادل السيد. ط: دار الحديث. حمص – سوريا. الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ -١٩٦٩م.
- سنن الترمذي. تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، محمد فؤاد عبد الباقي، إبراهيم عطوة عوض. ط: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – القاهرة. الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.
- سنن الدار قطني. تحقيق: مجدي بن منصور بن سيد الشورى. ط: دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- سنن النسائي (بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية السندي). ط: المطبعة المصرية بالأزهر.
- صحيح الإمام البخاري. ط: المطبعة الكبرى الأميرية. ببولاق - مصر ١٣١٤هـ.

- صحيح الإمام مسلم. تحقيق وترقيم:محمد فؤاد عبد الباقي. ط: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه. الطبعة الأولى ١٣٧٤هـ – ١٩٥٥م.
- عمدة القاري في شرح صحيح البخاري. لبدر الدين العيني. ط: دار الطباعة العامرة – الشركة الصحافية العثمانية في دار السلطنة السنية. ١٣٠٨هـ.
- الفردوس بمأثور الخطاب. تأليف: أبي شجاع شيرويه بن شهر دار بن شيرويه الديلمي الهمذاني الملقب "إلكيا". ط: دار الكتب العلمية. بيروت – لبنان. الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير. للعلامة المناوي. ط: دار المعرفة للطباعة والنشر. بيروت – لبنان. الطبعة الثانية ١٣٩١هـ – ١٩٧٢م.
- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار. للإمام الحافظ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة إبراهيم بن عثمان أبو بكر بن أبي شيبة الكوفي العبسي. اعتنى بتحقيقه وطبعه ونشره: مختار أحمد الندوي. ط: الدار السلفية. بومباي – الهند. الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ – ١٩٨١م.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. ط: مؤسسة الرسالة. الطبعة الأولى ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.
- المعجم الأوسط. للحافظ الطبراني. تحقيق الدكتور/ محمود الطحان. ط: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع – الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

كتب التراجم والرجال والتاريخ والسير

- إتمام الأعلام ذيل لكتاب الأعلام للزركلي. تأليف: د/ نزار أباظة، ومحمد رياض المالح. ط: دار صادر بيروت .الطبعة الأولى ١٩٩٩م.
- الإصابة في تمييز الصحابة. للإمام أحمد بن علي بن حجر. ط: دار الجيل – بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
- الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. لخير الدين الزركلي ط: دار العلم للملايين. بيروت – لبنان. الطبعة الخامسة ١٩٨٠م.
- البداية والنهاية. لأبي الفداء الحافظ ابن كثير. منشورات مكتبة المعارف. بيروت – لبنان.

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. للسيوطي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: عيسى البابي الحلبي وشركاه. ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م.
- تاريخ الأمم والملوك. للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري. راجعه وصححه وضبطه نخبة من العلماء الأجلاء. منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. بيروت – لبنان. الطبعة الرابعة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- تتمة الأعلام للزركلي. تأليف: محمد خير رمضان يوسف. ط: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت – لبنان. الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- تذكرة الحفاظ. للإمام شمس الدين الذهبي. منشورات محمد علي بيضون. ط: دار الكتب العلمية. بيروت – لبنان. الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، وطبعة أخرى: دار الفكر.
- تهذيب التهذيب. للحافظ ابن حجر. ط: دار صادر بيروت. الطبعة الأولى ١٣٢٥هـ.
- سير أعلام النبلاء. للحافظ شمس الدين الذهبي. ط: مؤسسة الرسالة. بيروت.الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب. لعبد الحي بن العماد الحنبلي. ط: دار الكتب العلمية. بيروت.
- الطبقات الكبرى. لابن سعد. ط: دار صادر. بيروت. ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.
- طبقات المفسرين. للأدنروي. ط: مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة. الطبعة الأولى ١٩٧٧م.
- طبقات المفسرين. للداوودي. نشر: مكتبة وهبة. الطبعة الأولى. ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- طبقات المفسرين. للحافظ جلال الدين السيوطي. تحقيق: علي محمد عمر. الناشر مكتبة وهبة – القاهرة.
- الكامل في التاريخ. للإمام العلامة عمدة المؤرخين ابن الأثير الجزري. تحقيق: عبد الله القاضي. دار الكتب العلمية. بيروت – لبنان. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- معجم الأدباء. لياقوت الحموي. ط: مكتبة عيسى البابي الحلبي. الطبعة الأولى.

- معجم البلدان. لياقوت الحموي. ط: دار صادر بيروت. ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة. لعمر رضا كحالة. المكتبة الهاشمية بدمشق. ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م.
- معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية العلمية. لعمر رضا كحالة. مطبعة الترقي بدمشق ١٣٧٧هـ، وطبعة أخرى: مكتبة المثنى – بيروت. دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال. للحافظ شمس الدين الذهبي. تحقيق: علي محمد البجاوي. ط: دار إحياء الكتب العربية. عيسى البابي الحلبي وشركاه. الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.

كتب اللغة والمعاجم

- لسان العرب. للعلامة ابن منظور. ط: دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي. بيروت – لبنان. الطبعة الثالثة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- القاموس المحيط. للعلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي الشيرازي. نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة الأميرية سنة ١٣٠١هـ. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- مختار الصحاح. للإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي. عني بترتيبه: السيد محمود خاطر. المطبعة الأميرية بالقاهرة. الطبعة الثامنة ١٩٥٤م.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تأليف: العلامة أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي. ط: المكتبة العلمية. بيروت – لبنان.
- المعجم الوجيز. مجمع اللغة العربية. ط: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية (طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم) ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. للعلامة ابن هشام الأنصاري. حققه: الدكتور/ مازن المبارك، محمد علي حمد الله. راجعه: سعيد الأفغاني. ط: دار الفكر. بيروت – لبنان.
- المفردات في غريب القرآن. للراغب الأصفهاني. ط: دار الخلود للتراث – القاهرة.

كتب متنوعة

- الإبهاج في شرح المنهاج. على منهاج الوصول إلى علم الأصول للقاضي البيضاوي. تأليف: شيخ الإسلام علي بن عبد الكافي السبكي، وولده تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي. تحقيق: د/ شعبان محمد إسماعيل. الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة. الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- أبو الأعلى المودودي والصحوة الإسلامية. د/ محمد عمارة. دار الوحدة للطباعة والنشر – بيروت. ١٩٨٦م.
- أثر القرآن في الأمن النفسي. ناهد عبد العال الخراشي. ط: وكالة الأهرام للتوزيع– القاهرة. ١٩٨٧م.
- الأركان المادية والشرعية لجريمة القتل العمد وأجزيتها المقررة في الفقه الإسلامي. د/ يوسف علي محمود حسن. ط: دار الفكر للنشر والتوزيع. عمان – الأردن. ١٩٨٢م.
- الإسلام. للأستاذ سعيد حوى. الناشر: مكتبة وهبة – القاهرة. ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
- الإسلام عقيدة وشريعة. للإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت. ط: الإدارة العامة للثقافة بالأزهر. سنة ١٩٥٩م.
- الإسلام والاستبداد السياسي. للشيخ محمد الغزالي. الناشر: نهضة مصر. الطبعة الأولى ١٩٩٧م.
- الإسلام وأمن المجتمع "التدابير الوقائية في الإسلام". د/ أحمد عبد الرحمن إبراهيم. ط: هجر للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة. ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- الإسلام والعلاج النفسي الحديث. د/ عبد الرحمن العيسوي. ط: دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت.
- الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية. للإمام جلال الدين السيوطي. ط: دار الكتب العلمية. بيروت – لبنان. الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع. لعبد الرحمن النحلاوي. ط: دار الفكر. دمشق – سوريا. الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- أصول علم النفس. أحمد عزت راجح. ط: المكتب المصري الحديث – الأسكندرية. الطبعة الثامنة ١٩٧٠م.
- أصول الفقه الإسلامي. د / عبد المجيد مطلوب. (كتاب جامعي) نشر سنة: ١٩٨٩/٨٨م.
- الاكتساب في الرزق المستطاب. للشيباني . ط: دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٠٦هـ .
- إنسانية الإنسان [نقد علمي للحضارة المادية] رينيه دوبو. تعريب: نبيل صبحي الطويل. ط: مؤسسة الرسالة. الطبعة الثانية ١٩٨٤م.
- بدائع الفوائد. للإمام ابن قيم الجوزية. ط: مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة الطبعة الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م. تحقيق : هشام عبد العزيز عطا - عادل عبد الحميد العدوي - أشرف أحمد. عدد الأجزاء : ٤ .
- تدوين الدستور الإسلامي. للشيخ أبي الأعلى المودودي. دار الفكر – دمشق. الطبعة الثانية. بدون تاريخ.
- التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية. د / محمد منير مرسي. الناشر: عالم الكتب – القاهرة. ١٩٨٣م.
- التشريع الجنائي الإسلامي. للشيخ عبد القادر عودة. ط: دار التراث – القاهرة. الطبعة الثالثة ١٩٧٧م.
- تشنيف المسامع بجمع الجوامع. لتاج الدين السبكي. تأليف: الإمام بدر الدين الزركشي. ط: مكتبة قرطبة – القاهرة. الطبعة الثانية ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي. للشيخ محمد أبو زهرة. ط: دار الفكر العربي.
- حتمية الحل الإسلامي "تأملات في النظام السياسي الإسلامي". د/ أبو المعاطي أبو الفتوح. مطبعة الجبلاوي – القاهرة. ١٩٧٧م.
- الحديث النبوي وعلم النفس. د/ محمد عثمان نجاتي. ط: دار الشروق. الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- الحريات العامة في الدولة الإسلامية. للشيخ/ راشد الغنوشي. ط: مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت – لبنان. الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

- الحريات العامة في الفكر والنظام السياسي في الإسلام (دراسة مقارنة). د/ عبد الحكيم حسن العيلي. ط: دار الفكر العربي – القاهرة. ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
- حقوق الإنسان وحرياته الأساسية في النظام الإسلامي والنظم المعاصرة. د/ عبد الوهاب عبد العزيز الشيشاني. مطابع الجمعية الملكية العلمية – الأردن. الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- الحكومة الإسلامية. للشيخ أبي الأعلى المودودي. ترجمة: أحمد إدريس. القاهرة. ١٩٧٦م.
- الحكومة والقضاء في الإسلام. للمستشار/ عبد الحميد أحمد سليمان. ط: مكتبة التراث – القاهرة. ١٩٨٤م.
- دراسات في النفس الإنسانية. للأستاذ/ محمد قطب. ط: دار الشروق – القاهرة. الطبعة السابعة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- دع القلق وأبدأ الحياة. ديل كارينجي. تعريب: عبد المنعم محمد الزيادي. ط: مكتبة الخانجي – القاهرة. الطبعة السادسة عشر ١٩٨٠م.
- الدولة ونظام الحكم في الإسلام. د/ حسن السيد بسيوني. الناشر: عالم الكتب – القاهرة. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- الدين والدولة. د/ محمد البهي. الناشر: مكتبة وهبة – القاهرة. الطبعة الثانية ١٩٨٠م.
- روح الدين الإسلامي. لعفيف عبد الفتاح طبارة. ط: دار العلم للملايين. بيروت – لبنان. الطبعة الخامسة والعشرون ١٩٨٥م.
- السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد. للدكتور: عبد الكريم زيدان. ط: مؤسسة الرسالة. بيروت – لبنان. الطبعة الثالثة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- سنن الله في المجتمع من خلال القرآن. للشيخ: محمد الصادق عرجون. منشورات الدار السعودية للنشر والتوزيع – جدة. الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية. للإمام ابن تيمية. تحقيق وتعليق: د/ محمد إبراهيم البنا، ومحمد أحمد عاشور. ط: دار الشعب – القاهرة ١٩٧١م.

- شذا العرف في فن الصرف. تأليف الأستاذ: أحمد الحملاوي. ط: دار الفكر. بيروت – لبنان. سنة ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- شرح الصاوي على جوهرة التوحيد. للشيخ أحمد بن محمد المالكي الصاوي. تحقيق وتعليق: د/ عبد الفتاح البزم. ط: دار بن كثير – دمشق، بيروت. الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- شرح الكوكب المنير. لمحمد بن أحمد الفتوحي المعروف بابن النجار. ط: دار الفكر – دمشق. سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- شرح المقاصد. للإمام مسعود بن عمر الشهير بسعد الدين التفتازاني. تحقيق: د/ عبد الرحمن عميرة. ط: علم الكتب – بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٩م.
- الشورى في ظل نظام الحكم الإسلامي. لعبد الرحمن عبد الخالق. ط: دار القلم – الكويت. ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- الطريق إلى التراث "مقدمات معرفية ومداخل منهجية". لفضيلة الأستاذ الدكتور/ علي جمعة – مفتي الديار المصرية. الناشر: نهضة مصر. الطبعة الأولي. أكتوبر ٢٠٠٤م.
- ظفر الأماني بشرح مختصر السيد الشريف الجرجاني. في مصطلح الحديث. للإمام المحدث الفقيه: محمد عبد الحي اللكنوي الهندي. تحقيق: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة. الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب. الطبعة الثالثة في بيروت ١٤١٦هـ.
- عالم الأحياء والأيدولوجيا والطبيعة البشرية. ستيفن روز وآخرون.ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي. مراجعة محمد عصفور. سلسلة عالم المعرفة رقم ١٤٨ رمضان ١٤١٠هـ أبريل ١٩٩٠م.
- العقد الفريد. لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي. شرحه وضبطه وصححه: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الإبياري. ط: دار الكتاب العربي.
- علم النفس المعاصر في ضوء الإسلام. د/ محمد محمود محمد. ط: دار الشروق – جدة. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.
- فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم. د / على خليل مصطفي أبو العينين. ط: مكتبة إبراهيم حلب – المدينة المنورة. الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

- فن الحكم في الإسلام. د/ مصطفى أبو زيد فهمي. ط: المكتب المصري الحديث – القاهرة. ١٩٨١م.
- الفوائد. للإمام ابن قيم الجوزية. ط: دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م.
- في أصول النظام الجنائي الإسلامي "دراسة مقارنة". د/ محمد سليم العوا. ط: دار المعارف – القاهرة. الطبعة الثانية ١٩٨٣م.
- في الطب النفسي النبوي. د/ حسن محمد الشرقاوي. ط: دار المطبوعات الجديدة – الأسكندرية. ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.
- القرآن وعلم النفس. د/ محمد عثمان نجاتي. ط: دار الشروق – القاهرة. الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.
- قواعد الأحكام في مصالح الأنام. للإمام المحدث الفقيه: سلطان العلماء أبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي. راجعه وعلق عليه: طه عبد الرءوف سعد. ط: دار الجيل. بيروت – لبنان. الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.
- قواعد المقاصد عند الإمام الشاطبي "عرضًا ودراسة وتحليلًا". د / عبد الرحمن إبراهيم الكيلاني. ط: دار الفكر. دمشق – سوريا. الطبعة الأولى ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.
- كتاب وزارة الداخلية السعودية عن الندوة العلمية لدراسة تطبيق التشريع الجنائي الإسلامي وأثره في مكافحة الجريمة – الرياض – شوال ١٣٩٦هـ.
- مبادئ التربية وطرق التدريس. عبد المجيد عبد الرحيم. ط: مكتبة النهضة المصرية – القاهرة. الطبعة الثالثة ١٩٧٨م.
- مدخل إلى القيم الإسلامية. للدكتور / جابر قميحة. الناشرون: دار الكتب الإسلامية. دار الكتاب المصري – القاهرة، دار الكتاب اللبناني – بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.
- المدخل لدراسة القانون (نظرية القانون ونظرية الحق). د/ نزيه محمد الصادق المهدي.(كتاب جامعي) ط: المؤسسة الفنية للطباعة والنشر – مصر. سنة ٢٠٠٥م.

- المدونة الكبرى. للإمام مالك بن أنس. مطبعة السعادة – مصر. سنة ١٣٢٣هـ.
- مقدمة الإحصاء التطبيقي. لعبادة سرحان وآخرين. ط: دار الجيل للطباعة ١٩٧٢م .
- من علم النفس القرآني. د/ عدنان الشريف. ط: دار العلم للملايين – بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٧م.
- منهج التربية الإسلامية. للأستاذ/ محمد قطب. ط: دار الشروق – القاهرة. الطبعة الرابعة عشر ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.
- الموافقات في أصول الشريعة. لأبي إسحاق الشاطبي. شرح وتعليق: الشيخ عبد الله دراز. مطبعة المكتبة التجارية الكبرى بمصر.
- الموسوعة القرآنية الميسرة. تصنيف: إبراهيم الإبياري. الناشر: مؤسسة سجل العرب – القاهرة. ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.
- نظام الحكم الإسلامي مقارنة بالنظم المعاصرة. د/ محمود حلمي. ط: دار الهدى للطباعة – القاهرة. الطبعة الرابعة ١٩٧٩م.
- نظام الحكم في الإسلام. د/ عبد الحميد إسماعيل الأنصاري. ط: دار قطري بن الفجاءة – قطر. ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.
- نظام الشورى في الإسلام ونظم الديمقراطية المعاصرة. د/ زكريا عبد المنعم إبراهيم الخطيب. مطبعة السعادة – القاهرة. ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.
- نظرة القرآن إلى الجريمة والعقاب. د/ محمد عبد المنعم القيعي. ط: دار المنار – القاهرة. الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.
- النظريات السياسية الإسلامية. د/ محمد ضياء الدين الريس. ط: دار المعارف – القاهرة. الطبعة الرابعة ١٩٦٦م.
- نظرية الخلافة الإسلامية. د/ محمد عمارة. دار الثقافة الجديدة – القاهرة. ١٩٧٩م.
- نظرية القيم السياسية د/ حامد عبد الله ربيع. (مذكرات غير منشورة) قسم العلوم السياسية – كلية الاقتصاد والعلوم السياسية – جامعة القاهرة سنة ١٩٨٢م .

- نظرية المقاصد عن الإمام الشاطبي. لأحمد الريسوني. نشر وتوزيع: الدار العلمية للكتاب الإسلامي – الرياض. الطبعة الثانية ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.
- هموم داعية. للشيخ محمد الغزالي. ط: دار إثبات للنشر والتوزيع – القاهرة.

رسائل وأبحاث ومقالات

أولا: الرسائل

- الأبعاد التربوية لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند الفقهاء والمتكلمين. (رسالة ماجستير غير منشورة) إعداد الباحث / عادل محمد عبد الحليم السكري. جامعة عين شمس. كلية التربية. قسم أصول التربية. سنة ١٩٨٨م.
- التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية [البحث في النفس الإنسانية والمنظور الإسلامي] (رسالة دكتوراه منشورة) د/ محمد عز الدين توفيق. قدمت إلى الجامعة المغربية – كلية الآداب. بدون تاريخ.
- الثواب والعقاب في الفكر التربوي الإسلامي (رسالة دكتوراه غير منشورة) إعداد / محمد محمود عبد العال. جامعة أسيوط. كلية التربية. قسم أصول التربية. سنة ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م.
- أصول تربية الطفل في الإسلام (رسالة دكتوراه غير منشورة) إعداد / حسن إبراهيم عبد العال. جامعة طنطا. كلية التربية. قسم أصول التربية. سنة ١٩٩٠م.
- دراسة حول العدالة في نظام القيم السياسية الإسلامية (رسالة ماجستير غير منشورة) إعداد: خليل عبد المنعم خليل مرعي. قسم العلوم السياسية. كلية الاقتصاد والعلوم السياسية. جامعة القاهرة. سنة ١٩٩١م .
- دراسة ناقدة لأساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام (رسالة ماجستير منشورة) إعداد / فتحية عمر رفاعي الحلواني. قدمت إلى كلية التربية. جامعة أم القرى بمكة المكرمة. سنة ١٤٠٢هـ.
- السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم أصول وضوابط (رسالة دكتوراه منشورة) للباحث: مجدي محمد محمد عاشور. جامعة عين شمس. كلية الآداب. قسم اللغة العربية. سنة ٢٠٠٣م. تحت أشراف الأستاذ الدكتور: مصطفي محمد الشكعة.

- المبادئ الشرعية في أحكام العقوبات في الفقه الإسلامي "بحث فقهي مقارن" (رسالة دكتوراه منشورة) د/ عبد السلام محمد الشريف. قدمت إلى الجامعة التونسية. كلية الزيتونة للشريعة وأصول الدين. سنة ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م .

ثانيًا: الأبحاث

- الأخلاق في الاقتصاد الإسلامي. د/ رفعت السعيد العوضي. بحث ضمن ندوة التربية الاقتصادية والإنمائية في الإسلام. مركز الاقتصاد الإسلامي- جامعة الأزهر ٢٠٠٢م.
- تحليل مقارن للنماذج المعرفية الإسلامية والغربية. د/ أحمد داود أغلو – أستاذ ورئيس قسم العلاقات الدولية بجامعة بيكنت في استانبول – تركيا. دكتوراه في العلوم السياسية والعلاقات الدولية من جامعة البوسفور في استانبول سنة ١٩٩٠م ومدير مؤسسة العلوم والفنون في استانبول – وقد قدم هذا البحث باللغة الإنجليزية للمشاركة في الحلقة الدراسية عن النظام المعرفي التي عقدت في الأردن في يونيو سنة ١٩٩٨م، وقامت مجلة "إسلامية المعرفة" التي يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي بترجمته ونشره في عددها الثاني والعشرين خريف عام ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م .
- التربية الاقتصادية الإسلامية بين الشكل والجوهر. د/ الغريب محمد بيومي. بحث ضمن ندوة التربية الاقتصادية والإنمائية في الإسلام. مركز الاقتصاد الإسلامي. جامعة الأزهر ٢٠٠٢م.
- تنمية الصحة النفسية مسئوليات الفرد في الإسلام وعلم النفس. د/ كمال إبراهيم موسى. بحث ضمن أبحاث ندوة علم النفس التي نظمها المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالاشتراك مع الجمعية العربية للتربية الإسلامية. القاهرة سنة ١٩٨٩م.
- السياسة الاقتصادية في إطار مقاصد الشريعة الإسلامية. لمحمد عبد المنعم عفر. مركز بحوث الدراسات الإسلامية بمعهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي- مكة المكرمة ١٤١٥هـ.
- العقاب البدني: هل هو أبغض الحلال إلى المربين؟. سلمان العمري. المجلة العربية. تصدر في المملكة العربية السعودية. السنة العاشرة العدد ١١٠ نوفمبر سنة ١٩٨٦م.

- علماء النفس المسلمون في جحر الضب. د/ مالك بدري. بحث مترجم قامت بترجمته ونشره مجلة المسلم المعاصر في العدد السادس عشر. شوال – ذو القعدة – ذو الحجة ١٣٩٨هـ أكتوبر- نوفمبر- ديسمبر ١٩٧٨م.
- فرضية التناغم بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة في ميزان الشريعة الإسلامية. د/ عبد الهادي النجار. بحث ضمن ندوة التربية الاقتصادية والإنمائية في الإسلام. مركز الاقتصاد الإسلامي ٢٠٠٢م.
- فرضية المنفعة الذاتية وأثرها على السلوك الاقتصادي. د/ أمين منتصر. بحث ضمن ندوة التربية الاقتصادية والإنمائية في الإسلام. مركز الاقتصاد الإسلامي- جامعة الأزهر ٢٠٠٢م.
- مبادئ التربية الاقتصادية للمستهلك في الإسلام. د/ منى على السالوس. بحث ضمن ندوة التربية الاقتصادية والإنمائية في الإسلام. مركز الاقتصاد الإسلامي. جامعة الأزهر٢٠٠٢م.
- مفهوم النظام المعرفي الإسلامي. د/ نصر محمد عارف – أستاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة وأستاذ زائر بجامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية بفرجينيا – وقد حصلت على هذا البحث من شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) من موقع: بلاغ دوت كوم www.balagh.com .

ثالثاً: المقالات

- مقال بعنوان: (مفهوم الأمة) لفضيلة الأستاذ الدكتور/ علي جمعة – مفتي الديار المصرية. نشر بجريدة الأهرام في عددها الصادر يوم ٢٢ مايو سنة ٢٠٠٤م .
- ثلاث مقالات نشرت في جريدة الأهرام تحت عنوان: "النموذج المعرفي الإسلامي وتجديد الخطاب الديني" بتواريخ/ ١٠ أبريل ٢٠٠٤م – و٢٤ أبريل ٢٠٠٤م – ٨ مايو ٢٠٠٤م. لفضيلة الأستاذ الدكتور/ علي جمعة – مفتي الديار المصرية.

***

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع الصفحة

الموضوع **الصفحة**

***